مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السادسة والعشرون . العدد ٢٨٤ . ربيع الثاني ١٤٣٢ هـ . مارس ٢٠١١ م

ليبيا

مصر

تونس

إلى الأحبة
في تونس الخضراء

بين الراعي والرعيَّة

الخصم الأكبر!

الشيخ رائد صلاح
في حوار خاص مع البيان

إلى أين يتجه العرب؟

مستشفى أبها الخاص

الراعي الطبي لمهرجان أبها للتسوق

إتفاقية التعاون الطبي مع جامعة ماكجيل بكندا ومركز ديترويت الطبي العالمي

استشاريون سعوديون في جميع التخصصات

مجمع خاص ومتكامل للنساء

كفاءات طبية متميزة

تجهيزات طبية حديثة

وحدات متخصصة في خدمتكم

وحدة طب وجراحة المخ والأعصاب
وحدة جراحة العظام والعمود الفقري
وحدة جراحة التجميل وشفط الدهون
وحدة جراحة الكلى والمسالك البولية
وحدة الجراحة العامة والمناظير
وحدة الأنف والأذن والحنجرة
وحدة الأمراض الباطنية والمناظير
وحدة أمراض الشرج والمستقيم

وحدة طب وجراحة العيون
وحدة النساء والولادة
وحدة الأطفال وحديثي الولادة
وحدة جراحة الأطفال
وحدة الجلدية والتناسلية
وحدة الأمراض الصدرية
وحدة العلاج الطبيعي والتأهيل

وحدة أمراض الكلى
وحدة السمنة والسكر
وحدة الطب النفسي
وحدة أمراض القلب والشرايين
وحدة علاج الروماتيزم والمفاصل
وحدة طب وجراحة الأسنان
وحدة العناية المركزة

وحدة الطوارئ واستقبال الحوادث على مدار ٢٤ ساعة

جهاز الليزر الأخضر KTP
لاستئصال تضخم البروستاتا

جهاز الأشعة تحت الحمراء
للبواسير

جهاز الموجات الصوتية رباعي الأبعاد

جهاز الليزر الكربوني للعناية بالبشرة

جهاز قياس جهد القلب

جهاز ديكسا DEXA لقياس هشاشة العظام

المنظار
الجراحي

أبها - شمال الخطوط السعودية -هاتف: ٢٢٩٢٢٢٢ فاكس : ٢٢٤٤٨٠١ ص ب : ١٧٩٤
البريد الإليكتروني : info@aph.med.sa www.aph.med.sa

ABHA PRIVATE HOSPITAL

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

الافتتاحية

٤ إلى الأحبة في تونس الخضراء
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ الألحاد
د. عبد العزيز البداح

الغرب: قراءة عقدية

١٢ «سر الماسونية الأكبر»
فيصل بن علي الكاملي

قضايا دعوية

١٦ تأملات في سِيَر المقدوات
نايف بن محمد اليحيى

٢٠ آليات التبعيَّة... التماثل و الإذعان
أ. د. محمد أمحزون

قضايا تربوية

٢٤ طيب الكسب وصلاح الأبناء
عبد العزيز مصطفى الشامي

معركة النَّص

٢٨ الخصم الأكبر!
فهد بن صالح العجلان

نص شعري

٣١ عِبْرَة
عبد العزيز بن صالح العسكر

حوار

٣٢ حوار مع الشيخ رائد صلاح
حاوره مجلة البيان

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وايرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

ملف العدد

٤٠ العدل قيمة إسلامية مُطْلَقة
محمد بن شاكر الشريف

٤٤ النظام التونسي والإسلام... القصة الكاملة
حمَّاد القباج

٤٨ تهميش المواطن.. معركة خاسرة ولو بعد حين
السنوسي محمد السنوسي

٥٢ الإعلام الاجتماعي إعلام التغيير
باسل النيرب

٥٦ النظام العربي الجديد...
محمود المبارك

٦٠ حسابات القوى الإقليمية في ضوء المتغيرات العربية
علي حسين باكير

٦٤ مصر... ماذا بعد؟
طلعت رميح

٧٠ التصريحات الإيرانية عن الثورة المصرية.... والمرايا العاكسة
أحمد عمرو

٧٤ النفاق الغربي ودروس لمن يفهم!
عامر عبد المنعم

٧٦ مرصد الأحداث — جلال سعد الشايب

قصة قصيرة

٨١ على هامش القمع — معتز أبو عين

قضايا فكرية

٨٢ إشكال العَلمانية في فكر المسيري...
أ. د أحمد محمد الدغشي

تاريخية

٨٨ كُتُب النوازل — أنور محمود زناتي

الباب المفتوح

٩٢ اللغات الأجنبية وأثرها على الهوية الإسلامية
عبد الكريم القلالي

الورقة الأخيرة

٩٤ بين الراعي والرعيَّة
أحمد بن عبد الرحمن الصويان

[كلمة صغيرة]

الحقوق والمصالح الشرعية

إن من بشائر هذه المرحلة شيوعُ جملة من المفاهيم والقيم الشرعية التي كانت تعيش حالة من الضمور والفتور قبل ذلك، مثل معاني العدل، وحفظ الحقوق، وتحقيق مصالح الفرد والمجتمع، ورفض الظلم ومحاسبة المعتدين على مصالح الأمة وثرواتها... وغير ذلك من الأصول الشرعية الضرورية التي جاءت في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهي من خصائص سنَّة الخلفاء الراشدين؛ فهي من صميم الإسلام وضروريات الشريعة؛ وأي دعوة للإسلام فلا بدَّ أن تكون هذه المفاهيم والمعاني حاضرة في أدبياتها؛ لأنها جزء أصيل من دعوة الإسلام، ومما يريده الله من عباده المصلحين الذين يبحثون عن مرضاته، ويَحسُن التنبيه في هذا لأمرين:

الأمر الأول: أهمية تبنِّي هذه الأصول وإشاعتها وتنشئة المجتمعات عليها ابتداءً؛ لكونها أصلاً من أصول الإسلام الذي نتعبد الله بالدعوة إليه، وهو الأساس الذي تحرَّك من أجله المصلحون الغيورون على مجتمعاتهم، لتستقرَّ في عمق أصولنا ديانة وتقريراً وتطبيقاً، وليس لأجل مسايرة لحالة مَّا أو تحقيقاً لمصالح معيَّنة، وفي المقابل يجب أن لا تكون هذه المعاني مجالاً للمزايدة أو تشويه بعضنا لبعض؛ فكلٌّ جهد يصبُّ في هذا المسار فهو جهد مشكور مبرور، يُفرِح قلب المسلم؛ لأنه في النهاية يحقق شيئاً مما يريده الله تعالى.

الأمر الثاني: ضرورة العناية بهذه الأصول من خلال مرجعية الشريعة؛ فالعدل والحقوق والمصالح ليست مقتصرة على الشأن الدنيوي البحت أو الجانب المادي المحض، بل إن المصالح تشمل مصالح الدنيا والآخرة، كما أنَّ للإسلام تفسيرَه وقواعدَه للعدل والمصلحة ونحوها؛ فليست هي أحكاماً مطلَقة قد تركت الشريعةُ تفسيرَها للناس، بل للشريعة الإسلامية رؤيتُها الشاملة لهذه المعاني ودرجة أهميتها، فيجب أن تكون الدعوة إلى هذه المعاني منطلقةً من مرجعية الإسلام وإلا فكلُّ الثقافات تقرر العدل وتدعو لحفظ الحقوق فأي شيء تميَّزت به الشريعة الإسلامية إذن؟

إلى الأحبة في تونس الخضراء

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لقد شهدت بلادكم إزاحة رأس القهر والفساد والاستبداد، وبدأت - بحمد الله - خطوات متتابعة لتفكيك نظامه وتطهير البلاد من تاريخه الآسن، وما يزال أمامها خطوات أخرى مهمة نحو الاستقرار السياسي، والعدل الاجتماعي، والتمكين لذوي الاعتدال والأمانة والخبرة والحنكة التي تمنع الالتفاف على أهداف الثورة.

وإننا في مجلة البيان نهنئكم أولاً بانكشاف تلك الغمة، ونحمد الله - عز وجل - على فضله وإحسانه، ثم إننا نحب لكم ما نحبه لأمة الإسلام قاطبة من السلامة والتوفيق في الدين والدنيا، ونقول لكم - وأنظار العالم مشدودة إليكم تنتظر برامجكم ومواقفكم -: إنَّ أمامكم مسؤولياتٍ كبيرةً في المدى القريب والمتوسط، والأوليات التي ستتنازعكم كثيرة جداً، وأنتم أدرى بلا شك في تقويم المرحلة التاريخية التي تمرون بها، وأدرى بخريطة الطريق التي ينبغي أن تهتدوا بها، وأحسب أنكم تدركون أنه من الواجب التعامل مع هذه المرحلة التاريخية ليس بمنطق الحزب المنغلق المنكفئ على رجاله وقواعده فحسب، بل إن قوَّتكم الحقيقية هي في حمل راية الإصلاح والتجديد في تونس كلها، وتوظيف جميع الطاقات بمختلف طبقاتها وشرائحها (الفكرية والاجتماعية) لأجلها، فأنتم أكبر من مجرد حزب سياسي، ومهمتكم أعظم من مشروع حركي؛ فواجبكم هو تونس... تونس كلُّها، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

إن مما نطمح أن تلحظوه في حاضركم وقابل أيامكم، وما نخالُكم إلا تدركونه وتعملون على تحقيقه؛ لكنها ذكرى لكم، ونرجو أن نكون وإياكم من المتواصين بالحق المتواصين بالصبر:

أولاً: أن رسالتكم (رسالة الإسلام) هي أشرف الرسالات، ومهمتكم الدعوية هي أحسن المهمات وأعلاها منزلة عند ربكم. قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. وركيزة هذه الرسالة العظيمة: الإخلاص فيها لله – تعالى – وحده لا شريك له، فلا تنفكوا عن ذلك إلى أي مغنم سياسي مجرد، أو مكسب مادي محض، فكونوا مع الله في شأنكم كله؛ فإذا قلتم فإنما تقولون لله وحده، وإذا عملتم فإنما تعملون لله وحده، وإذا سعيتم إلى نيل وظائف عامة فإنما تسعون لله وحده، وإذا شاركتم في أي نشاط سياسي أو اجتماعي فإنما تشاركون لله وحده، بل اجتهدوا أن تكون حياتكم كلها لله – جل وعلا – وحده، كما أمر الله – تعالى – نبيه ﷺ قائلاً له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣]، فاحتسبوا الأجر عنده وحده، إنه – سبحانه – ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

ثانياً: لا يخفى عليكم أن جهودكم إنما تنجح وتؤتي ثمارها الطيبة وأُكُلَها المبارَك إذا اعتمدت على العلم الشرعي الذي ورَّثه النبي ﷺ لأمته، وفَقِهَه الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – عن رسول الله ﷺ، وحمله عنهم من تبعهم بإحسان من علماء السُّنة خلفاً عن سلف، وصلح به أول هذه الأمة، التي لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها؛ كما قال إمام دار الهجرة.

ولا شك أنكم تعلمون أن في مقدمة أسس ذلك العلم وأدواته: تعليم القرآن الكريم، وتفُّهمه، وتدبُّره، وتحفيظه، والعمل بدلائله وأحكامه، ونشر السُّنة النبوية المشرَّفة وتعظيمها وتدارُسها وتطبيقها والاهتداء بهداياتها، وإقامة الدورات التكوينية والدروس والمحاضرات في علوم الشريعة، وفي التربية الربانية الموجَّهة لفئات المجتمع، ونشر كتب العلماء المسلمين المتخصصين الثقات ذوي الفهوم الأصيلة في شتى العلوم والفنون، وتنفيذ البرامج والخطط الثقافية والإعلامية والتربوية، التي يكون عمادها صقل القلوب بالعقيدة الصحيحة، وتهذيب السلوك بالخُلق الرباني، وبناء الفكر على القواعد الشرعية السليمة، وإنشاء المحاضن اللازمة لكل ذلك، والسعي في نشر العلم النافع الشريف قصارى الجهد؛ إذ إن مَن فرَّط فيه لم يكن ليعطيه، بل سيكون عاجزاً عن إبانة الحق، وردِّ الشُّبه عن هذه الشريعة الغراء، ولن تكون له قدرة على تصحيح المفاهيم المغلوطة حوله، بل سيظل محاطاً بالبدع، ويُخشى أن تتلاعب به الأهواء والأغراض؛ ذلك أن من فقد العلم سيلجأ إلى معارضة القرآن بالعقل والرأي، وسيقول فيه بالهوى والذوق والوجْد والمكاشفة، ولن يزال يعارض ويقول جهلاً بأدلة الشريعة وفقهها في الأصول والفروع.

لقد كاد يندرس العلم الشرعي الأصيل خلال العشريَّتين الماضيتين، ومُسخَت مراكزه العلمية التاريخية، وهُجرَت أصوله ومحاضنه الشريفة، وأمامكم مهمة عظيمة في تجديد ذلك، وإحياء أمجاد الزيتونة، ومآثر الأئمة (سحنون، وأسد بن الفرات، والمازري، وابن عاشور، رحمهم الله جميعاً)؛ فالعلم هو الأساس والمنطلق، وهو سلاح الأنبياء والمرسلين – عليهم الصلاة والسلام – كما قال الله – تعالى –: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وأَوْلَى الناس بحمل لواء العلم وتعلُّمه وتعليمه قيادات الدعوة الإسلامية وأبناؤها؛ فبالعلم تَشرُف الدعوات وتعلو الرايات، وبه وحدَه تستقيم السبيل. قال الله – تعالى –: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ثالثاً: لقد بذل النظام التونسي البائد منذ عهود الاستقلال جهوداً كبيرة لتغريب المجتمع، ومسخ هويته، وانتزاعه من جذوره الحضارية، واقتلاعه من أصوله التاريخية، وعمل بأقصى جهوده على صياغة مؤسسات الدولة كلها (التربوية، والتعليمية، والاجتماعية، والتشريعية) لتتوافق مع الرؤية العَلمانية المعادية للدين. فأنشأ أجيالاً من أبناء تونس الحبيبة تربوا على تلك الموائد الغريبة (فكراً وخلقاً ولساناً)، وقد آن الأوان لإعادة صياغة المجتمع، وتشكيل هويته وفكره وأخلاقه من جديد، وهذا – بلا شك – يتطلب جهداً مضاعفاً، يجب أن تُستنهَض له الطاقات ويُستنفَر له الناس خفافاً وثقالاً.

لقد ورث التونسيون تركة مهترئة فكرياً وثقافياً، وندرك صعوبة تغيير ذلك، والتحديات الكبيرة التي قد تواجهونها، ولكننا نثق بعون الله ثم بفطرة الشعب التونسي وحنينه إلى محاضنه العزيزة الكريمة التي طالما حُرِم منها، كما نثق بوعيه ووعي رجاله في ضرورة التصحيح والتغيير الإيجابي، الذي يبني أمة عزيزة في هويتها وقيَمها، عزيزة في ثقافتها وفكرها، عريقة في جذورها، أصيلة في تاريخها.

ومشروع بناء الهوية وترسيخ قواعدها الأصيلة في المجتمع التونسي ينبغي أن يكون أولى الأولويات، فلا يسوغ أن يشغلكم عنه عمل سياسي، أو نشاط حزبي، أو عمل حقوقي.

ومما تنبغي الإشادة به أن ثلة كريمة من أبناء تونس كانت

لهم أدوار محمودة مشكورة خلال العقدين الماضيين في الحافظ على الدين وتعزيز الأخـــلاق الفاضلة وتعليم القرآن العظيم... صابروا على ذلك ورابطوا؛ على الرغم من الظروف القاســية التـــي كانت تمر بها البلاد، فنســـأل اللـــه – تعالى – أن يرفع درجاتهم ويبارك في أعمارهم وأعمالهم.

رابعاً: كما أن هوية المجتمع التونســـي بحاجة إلى تجديد، فإن ميثاق الدعوة الإســـلامية بحاجة إلـــى مراجعة وتجديد؛ فالمرحلة الجديدة من تاريخ تونس تتطلب أفقاً ناضجاً، وإدراكاً واعياً لمتطلبـــات المرحلة وتحدياتها الكثيـــرة، والدعوات التي لا تتجدد وتعيد بناء نفســـها تظل تتآكل حتى تأســـن وتضعف، ويُقعدُهـــا الوهن، ثم لا تلبـــث أن تفقد فاعليتهـــا وقوَّتها في المجتمـــع. وقوة الانطلاق التي قوبلت بهـــا قيادات الدعوة بعد ســـقوط النظام، يجب أن تتبعها قوة التجديد والتصحيح؛ سواء أكان ذلك في الأصـــول الفكرية والمنطلقـــات الدعوية، أم في الأهداف والأولويات، أم في الوسائل والبرامج.

خامســاً: لا شك أن استثمار المرحلة السياسية الراهنة في ترســـيخ الوجود والفعل السياسي الإسلامي يُعَدُّ من الأولويات المهمة التي نشـــدُّ على أيديكم لرعايتها والعناية بها، بأفق واعٍ للتحديات المحلية والإقليمية والدولية التي تحيط بكم. والمجتمع التونسي أحوج ما يكون في هذه المرحلة إلى الخطاب السياسي الإســـلامي المتزن، الذي يحوز قصب السبق في تجديد معالم العدل السياســـي والإنصاف الاجتماعي، ويترفع عن المناكفات الحزبية، والشعارات المصلحية، ويسعى بكل صدق لتحقيق أكبر قدر ممكن من المصالح، ويدرأ ما يمكن من المفاسد التي أنهكت الأمة وعطلت من نهضتها.

ومع أهمية هذا الميدان السياســـي وإيماننا بضرورته؛ فلا يخفى عليكم أنكم دعوة إسلامية، ولستم مجرد حزب سياسي، وهذا يعني أنكم تحملون رسالة الإسلام بشمولها وكمالها، كما قال – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فمسؤوليتكم السياسية جزء من مسؤوليتكم العظيمة في رعاية الدين وإذكاء جذوته فـــي المجتمع، والحرص على تعبيد الناس لله رب العالمين، وتربيتهم على أصول الإسلام وقواعده.

والدعـــوة التي تســـتطيع أن تحقق الشـــمول والتكامل في برامجها هي الدعوة التي تمتد جذورها في عمق الأمة، وتكون بإذن الله – تعالى – قادرة على تجديد الدين وحَمْل رايته.

سادساً: المشاركة الإيجابية مع جميع فئات المجتمع الوطنية في معالجة إرث الاســـتبداد السياسي والفساد الإداري والمالي السابق، وتفكيك مؤسساته، على أســـس تحصيل المصالح العامة الصريحة وتكميلها، وتعطيل المفاســـد وتقليلها؛ وذلك بالأســـاليب الحكيمة المعروفة عنكم، المقتضية للتمســـك بالكليـــات، والعناية بالمقاصد، وتقديم خيـــر الخيـــرين عند تعذُّر العمل بهما، ودفع شرِّ الشرين، وحمـــد المحمود، وذم المذموم، فقد قـــال الله – تعالى – لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وإن مما ينبغي أن تعتني به دعوتكم (عاجلاً): بناء المؤسسات الاجتماعية التي تلتحم بالناس، وتقترب منهم، وتسهم بإيجابية في حل مشـــكلاتهم، وتســـعى لتفريج كرباتهم، والتخفيف من معاناتهم، وهذا أمر عظيم حث عليه الشارع الحكيم.

لقد مارس النظام البائد أســـلوباً ممنهجاً في نهب الثروات وإفقـــار المجتمع، وزلزلـــة أركانـــه بالبطالـــة؛ وها هنا يأتي دور المصلحين والعقلاء في استنقاذ الناس من مستنقع الفقر. نعم! لن يتحقق ذلك في يوم وليلة، ولن تســـتطيع دعوتكم مهما كانت قوية أن تعالج إرث ســـنوات طويلة، لكن عندما نسلك السبيل، ونبني المؤسسات، ونبذل الوسع؛ يجعل الله لنا من أمرنا يسراً، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٢ – ٣].

ســابعاً: من جنايات النظام البائد أنه شـــرَّد المصلحين من أبنـــاء تونس الكـــرام، فتفرقوا في الأمصـــار قريبها وبعيدها، وفقدت تونس كثيراً من نبلائها وعقلائها. ومن أولويات الدعوة الإســـلامية أن تهيئ الأجواء المناسبة لإعادة استقطاب أبنائها وجمع شـــتاتهم، لتســـتفيد من علومهم وخبراتهـــم، ولتوظيف إمكاناتهـــم الكبيرة في خدمة الأمة، ولتعيد بناء الدعوة وتجدد دماءهـــا، ليكونوا مع إخوانهـــم في الداخل وحدة متماســـكة متآلفـــة، تجمع المتفرق، وتوحد الصـــف. ورأس المال الحقيقي لأي تجمُّع بشـــري إنما هو في الرواحل الشـــداد التي تتحمل المسؤولية وتأخذها بحقها، ومن مقتضيات ذلك الاعتصام بحبل الله المتين، والائتـــلاف على كلمة الحق، والتطاوع في المعروف، امتثـــالاً لقول الحق – تبـــارك وتعالى –: ﴿ وَاعْتَصِمُـــوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًـــا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمـــران: ١٠٣]، وقول النبي ﷺ: «تطاوعا ولا تختلفا».

نسأل الله – تعالى – أن يوفقنا وإياكم إلى ما يحبه ويرضاه وينصر بكم الإسلام والمسلمين في تونس الخضراء. آمين!

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالصفراء ببريدة

قال رسول اللّه ﷺ

(لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)
(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً) رواه مسلم

أرشدني للإسلام ولك مثل أجري

ساهم في دعوة غير المسلمين للإسلام

الحساب العام
IBAN : SA6780000162608010060006

حساب الزكاة
IBAN : SA2580000192608010002226

أهداف المشروع :

دعوة غير المسلمين ، رعاية المسلمين الجدد ، تعليم المسلمين العلم الشرعي ، طباعة وتوزيع الكتب والأشرطة بعدة لغات

طريقة الدعم :

التحويل عن طريق الصراف الآلي ، الإنترنت الجمعيات الخيرية ، الإيداع عن طريق البنك .

لك ولوالديك ولمن تحب وقف نصرة النبي ﷺ

تم شراء الوقف بـ 2000000
سدد حتى الآن 1000000

فبادر بالمساهمة في نصرة نبيك ﷺ

الراجحي من جميع البنوك
IBAN : SA7380000 162608010062226

هذا الإعلان برعاية مؤسسة الشيخ سليمان بن عبدالعزيز الراجحي الخيرية

للتواصل

هاتف 063830072 فاكس 063821620
ص. ب. 877 الرمز 51421 القصيم / بريدة
جوال 0546419887 0545922111

موقعنا على الانترنت
www.dean4me.com

الإلحاد

د. عبد العزيز البداح

تعريف الإلحاد:

الإلحاد لغة: ألحد بمعنى: مالَ، وعدل، وماري، وجادل، وجار، وظلم[1]. ولحد الرجل في الدين لحداً، وألحد إلحاداً: طعن[2].

وقد ورد لفظ الإلحاد في القرآن في ثلاثة مواضع، وهي:

• قوله – تعالى –: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

• وقوله – تعالى –: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

• وقوله – تعالى –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠].

والمراد بالإلحاد في هذه الآيات العدول، والميل، والتكذيب، والذنب.

الإلحاد في الاصطلاح: يمكن تقسيم تعريفات الإلحاد إلى قسمين:

أولاً: تعريف عام بناءً على أصله اللغوي:

قال ابن الجوزي: (الإلحاد العدول عن الاستقامة)[3].

وقال شيخ الإسلام: (الإلحاد يقتضي ميلاً عن شيء إلى شيء باطل)[4]. وقال الكفوي: (الإلحاد: الميل عن الحق)[5]. وقال ابن عثيمين: (العدول عمَّا يجب اعتقاده أو عمله)[6].

ثانياً: تعريفه كمذهب:

جاء في المعجم الفلسفي: (الإلحاد مذهب من ينكرون الألوهية، والملحد غير مؤلِّه، وهذا معنى شائع في تاريخ الفكر الإنساني)[7]. وهذا الوضع إنما جرى عليه الاصطلاح لدى الكتَّاب المعاصرين؛ إذ قصروا الإلحاد على إنكار وجود الخالق.

أنواع الإلحاد:

النوع الأول: الإلحاد بإنكار وجود الله:

لم ينكر المشركون الذين بُعِث فيهم النبي ﷺ توحيد الربوبية، بل كانوا مقرِّين به كما قال – تعالى –: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم

(١) القاموس المحيط، ص٤٠٤. المصباح المنير: ٢/١٠٦.
(٢) المصباح المنير: ٢/١٠٦.
(٣) تلبيس إبليس، ص (١٤٥).
(٤) مجموع الفتاوى: ١٢/١٢٤.
(٥) الكليات، ص٤٩٠.
(٦) فتح ربِّ البرية بتلخيص الحَمَوية، ص٧.
(٧) المعجم الفلسفي، ص٢٠.

﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]. قال ابن القيم: (وعبَّاد الأصنام كانوا يثبتون ربّاً، خالقاً، مبدعاً، عالماً، قادراً، حيّاً)[١].

الإلحاد في القديم والحديث:

أما القديم: فقد أنكرت طوائف من بني آدم توحيد الربوبية، وعطلت المخلوق عن خالقه، وهذه الطوائف هي:

١ - الدهرية: قال ابن القيم: (وهؤلاء قوم عطَّلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤])[٢].

٢ - الطبائعيون: قال ابن الجوزي: (لَـمَّا رأى إبليس قلَّة موافقيه على جحد الصانع؛ لكون العقول شاهدة بأنه لا بد للمصنوع من صانع، حسَّن لأقوام أن هذه المخلوقات من فِعْل الطبيعة)[٣].

٣ - الفلاسفة: ذهب بعض الفلاسفة إلى أنه لا صانع للعالَم، وأطلق عليهم شيخ الإسلام دهرية الفلاسفة[٤]. قال ابن القيم بعد حديثه عن فِرَق الفلاسفة: (وبالجملة فملاحدتهم: هم أهل التعطيل المحض؛ فإنهم عطلوا الشرائع، وعطلوا المصنوع عن الصانع، وعطلوا الصانع عن صفات كماله)[٥].

وأخبر الله - تعالى - عن فرعون جحدَه لهذا التوحيد ومنازعته لله فيه كما قال - تعالى - عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال - سبحانه - عنه أيضاً: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

قال شيخ الإسلام: (أشهر من عُرِف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعونُ، وقد كان مستيقناً في الباطن كما قال له موسى [عليه السلام]: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال - تعالى - عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤])[٦].

وأما الإلحاد الحديث:

فقد ظهر الإلحاد في الحديث من خلال ما يلي:

أولاً: المذاهب الفلسفية التي ظهرت في الغرب، ثم انتقلت إلى الشرق، ومنها:

١ - الشيوعية: وهي مذهب فكري يقوم على الإلحاد وإنكار الخالق، ويعتبر المادة أساسَ كل شيء. وقد ضع أسسه الفكرية والنظرية (كارل ماركس) اليهودي الألماني (١٨١٨ - ١٨٨٣م)[٧].

٢ - الوجودية: وهي مذهب فكري يقوم على الإلحاد وإنكار الخالق، ويعتبر الوجود الإنساني هو المشكلة الكبرى، والتجربة الإنسانية هي منبع المعرفة وأساس البحث عندهم[٨].

ثانياً: المذاهب الباطنية: والعلماء يطلقون اسم الباطنية على عدة فرق: كالقرامطة، والنصيرية، والإسماعيلية، والقاديانية، والبهائية... وغيرها.

قال البغدادي: (ذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية، كانوا من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم، ولم يَجْسروا على إظهاره خوفاً من سيوف المسلمين، فوضع الأغمارُ منهم أُسساً: مَن قَبِلَها صار في الباطن إلى تفضيل أديان المجوس، وتأوَّلوا آيات القرآن وسنن النبي ﷺ موافقة على أصولهم)[٩].

النوع الثاني: الإلحاد في أسماء الله - تعالى - وصفاته:

وقد جاء التصريح به في قوله - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وهذا النوع من الإلحاد وقع في بعضه طوائفُ منتسبة إلى هذه الأمة: كالجهمية والمعتزلة... وغيرهم.

وقد ذكر ابن القيم خمسة أنواع للإلحاد في أسماء الله وصفاته، وهي:

الأول: أن يسمِّي الأصنامَ بها، كتسميتهم اللات من الإله، والعزى من العزيز.

الثاني: تسميته - تعالى - بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته أو علةً فاعلة بالطبع... ونحو ذلك.

الثالث: وَصْفه - تعالى وتقدَّس - بالنقائص؛ كقول اليهود: إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه. وقولهم: يد الله مغلولة. وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

الرابع: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها؛ كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معانٍ.

الخامس: تشبيه صفاته بصفات خَلْقه[١٠].

(١) إغاثة اللهفان: ٢/١٠١٦.
(٢) إغاثة اللهفان: ٢/٩٩٩.
(٣) تلبيس إبليس: ٢/٣٠٧.
(٤) شرح العقيدة الأصفهانية، ص٤٤.
(٥) إغاثة اللهفان: ٢/١٠١٦.
(٦) مجموع الفتاوى: ٤/٢٤٥.
(٧) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ٢/٩٢٩.
(٨) الموسوعة الميسرة: ٢/٩٧٨.
(٩) الفرق بين الفِرَق، ص٢٨٤.
(١٠) مختصر الصواعق المرسلة: ٢/١١٠.

أسباب الإلحاد:

انتشـــر الإلحاد خلال القرون الثلاثة الأخيـــرة (الثامن عشـــر، والتاسع عشر، والعشـــرين)، وجاء نتيجة للصراع بين العلم والكنيسة في أوروبا، وانتهى ذلك الصراع بانتصار العلم وانهزام دعاة الكنيســـة، وقد اتخذ مفكـــرو تلك الفترة هذا الموقف ذريعة لرفض الدين جملة وإنكار حقائقه، وعلى رأسها الإيمان بالله[1].

ومن ثَمَّ ســـرى الإلحاد (بمعنى إنـــكار وجود الخالق) في المجتمعات الإسلامية نتيجة أسباب عدة، من أبرزها:

أولاً: الأخذ بالفلسفة، وتعظيم الفلاسفة:

من المعلوم أن طائفة الفلاســـفة هم من الطوائف المنكرة لوجود الله؛ ولهذا كثر تحذير الســـلف من الأخذ بالفلســـفة والتلقِّـــي عن أهل الكلام. قال الإمام أحمد: (لا يفلح صاحب الكلام أبداً)[2]، وقال أبو يوســـف: (مـــن طلب الدين بالكلام تزندق)[3]. وقال ابن الصلاح: (الفلسفة أُسُّ السَّفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة)[4].

ثانياً: الإعراض عن الوحي:

أنزل الله – تعالـــى – الكتاب والوحي نوراً وهدى للناس، كما قال – سبحانه –: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَـدْرِي مَا الْكِتَـابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَـاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال – سبحانه –: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

ولما أعرض فئام من الناس عـــن الوحي، وقعوا في الحيرة والاضطراب وأصابهم الشك والارتياب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (جماع الفرقان بين الحـــق والباطل، والهدى والضلال، والرشـــاد والغي، وطريق الســـعادة والنجاة، وطريق الشـــقاوة والهلاك: أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، وبه يحصل الفرقان والهدى، والعلم والإيمان، فيصدِّق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يُعرَض عليه؛ فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل)[5].

ثالثاً: تقديم العقل على النقل:

كان أوَّل ضـــلال وقع في الخلق بســـبب معارضة الوحي بالعقل. قال الشهرستاني: (إن أول شبهة وقعت في الخليقة: شـــبهة إبليس، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر)[6].

وقال ابن أبي العز: (وكل من قال برأيه وذوقه وسياســـته مع وجود النص أو عارض النص بالمعقول، فقد ضاهى إبليس؛ حيث لم يســـلِّم لأمر ربه؛ حيث قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦])[7].

رابعاً: الجدال والخصومة في الدين:

قال ابن قدامة: (ومن السُّـــنة ترك الجدال والخصومات في الدين)[8]، وقال ابن عثمين: (ينقسم الخصام والجدال في الدين إلى قسمين:

الأول: أن يكـــون الغرض من ذلك إثبـــات الحق وإبطال الباطل؛ وهذا مأمور به: إما وجوباً، وإما اســـتحباباً؛ بحسب الحال لقوله – تعالى –: ﴿ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

الثانـــي: أن يكون الغرض منه التعنيت أو الانتصار للنفس أو للباطل؛ فهذا قبيح منهيٌّ عنه لقوله – تعالى –: ﴿مَا يُجَادِلُ فِـي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]، وقوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ﴾ [غافر: ٥][9].

خامساً: الاسترسال مع وساوس الشيطان:

يسعى الشيطان إلى إضلال الإنسان وصدِّه عن سبيل الله، ومن ذلك ما يوسوس به في قلبه مما يؤدي إلى الكفر والضلال؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رســـول الله ﷺ: «يأتي الشـــيطانُ أحدَكم فيقول: من خلـــق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فَلْيســـتعذ بالله ولينته»[10]. فلا يزال الشيطان يوســـوس للعبد ويقذف في قلبه الشكوك؛ فإن استعاذ منه خنس وولَّى، وإن انقاد له أورده المهالك.

سادساً: الغرور والإعجاب بالنفس:

لَـمَّا حاز هؤلاء الضالون شيئاً من العلوم، وأدركوا قدراً من الفهوم، اغتـــروا بما عندهم من العلم، فتجرؤوا على الخوض في المغيَّبات، ولم يقفوا عند حدود ما أنزل الله على رســـوله فضلُّـــوا. وقد ذكر الله – تعالى – عن أســـلافهم من الضلال مـــا يبين هذا ويوضحه. قال – تعالى –: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُـلُهُم

(١) الموسوعة العربية: ٢/٥٢٨.
(٢) الصواعق المرسلة: ٤/١٢٦٩.
(٣) المصدر السابق: ٤/١٢٦٦.
(٤) فتاوى ابن الصلاح، ص٣٤.
(٥) مجموع الفتاوى: ١٣/١٣٥.
(٦) الملل والنحل: ١/١٦.
(٧) شرح الطحاوية، ص١٦٩.
(٨) لمعة الاعتقاد بشرح ابن عثمين، ص١٥٩.
(٩) المصدر السابق، ص١٦٠.
(١٠) أخرجه البخاري، رقم الحديث (٣٢٧٦).

بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣]. قال ابن سعدي: (﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبيِّن للهدى من الضلال، والحق من الباطل ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ المناقض لدين الرسل. ومن المعلوم أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسُّكهم، ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل، وجَعْلِ باطلهم حقاً، وهذا عامٌّ لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا: علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رُدَّت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدرَه في القلوب، وجعلت أدلَّته اليقينية أدلَّة لفظية لا تفيد شيئاً من اليقين، ويقدَّم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة، فالله المستعان).

سابعاً: الجهل بعظمة الله، سبحانه:

يطرأ الإلحاد على القلوب التي جهلت عظمة الله وقَدْره، وما له من صفات الكمال ونعوت الجلال.

ويدل عليه حديث جبير بن مطعم - رضي الله عنه - قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! نُهكَت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال؛ فاستسق لنا ربك؛ فإنَّا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله! فما زال يسبِّح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال النبي ﷺ: ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يُستشفَع بالله على أحد من خلقه...» الحديث[1].

فبين ﷺ أن السبب في وقوع هذا الشرك اللفظي إنما هو الجهل بعظمة الله وقدره، وقد قال - تعالى -: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. قال محمد بن كعب: لو قَدَروا الله حق قَدْره ما كذَّبوه.

ثامناً: سعي اليهود لنشر الإلحاد في العالم:

سعى اليهود لنشر الإلحاد في العالم؛ حتى تسهل السيطرة عليه وإخضاعه لما يريدون. جاء في البروتوكول الرابع من بروتوكولات حكماء صهيون: (من المحتم علينا أن ننسف الدين كلَّه لنمزق من أذهان الغوييم [يعني الأميين] المبدأ القائل بأن هناك إلهاً ربّاً، وروحاً، ونضع موضع ذلك الأرقام الحسابية والحاجات المادية)[2].

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السُّنة، باب في الجهمية.
(٢) بروتكولات حكماء صهيون: ١/ ٢٠١.

آثار الإلحاد:

يمكن تقسيم آثار الإلحاد إلى قسمين:

الأول: آثاره على الفرد:

• الخروج عن الفطرة: إن إنكار الخالق - جل وعلا - مناقض للفطرة السوية؛ ولهذا فالملحدون خارجون عن الفطرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

• العذاب النفسي: إن إنكار الخالق - سبحانه - يُلحِق بالملحد عذاباً نفسياً وقلقاً روحياً؛ كما قال - تعالى -: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال - سبحانه -: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

• العذاب المادي: يواجه المنحرفون عن سبيل الله - ومنهم الملاحدة - العذابَ في الدنيا قبل الآخرة، كما قال - تعالى - عن طائفة منهم: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال - سبحانه -: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

الثاني: آثاره على المجتمعات:

• حرمان المجتمعات من هداية الإسلام: إن الأنظمة الملحدة عندما تنكر وجود الله - تعالى - فإنها ترفض هدايته تبعاً لذلك؛ ولذلك فالمجتمعات الملحدة محرومة من هداية الله - تعالى - التي أنزل بها كتبه وأرسل رسله المتضمنة للرحمة والعدل والحكمة.

• نزول العذاب بالمجتمعات الملحدة: إن المجتمعات الملحدة تعاني نتيجة إلحادها وبُعدها عن الله - تعالى - من البلاء الذي سحقها وأتى عليها، ومن اطلع على أحوال المجتمعات الشيوعية الملحدة لم يرَ إلا الجوع والخوف، والقهر والتسلط.

«سر الماسونية الأكبر» (*)

فيصل بن علي الكاملي (**)
popedia@windowslive.com

لعل الراوي أخبرك كما أخبرني منذ نعومة أظفاري – وليته سكت – بذلك «السر العظيم الذي لم يختلف حوله اثنان» أن الماسونية خرجت من رحم يهودية. لكنني لما كبرت وتسنَّى لي البحث في أصولها ومصادرها أدركت أن الراوي الذي أراد أن يُبصِّرني أعماني عن الحقيقة حيناً من الدهر. لكنني ألتمس له العذر؛ فقد اعتمد في حكايته مراجع عربية تعاني من عجز ظاهر يمكن إيجاز مظاهره في ما يلي:

أولاً: لم يطلع كثيرون ممن كتبوا عن الماسونية بالعربية على المصادر الأصلية التي كُتبت بلغات غير العربية. ولو تيسر لهؤلاء الرجوع إلى المصادر الأجنبية لوجدوا الحضور الأقوى للرأي القائل بنسبتها إلى أصول نصرانية رومية على وجه التحديد. لكن الواقع هو أن هذا الرأي يُتجاوَز دون تحقيق. فعلى سبيل المثال يذكر الدكتور محمد عبد الله عنان في كتابه «تاريخ الجمعيات السرية» اثني عشر قولاً في نشأة الماسونية نقلاً عن «ألبرت تشرِتْشوارد» Albert Churchward. وهذه الأقوال

(*) هذا المقال مُستلٌّ من كتاب «اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد»، ص ١٤٥ – ١٦١.

(**) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

التي لا تكاد تخلو منها المراجع العربية تعزو نشأة الماسونية إلى أحد هؤلاء:

١ – البطاركة (آباء الكنيسة).

٢ – أسرار الوثنيين.

٣ – هيكل سليمان.

٤ – الصليبيين.

٥ – فرسان المعبد (أو الهيكل).

٦ – جمعية الصناع الرومانية.

٧ – عمال البناء في العصور الوسطى.

٨ – إخوة الصليب الوردي.

٩ – أوليفر كروميل.

١٠ – الأمير «تشارلز ستيوارت» الذي أنشأها لأغراض سياسية.

١١ – السير «كريستوفر رِن» عندما بنى كنيسة (كاتدرائية) القديس بولس.

١٢ – الدكتور «ديزاغليه» وأصدقاؤه في سنة ١٧١٧م[١].

وكل هذه الأقوال تشير إلى مصدر «رومي» أو «نصراني» باستثناء «أسرار الوثنيين» و «هيكل سليمان»؛ فهذان القولان يُعنَيان بالارتباط العقدي لا النشأة السياسية: فالأول يعيدها إلى «أسرار» الباطنية، والآخر يربطها بالهيكل الذي له مكانته ليس عند اليهود فحسب، بل عند الروم كذلك باعتباره الموطن الأول لفرسان الهيكل. فلِم أغفل كُتابُنا عشرة أقوال وتعلقوا بقولٍ غير صريح دون تعليق؟

ثانياً: لم يفرق كثير من الكتاب بين الماسونية كعقيدة وبين الماسونية كتنظيم سياسي: فالماسونية كعقيدة تُعَد امتداداً للباطنية الوثنية، وهو ما يقر به أتباعها قبل خصومها؛ لذا تجد الكتَّاب الذين لم يفرقوا بين العقيدة والتنظيم يتخبطون في نسبتها، فينسبها بعضهم إلى باطنية «فيثاغورس» وينسبها آخرون إلى «أسرار» الفراعنة أو إلى «القبالاه»، وهي كلها تعبيرات شتى عن أصولها الباطنية التي مرت بأطوار عديدة. أما الماسونية كتنظيم سياسي – وهي المقصودة عند الإطلاق – فهي رومية كاثوليكية. لكن موافقة عقائد الماسونية ورموزها للقبالاه اليهودية الباطنية جعلت كثيراً من الباحثين يجزم بيهوديتها. وهو خلط بين أصل المعتقد وبين ما تطور عنه.

ومن اطلع على طلاسم السحرة في بلاد المسلمين – فضلاً عن غيرها – وجد فيها مثل هذه الرموز، فهل صاروا بذلك يهوداً؟

رابعاً: من أسباب ضعف الكتابات العربية حول الماسونية أن خطرها لم يُلمَس إلا متأخراً عندما حاول الغرب إسقاط الخلافة الإسلامية؛ وكان ممن أعانهم على ذلك «جمعية الاتحاد والترقي» الماسونية ورموزها من يهود الدونمة الباطنيين. ومع أن الماسونية ظهرت كتنظيم سياسي سري قبل هذه الأحداث بمئتي عام تقريباً إلا أنها اختُزلَت في هذه المرحلة، كما نُسِب زعماء الغرب النصارى إلى اليهودية رغم أنوفهم حتى تستقيم النشأة اليهودية للماسونية.

إن درجات الماسونية كما نعرفها اليوم – باستثناء الدرجات الدنيا – نشأت كردٍّ فعل من قِبَل الكاثوليك اليسوعيين في فرنسا على الثورة الإنجليزية المجيدة (١٦٨٨م) التي تخلصت من النفوذ الكاثوليكي وألجأت الملك «جيمس الثاني» إلى فرنسا. فكانت الماسونية أداةً لاستعادة النفوذ الكاثوليكي لا لنشر اليهودية. يقول «جون بلانشارد» في كتابه «ماسونية الطقس الأسكتلندي مصورةً»: «... جيمس الثاني، البابوي الصُّراح، حكم ثلاثة أعوام كمستبد ضعيف؛ ثم رمى الصولجان في نهر «التيمز» وفرَّ من عرشه وشعبه إلى العاهل الفرنسي «الابن الأكبر للكنيسة الكاثوليكية». ظرفاءُ الفرنسيين يدعونه «الساذج الذي خسر ثلاث ممالك من أجل قداس». أصبح هذا الستيوارتي الضعيف – مثل أخيه تشارلز – ماسونياً؛ أقام قاعدته في كلية «كليرمونت» اليسوعية. ولفترة من الزمن خطط لاستعادة عرشه لكنه مات بعد تخلِّيه عن العرش بثلاثة عشر عاماً في قصر «سانت جرمان» عام ١٧٠١م»[٢].

وهذه العلاقة أقرَّ بها «ألبرت ماكي» مع حرصه الشديد – كما يتضح في كتاباته – على نفي هذه «التهمة» عن عقيدته الماسونية، وهو ما جعل «جيم مارس» يصف إقراره بالملتف «convoluted». يقول «ماكي» في موسوعته: «كلية كليرمونت: كلية يسوعية في باريس أقام بها «جيمس الثاني» بعد فراره من إنجلترا عام ١٦٨٨م حتى انتقاله إلى «سانت جرمان». وأثناء مقامه هناك يقال بأنه حاول تأسيس نظام ماسوني هدفه إعادة أسرة ستيوارت لعرش إنجلترا. ولا تزال آثار هذا النظام الذي

(١) راجع – مثلاً –: حسين عمر حمادة. الأدبيات الماسونية (دمشق: دار الوثائق، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص ٣٢.

(2) Blanchard, John. Scotch Rite Masonry Illustrated (Kessinger Publishing, 2002), vol. I, p. 60.

حاوله موجودة في كثير من الدرجات العليا [الماسونية]»[1].

كما يَنقُل عن «لينينج» - الذي يستشهد به كثيراً جداً - قوله: «بعد فراره [أي «جيمس الثاني»] إلى فرنسا وأثناء إقامته في كلية كليرمونت اليسوعية لفق أتباعه - ومنهم اليسوعيون - درجات [ماسونية] معيَّنة بغرض تنفيذ رؤاهم السياسية»[2]. ويقول في موضع آخر محاولاً نفي العلاقة بين الماسونية واليسوعية: «مع أنه لم تكن لليسوعية يد في بناء الماسونية الأصيلة إلا أنه لا يمكن إنكار أن ثمة أسباباً تدعو إلى التصديق بأنهم كانوا حريصين على اختراع بعض الدرجات والأنظمة التي قُصِد منها دفع مصالحهم. ولكن حيثما مَسُّوا المؤسسة [الماسونية] تركوا آثار أفعى. لقد حاولوا تحويل إنسانيتها وتسامحها إلى كيد سياسي وتعصب ديني. من هنا يُعتقَد أن لهم علاقة بتلك الدرجات التي كانت تهدف إلى مساعدة أسرة ستيوارت المنفية في جهودها لاستعادة العرش الإنجليزي لاعتقادهم أن ذلك سيضمن إعادة الدين الرومي الكاثوليكي في إنجلترا»[3].

وحتى لا أُتَّهم بالانتقائية سأذكر رواية «فندل» في كتابه «تاريخ الماسونية» (ترجمة «ليون» ص ٢٠٩)، التي وصفها «ماكي» بقوله: «رواية رزينة ومحايدة جداً حول ظهور هذه الماسونية الستيوارتية». يقول «فندل»: «منذ جلاء آل ستيوارت من إنجلترا عام ١٦٨٨م، استمرت تحالفات سرية بين روما واسكتلندا [آل ستيوارت] ... لعب اليسوعيون دوراً مهماً جداً في هذه المؤتمرات. ولاعتبارهم إعادة تنصيب آل ستيوارت وتوسيع نفوذ الكنيسة الرومية شيئاً واحداً، حاولوا حينئذٍ جَعْل جمعية الماسون خاضعة لأغراضهم»[4].

والنقول في علاقة أسرة ستيوارت بالماسونية وعلاقة الماسونية باليسوعية كثيرة، لكنني أود أن أكون أكثر دقة فأثبت أن الدرجات الماسونية العليا على وجه الخصوص هي من صنع اليسوعيين فضلاً عن مجرد العلاقة بينهما. يقول الماسوني من الدرجة ٣٣ «ألبرت ماكوي»: (درجات هذا الطقس [الأسكتلندي] في أغلبها بسطٌ للنظام الذي اخترعه «رامزي»)[5]. علماً بأن «الطقس الأسكتلندي» هو عمدة التنظيم الماسوني. أما «رامزي» مخترع هذا الطقس فكان - على حد تعبير المؤرخ «ريبولد» - «أداة لليسوعيين»[6].

يؤيد هذا ما أقر به «ألبرت ماكي» من أن «رامزي» اعتنق الكاثوليكية على يد الكاثوليكي الرومي «فينيلون» كبير أساقفة «كامبري»، وأنه قُلِّد درجة «فارس» في «تنظيم القديس إليعازر الأورشليمي»[7]، بعدها أصبح معلماً خاصاً ومؤدِّباً لاثنين من أحفاد الملك المنفي «جيمس الثاني»! ثم قال - أعني «ماكي» -: «من غير المستبعَد أن يكون [رامزي] قد أُشرب حب التأمل الباطني ثم طوَّره باعتباره مخترع الدرجات الماسونية ومؤسس أحد طقوسها... ما من أحد لعب دوراً في تاريخ الماسونية في القرن الثامن عشر يفوق دور الفارس «رامزي». وتأثير أرائه وتعاليمه لا يزال يُلمَس في الدرجات العليا التي تبنتها الطقوس العديدة التي تقسَّم إليها الماسونية الآن... [كان] متعلقاً تعلقاً وثيقاً بأسرة ستيوارت المنفية... في ما يتعلق بتأثير جهود «رامزي» على الماسونية، أعتقد أنه لا يمكن للعقول النزيهة أن يكون لها رأيان»[8].

كان عميل اليسوعية «رامزي» يَعُد الماسونية استمراراً لتراث فرسان الهيكل الصليبيين، وهو ما صرَّح به كثير من الكُتَّاب الأعلام. فـ «نِستا وِبستر» - على سبيل المثال - تنقل في كتابها «الجماعات السرية» عن الماسوني «بارون تشودي» قوله: «إن الأصل الصليبي للماسونية هو ما يُدرَّس رسمياً في المحافل [الماسونية]؛ حيث يُعلَّم المرشح لدخول التنظيم أن العديد من الفرسان الذين كانوا قد خرجوا لإنقاذ البقاع المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين «شكلوا اتحاداً تحت اسم البنائين الأحرار [الماسون] مشيرين بهذا إلى أن رغبتهم الأساسية كانت إعادةَ بناء هيكل سليمان»[9].

كما يذكر الماسوني «ماكي» في موسوعته أنه «كان ثمة بين الماسونية والحملات الصليبية علاقة أكثر حميمية مما

(1) Mackey, Albert. Encyclopedia of Freemasonry, p. 169.
(2) Mackey, Albert. Encyclopedia of Freemasonry, p. 759.
(3) Mackey, Albert. Encyclopedia of Freemasonry, p. 382.
(4) Mackey, Albert. Encyclopedia of Freemasonry, p. 759.
(5) Macoy, Albert, General History, Cyclopedia, & Dictionary of Freemasonry (New York: Masonic Publishing Company, 1872) p. 343.
(6) Rebold, Emmanuel. A General History of Free-masonry in Europe (American masonic publishing association, 1868), p. 161.
(٧) تشير موسوعة «ويكيبيديا» إلى أن هذا التنظيم «أنشئ كتنظيم عسكري صليبي مقره فرنسا من أجل حماية الحجيج» وهذا يؤكد الربط بين الماسونية وفرسان الحروب الصليبية. انظر:
Wikipedia "Andrew Michael Ramsay" <http://en.wikipedia.org/wiki/Andrew_Michael_Ramsay>.
(8) Mackey, Albert. Encyclopedia of Freemasonry, p. 628.
(9) Webster, Nesta. Secret Societies and Subversive Movements. p. 154.

يُتصوَّر عادة»[1]. وهذا إقرار غير مباشر بأن الماسونية ارتبطت بالرومية الصليبية وليس اليهودية كما هو الشائع في الأوساط العربية والإسلامية.

إن من كبار الماسونية من أقر صراحة بما بينتُه من علاقة الماسونية باليسوعية وأن الأخيرة هي التي اخترعت – على الأقل – الدرجات العليا في الماسونية وأقامتها على أساس من عقيدة فرسان الهيكل البعلية؛ سواء كان السند بين الماسونية والهيكلية (عقيدة فرسان الهيكل) متصلاً أم منقطعاً. وسأذكر مثالين لهؤلاء:

أحدهما: «نيكولاس دي بونيفيل». تقول «الموسوعة الماسونية» مُعرِّفة به: «مؤرخ وأديب ولد في «إفرو» بفرنسا في الثالث عشر من مارس عام ١٧٦٠م، كتب كتاباً نشر في ١٧٨٨م بعنوان «اليسوعيون المطرودون من الماسونية وخنجرهم المكسور من قِبَل الماسون»... نظريتُه حول الماسونية هي أن اليسوعيين أدخلوا في الدرجات الماسونية تاريخ وحياة وموت فرسان الهيكل وعقيدة الانتقام لجريمة تدميرهم السياسية والدينية، وأنهم فرضوا على أربع من الدرجات [الماسونية] العليا نذور جماعتهم الأربعة»[2].

وهذا الذي ذهب إليه «نيكولاس دي بونيفيل» يفسر قول «تشارلز هِكثورن» في كتابه «الجمعيات السرية في كل العصور والأقطار»: «إن هناك تماثلاً كبيراً بين الدرجات الماسونية واليسوعية»[3]. وقوله: «إن بعض من كتب حول الماسونية يرى أن هذه الطقوس [الماسونية] ذاتُ أصل يسوعي؛ فالحِرمان من المعادن يرمز إلى نذر الفقر، وكشف الصدر والركبة يُقصد منه منع قبول النساء، والمشي على كعب الحذاء يذكِّر المريدَ بأن إغناطيوس لويولا [مؤسس اليسوعية] بدأ حَجَّه هكذا بقدم مصاب»[4].

أما الشاهد الآخر فالعلاَّمة الماسوني «جوهان يواقيم كريستوف بود» الذي يصفه «ماكي» بقوله: «... واحد من أبرز الماسون في زمنه... أسهم للماسونية بإسهامات قيمة كثيرة، منها: أنه ترجم من الفرنسية كتابَ «بونيفيل» الشهيرَ «اليسوعيون المطرودون من الماسونية وخنجرهم المكسور من قِبَل الماسون» الذي يحوي مقارنة للماسونية الأسكتلندية بهيكلية [عقيدة فرسان الهيكل] القرن الرابع عشر... التحق عام ١٧٩٠م بتنظيم الـ «إلوميناتي» وحصل على أعلى الدرجات في مرتبتها الثانية، وفي مؤتمر «فيلهلِمْراسباد» انتصر لآراء «وايسهاوبت». لم يكن أحد في زمنه أكثرَ تضلعاً منه في تاريخ الماسونية أو حاز مكتبة أكثر قيمة أو شمولاً من مكتبته. ولم يكن أحد أكثرَ اجتهاداً في زيادة حصيلته من علوم الماسونية ولا أكثر حرصاً منه على الإفادة من أكثر مصادر العلم نُدرة؛ لذا فقد كان دائماً يتمتع بمكانة رفيعة بين علماء الماسونية في ألمانيا».

وبعد أن كال له «ماكي» كل هذا المديح والإطراء حتى جعله فريد عصره أضاف قائلاً: «كانت نظريته التي تبناها حول أصل الماسونية... أن التنظيم [الماسوني] اختُرع من قِبَل اليسوعيين في القرن السابع عشر كوسيلة لإعادة الكنيسة الرومية في إنجلترا، ودثروها لتحقيق أغراضهم بدثار الهيكلية [عقيدة فرسان الهيكل][5].

إن هذه الحقيقة المريرة التي حُجبَت عنَّا ثلاثة قرون أشار إليها «جيمس بارتون» عام ١٨٥٤م في كتابه «حياة هوريس جريلي» حين قال: «لا يزال من العجائز والرجال والنساء في أنحاء البلاد [أمريكا] من سيخبرك بنبرة المتجهم أنك إن تتبعت الماسونية بكل تنظيماتها إلى أن تصل إلى الرئيس الأعلى للماسونية العالمية ستكتشف حينها أن ذلك الشخصَ المرعبَ وزعيمَ جمعية يسوع [اليسوعية][6] هما الشخص نفسه!»[7].

هنا يمكن لنا أن نقول ما قاله «بلانشارد»: «وهكذا ثبت أن أُولَى الدرجات العليا في الماسونية هي من اختراع اليسوعيين الفرنسيين و «أدواتهم». وهذا يفسر كيف أن البابوية قادرة في الحال على حظر محفلٍ ما والسماح له... فالماسونية على حق ما سعت إلى تتويج البابا، لكنها على خطأ إن تدخلت نذورُ الكتمان في الاعترافات الكنسية»[8].

إن أعظم أسرار الماسونية الذي يراد لنا ألا نعلمه هو أن الماسونية مؤسسة كاثوليكية تعمل لصالح الكنيسة البابوية الرومية بينما تُخفي هذه الحقيقة تحت ستار اليهودية والبروتوكولات.

(1) Mackey, Albert. Encyclopedia of Freemasonry (Philadelphia: Moss & Company, 1874), p. 198.
(2) Mackey, Albert. Encyclopedia of Freemasonry, p. 122.
(3) Heckethorn, Charles W. The Secret Societies of All Ages & Countries (London: George Redway, 1897), vol. I, p. 285.
(4) Heckethorn, Charles W. The Secret Societies of All Ages & Countries, vol. II, p. 21.
(5) Mackey, Albert. Encyclopedia of Freemasonry, p. 120121-.
(٦) زعيم اليسوعية الحالي المعروف بـ«البابا الأسود» هو الإسباني «أدولفو نيكولاس».
(7) Parton, J. The Life of Horace Greeley (New York: Mason Brothers, 1855), p. 102.
(8) Blanchard, John. Scotch Rite Masonry Illustrated, vol. I, p. 61.

تأمُّلات في سِيَر القدوات

نايف بن محمد اليحيى

بعد غزوة حُنَين قسم النبي ﷺ الغنيمة بين أصحابه، فقال رجل: (ما أراد محمد بهذا وجه الله) فانطلق ابن مسعود - رضي الله عنه - إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فتمعَّر وجهه الشريف وقال: «رحم الله موسى قد أُوذِي بأكثرَ من هذا فصبر»[1]؛ فما الذي أوذي به موسى -عليه السلام - حتى تعزَّى رسول الهدى ﷺ به في مثل هذا الموقف من بين سائر الأنبياء؟

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

تأملتُ هذا في حاله - عليه السلام - مع قومه وما قص اللـه - عز وجـل - علينا في كتابه من خبـره فوجدت أمراً انفرد به في ظهوره وتجلِّيـه عن إخوانه من الأنبياء - عليهم السلام - وله ارتباط بالخبر الذي افتتحتُ مقالتي به، وكثيراً ما عانى من هذا الأمر الدعاة والمربون والسائرون على خطى الإصلاح للمجتمع والأمـة، وكان عائقاً لبعضهم عن مواصلة السير أو مُضْعِفاً له.

إذا كنا نتفق على أن تجاهل الجميل ونسيان الإنعام صعب وشـاق على من وقع في حقه؛ فكيف إذا كان أسوأ من ذلك؛ بمقابلة الإحسـان بالإساءة والعدوان، والكرم باللؤم والدناءة؟ لأن النفوس كثيراً ما تتعلق بالمكافأة العاجلة والثناء الحاضر، وتحبُّ تثمين الجهد الـذي قامت به ونصبت من أجله، وهذا حق وواجب للمحسن ليُكافأ مقابل إحسانه.

ولكن هذا - غالباً - لا يتأتَّى، ولا يُنَال في عتبات الإصلاح، ولا بد لمن أراد الثبات والترقي من قدواتٍ يستلهم من سِيَرهم ما يكون زاداً ووقوداً يقويه عند الضعف، ويدفعه عند التباطؤ.

ولعلِّي أعرض طَرَفاً من حال الكليم - عليه السـلام - ثم نعرِّج علـى بعض ما فيها من الـدروس والعبر. ويصور هذا العناءَ موسـى - عليه السـلام - في اللقاء العلوي السماوي مـع نبينا محمد ﷺ فيقول: «وإني - والله - قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة»[1].

تأمل معـي حال بني إسـرائيل قبل بعثة موسـى - عليه السلام - وكيف وصفهم الله بأنهم: ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] وفرعون ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ، ثم مع كل هذا الاسـتعباد والذل والمهانة، ينجيهم الله من كل ذلك على يدي موسـى - عليه السـلام - في آية باهرة وقدرة قاهـرة، ويهلك عدوهم الطاغية، ثم لا تجف أقدامهم من البحر إلا وقد رفعوا حناجرهم عند رؤية أولئك الوثنيين قائلين: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]؛ فيالله ما أشـد وأقسى وقع هذه الكلمة وهي تطرق سـمع موسى - عليه السلام - مناقضة لأعظم المقاصد التي يحملها في دعوته ورسالته التي من أجلها قارع فرعون وقاومـه، ومع ذلك لم يزد على أن قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٩٣]، ثم ذكَّرهـم نعمةَ الله وفضلَه عليهم: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠]، فحافظ على هدوئه، واستمر في منهجه، ولم تهن عزيمته.

ولم يقف الأمر عند هذا، فلم تمضِ إلا فترة يسيرة ويذهب بعدها لميعاد ربه، فيخبره الله - تعالى -: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طـه: ٨٥]، فيرجع إليهم ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٦]، فهذه المرة لم يكتفوا بالقول، بل عبدوا العجل بالفعـل ولم يراعوا وجود أخيه نبـيِّ الله هارون الذي نهاهم وحذَّرهم، ولا التفتوا لتعاليم موسـى - عليه السلام - الذي أرشـدهم وعلَّمهم، وما أقاموا وزناً لحق ربهم - جل وعلا - الذي خلقهم وصوَّرهم.

ومع هذا الانتهاك الصَّارخ والاسـتهتار البالغ يعالج الأمر ويدرؤه، ويعظهم ويرهبهم، ثـم يأتيهم بعد ذلك بالتوراة فيها حكـم الله، قد كتبها الله إكراماً مـن لدنه وإنعاماً، فيأمرهم باتِّبـاع ما فيها فيأبَون ويمتنعون حتـى يبيِّن لهم ما فيها من الأحكام؛ فإن كانت سهلةً قبلوها وإلا رفضوها، ولم يستجيبوا لما فيها حتى رفع الله فوقهـم الجبل عقوبةً: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُـمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]، فيتوعدهم الله بإسقاط الجبل عليهم إن لم يقبلوا ويتوبوا، فسجدوا كرهاً وهم رافعو الجباه يرمقون الجبل خشية سقوطه عليهم[2].

ثم لما سـار بهم إلى الأرض المقدسة، يبشرهم بوعد الله لهم بفتحها مخاطباً إياهم: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَـةَ الَّتِي كَتَـبَ اللَّـهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، لكنهم دفعـوا وعد الله ورفضوا الدخول حتى يخرج الجبَّارون منها، وخاطبوا موسى بسفاهة وحمق: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فعاقبهم الله بالتيه.

وموسـى - عليه السـلام - على الرغم من كل ما سبق من رذالتهم وإسـاءتهم صابر لأمر ربه يدعوهم ويصلحهم، لم يسـأم ويمل من طلب هدايتهم. ثم وهم فـي التيه يُنعِم الله عليهم بنعمة لم ينلها أهل المدن والحواضر، ويُنزِل عليهم المنَّ والسـلوى، ومع هذا تزداد جرأتهم ووقاحتهم فيقولون: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٦١]، ويقولون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّـى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]؛ أي: عياناً بأبصارهم[3]، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

بل وصل أذاهم له بلمـزه بأنه (آدَر) ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾. [الأحزاب: ٦٩]

(١) «عالجتُ بني إسرائيل» أي: مارستهم ولقيت منهم الشدة في ما أردت منهم من الطاعة، والمعالجة مثل المزاولة والمجادلة. عمدة القاري: (١٢٩/١٧).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٦٣/٢).

(٣) انظر: جامع البيان للطبري: (٣٥٨/٩).

وتُدرك موسى – عليه السلام – المنيَّةُ وتحول دون أمنيته في دخول الأرض المقدسة، فيسأل الله أن يُدنيَه منها رمية بحجر، فاستجاب له ربُّه وحقَّق له سؤله فأدناه إلى حيث طلب[1].

ولنا في قصَّة نبي الله موسى مع قومه وما لقيه منهم من عنتٍ وسوء عبرٌ ووقفات:

١

أن موسى – عليه السلام – لم ينل تلك المنزلة الرفيعة، بأن جعله الله من أولي العزم من الرسل إلا لعزيمته وصدقه مع الله، وصبره على أذى الخلق؛ ولذا عفا الله عنه في حوادث عدة: كفَقئه عين ملك الموت، وكسره الألواح، وجرِّه رأس هارون أخيه وهو نبي، وعتابه لربه في ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورفعه عليه، (وربه – تعالى – يحتمل له ذلك كله، ويحبه ويكرمه ويدلله؛ لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة... فكانت هذه الأمور [كالقطرة] في البحر)[2].

٢

أنَّ هذا طريق الأنبياء والمصلحين والدُّعاة؛ فكلما قوي حظ المؤمن من متابعتهم زاد نصيبه من البلاء والابتلاء، وما مضى من مواقف تَلحَظُ أن كلها إساءة من قِبَل الأتباع لا من الأعداء؛ ولذا عز وَقْعُها على موسى – عليه السلام – ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، ومثله: (تمعُّر وجه نبينا ﷺ وتغيُّره) لما سمع مقولة الأنصاري، فأنت ترى ألمها وشدة أثرها عليه، ما لا تراه حين وُصِم ﷺ بأشنع منها من المشركين بقولهم: (ساحر – كاهن – مجنون).

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً
على المرءِ من وَقْعِ الحسامِ المهندِ

٣

في ترسُّم خطى الأنبياء – عليهم السلام – واقتفاء آثارهم، والاقتداء بهم، سلوة وعزاء لمن وقع في الابتلاء، ولابن بطال – رحمه الله – تعليق جميل على قول النبي ﷺ «رحم الله موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر» يقول فيه: «في تمعُّر وجه النبي – عليه السلام – حين أُخبِر بقولة الأنصاري من الفقه: أن أهل الفضل والخير قد يعزُّ عليهم ما يقال فيهم من الباطل، ويكبر عليهم، فإن ذلك جبلَّة في البشر؛ إلا أن أهل الفضل يتلقون ذلك بالصبر الجميل اقتداءً بمن تقدمهم من المؤمنين، ألا ترى أن الرسول قد اقتدى في ذلك بصبر موسى»[3]، ويقول القشيري: «وأجرى – تعالى – سنَّته في كتابه أن يَذكُر قصَّة موسى – عليه السلام – في أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا ﷺ، فيعقبه بذكر موسى، عليه السلام»[4] ولعلَّ ذلك ليتعزى به ويسلو بما جرى له، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

٤

على الرغم من كل هذا العناء والابتلاء، إلا أن المؤمن يرقب فجر الأجر، فيهون عليه في ذلك عبء التكليف، ومن عرف نور النهاية هانت عليه شدائد البداية، والنصر مع الصبر، وتأمل في حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – يرفعه: «فَرُفع لي سواد عظيم فقلت: أمتي هذه؟ قيل: بل موسى وقومه»[5] فلم يضيع الله سعي موسى وصبره، فكانت مكافأته أن تكون أمته ثاني أمة يوم القيامة، وكما قال الشافعي: (اُذكر رِضى مَنْ تطلب، وفي أي نعيمٍ ترغَب، ومن أي عِقاب ترهب، فمنْ فكر في ذلك صَغُر عنده عمله)[6].

٥

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]

هذا شعار المربي والداعية؛ فالدَّاعية الصَّادق هو الذي قد قطع الطمع من الخلق وتعلَّق بطلب الأجر من الخالق، وعلى قدر النَّصَب يكون الأجر، وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة عظة وعبرة، فأحدهم حفظ مال الأجير الذي ذهب عنه، وأنماه له حتى رجع بعد زمن فإذا بأجرته الصغيرة قد أصبحت وادياً من بهيمة الأنعام، فأعطاه إياها فساقها جميعاً ولم يعطِ سيده منها شيئاً، بل ولم يقدم له كلمة شكرٍ واحدةٍ مقابل حفظه ورعايته، فكان ذلك عملاً صالحاً حفظه الله له عند توسله به فأفرج عنهم جانباً من الصخرة.

٦

أعظم زاد يحمله المصلح هو صدق اللَّجَأ إلى الله – سبحانه وتعالى – وتصفية القلب والنية ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وكما قال ابن تيمية – رحمه الله –: (ما لا يكون بالله لا يكون، وما لا يكون لله لا ينفَع ولا يَدوم)[7].

نسأل الله أن يرزقنا الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وشكرَ نعمته، وحُسْنَ عبادته.

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).
(٢) المستدرك على مجموع الفتاوي: (١/١٣٢).
(٣) شرح ابن بطال على البخاري: (٩/٢٥٢).
(٤) لطائف الإشارات: (٢/٤٤٧).
(٥) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).
(٦) سير أعلام النبلاء: (١٠/٤٣).
(٧) مختصر الفتاوى المصرية: (١/١٧٤).

مجلة البيان

جديد مجلة البيان

أهمية الوثيقة:

١- تحديد حاجات المربين وفق منهجية عالية.

٢- الاسهام في تطوير أداء المربين وتأهيلهم.

٣- الاسهام في تنمية الاتجاهات الإيجابية نحو التدريب.

www.albayan.co.uk

الريـــاض: ـ هـــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١

التـوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جـدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـة والمدينـة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـة الجنوبيـة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقـة الشرقيـة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـة القصيـم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

آليات التبعيَّة... التماثل و الإذعان

أ.د. محمد أمحزون

لقد لفت الإسلام الأنظار للتدبر والتفكر والاعتبار بصيغ متعددة؛ تفيد لزوم إعمال العقل للتمييز بين الخير والشر والحق والباطل. كما ركَّز على المسؤولية والتبعية الفردية؛ إذ لا يغني عن الإنسان أن يسير مع السائرين أينما اتجهوا: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥].

وبالمقابل رفض هذا الدين الحق التبعيةَ الفكريةَ والتقليدَ، والسيرَ مع الناس كيفما يكون المسير؛ بل لا بد من الوضوح في المنطلق والهدف، وفي الرؤية والاختيار. وفي هذا الصدد يقول النبي ﷺ: «لا تكونوا إمَّعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنَّا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وِّطنوا أنفسكم؛ إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»[1]. وروي عنه ﷺ قوله: «من تشبه بقوم فهو منهم»[2].

وكان مما عابه الله - عز وجل - على المستضعفين أنهم عطَّلوا عقولهم، ولم يستفيدوا من حواسِّهم، ورضوا بمتابعة المستكبرين والسير على دربهم في الإفساد، فأدَّت بهم العطالة والخوف الذليل الأعمى، والاستسلام للأعراف والتقاليد الاجتماعية بدافع الشهوات والشبهات إلى مشاركة المستكبرين في العذاب المقيم.

ويصور القرآن الكريم حقيقة هذا المشهد بطرفين يتحاوران في النار، كلٌّ منهما يحاول أن يتملَّص من المسؤولية، ويلقي بالتبِعة على الآخر، ولكن بدون جدوى؛ إذ كان سلوك الطرفين اختياراً، فكلُّهم ظالمون: المستكبرون عليهم تبعة مكرهم الذي لم يكن يفتر نهاراً ولا ليلاً للصد عن سبيل الله، والتمكين للباطل، وتلبيس الحق، واستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإفساد. والمستضعفون ألْغَوا عقولهم جرياً على سنَّة الآباء والأجداد، وخنوعاً ورهبة من بطش الأقوياء واستجابة لداعي الشهوات؛ فكلهم في العذاب سواء. قال - تعالى -: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣]. وقال - تعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع.
(٢) أخرجه أبو داود في السنن «كتاب اللباس»: ١/٤٠٣، وأحمد في المسند: ١/١١. وصححه الشيخ أحمد شاكر، والشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٩/١٤.

﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : ٣١ – ٣٣].

فهو التخلي عن التبعة، والإقرار بالمسؤولية المشتركة في الغي والضلال والإفساد؛ إذ يحمِّل المستكبرون المستضعفين تبعة الغواية من ذات أنفسهم: ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ : ٣٢].

فلكلٍّ جريمته وإثمه: المستكبرون عليهم وزرهم، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم. والمستضعفون عليهم وزرهم؛ فهم مسؤولون عن اتِّباعهم للملأ (النخبة المفسدة)، ولا يعفيهم من التبعة أنهم كانوا في حال الاستضعاف؛ لأن الله – عز وجل – أكرمهم بالإدراك والحرية، فعطَّلوا أدوات الإدراك فيهم، وباعوا حريتهم بأبخس الأثمان، ورضوا لأنفسهم الذلَّة والخنوع، وقبلوا أن يمتثلوا ويغيِّروا أنماط سلوكهم ومواقفهم اختياراً لتتناسب مع سلوكيات ومواقف المستكبرين، وباعوا آخرتهم بدنيا غيرهم؛ وذلك هو الخسران المبين.

إن هذا البعد النفسي تعبِّر عنه الآية الكريمة بوضوح: ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة : ١١٨]؛ أي هم متشابهوا القلوب في التصور والتركيبة النفسية، ولديهم جميعاً قابلية للشرِّ والفساد.

ويعبِّر ابن تيمية – رحمه الله – عن التماثُل والتأثُّر والتأثير الحاصل بين الناس بأوضح عبارة، مبيِّناً أن الإنسان يتفاعل في محيطه بالتشابه والمشاكلة. يقول: «إن الله – تعالى – جبل بني آدم، بل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشيئين المتشابهين. وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتمَّ، حتى يؤولَ الأمر إلى أن لا يتميَّز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط... ولأجل هذا الأصل وقع التأثُّر والتأثير في بني آدم، واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة. وكذلك الآدمي إذا عاشر نوعاً من الحيوان اكتسب من بعض أخلاقه. ولهذا صارت الخيلاء والفخر في أهل الإبل، وصارت السكينة في أهل الغنم. وصار الجمالون والبغالون فيهم أخلاق مذمومة من أخلاق الجمال والبغال، وكذلك الكلابون؛ فالمشابهة والمشاكلة [التماثل] في الأمور الظاهرة: توجب مشابهةً ومشاكلةً في الأمور الباطنة؛ على المسارعة والتدريج الخفي. وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفراً من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممَّن جرَّد الإسلام... ونفس الفساد الحاصل من المشابهة قد لا يظهر ولا ينضبط، وقد يتعسَّر أو يتعذَّر زواله بعد حصوله لو تُفطِّن له. وكل ما كان سبباً إلى مثل هذا الفساد، فإنَّ الشارع يحرِّمه، كما دلَّت عليه الأصول المقرَّرة»[1].

إن ظاهرة المشاكلة والمشابهة التي ذمَّها الكتاب والسُّنة، إذ تتجاوب فيها أغلبية المجتمع (المستضعفون) – لأسباب نفسية واجتماعية ومادية – مع السلطة الحاكمة (المستكبرين) في تقنينها للفساد، وتكريسها للظلم في شتى صوره، إنها تدخل ضمن ما يسميه علم النفس الاجتماعي الحديث بـ «التماثل».

والتماثل كما يعرِّفه علماء النفس الاجتماعي: هو إنتاج سلوكي مشابه لمصدر التأثير (المجتمع أو السلطة)، وهو سلوك اختياري يحظى بالموافقة والرضى والرغبة.

أما الدوافع النفسية التي تتسبب في التماثل السلبي فترجع إلى عدَّة عوامل، منها:

– الطمع أو الرغبة في الحصول على مكافآت مادية ومعنوية.

(١) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ص ٢١٩، ٢٢٠ .

- الخوف من عقوبة المجتمع وتهميشه عند إعلان المخالفة.
- أثر البيئة الاجتماعية والعادات والتقاليد[1].
- القابلية للمتابعة مع وعي بمضارِّ ذلك ومساوئه.

وهذه العوامل تعزز مواقف سلبية، منها:

• تذلُّلُ وخنوعُ المتماثلين من أجل الحصول على القبول والترحيب داخل المجتمع أو الجماعة.

• الجمود على المعايير والوسائل نفسها؛ على الرغم من تغيُّر الظروف والملابسات التي أنتجتها، وهو ما يعود بالضرر على الجماعة والمجتمع.

لكن مع ذلك فإن للتماثل الإيجابي بعض المزايا: كتقليص النزاع وإزالة الاختلاف بين عناصر الجماعة التي تجتمع على عقيدة ربانية صحيحة، وتشجيع التنسيق بينهم عندما يكون أعضاء الجماعة على القَدْر نفسه من الكفاءة والمبالغة في الحماسة للمواقف والآراء المشتركة.

ويفيد التماثل أيضاً عندما يحدث التنسيق والتأثير المتبادل بين أعضاء الجماعة، لا سيما عندما يكونون على مستوى واحد من الكفاءة؛ متشابهين في طباعهم وأنماط سلوكهم... وفي حالة أخرى عندما يكون الفرد مستعداً لاقتباس أحكام نظرائه إذا كانوا أكثر دراية وخبرة منه في القضايا المطروحة.

ويمكن للتماثل أيضاً أن يستعمله أشخاص مع نظرائهم غير المذعنين كأداة لتوجيه تحدٍّ للسلطة. كما أن التماثل في المعايير الأساسية جوهري إذا كانت الجماعة ترغب في البقاء، وتريد بلوغ أهدافها ومقاصدها.

وهناك ظاهرة أخرى هي «الإذعان»، يعرِّفها علم النفس الاجتماعي بأنها: تغيير السلوك للخضوع لأوامر مباشرة لسلطة عليا. وهو سلوك إجباري تسعى السلطة من خلاله إلى ممارسة التأثير ومراقبة مدى خضوع الفرد لأوامرها.

ويعود فِعْل الإذعان إلى جملة من العوامل، منها:

- تنفيذ المستضعَف أو المذعِن أوامر قائده ظناً منه أنَّ مَنْ فوقه هو المسؤول عن أفعاله.
- قبول التفسيرات التي تعطيها السلطة لتبرير سلوكها تجاه الأحداث.
- إبداء المذعن مسؤولية أقلَّ إزاء أفعاله الخاصة.
- الطمع في أخذ مكافأة على ممارسته غير الإنسانية.
- الخوف من عقاب رئيسه.

وللإشارة أقول: إن الإذعان يكون أحياناً طوعياً بفعل تأثير العادات والتقاليد الاجتماعية، والأهواء، والقابلية للمتابعة.

ونحن إذا وضعنا مفهوم «الإذعان» في ميزان الشرع، فسنرى أن هذا السلوك غير محمود وغير مرغوب فيه؛ لأنه يعوِّد الناس على الذل والاستسلام للباطل، وممارسة الظلم على غيرهم؛ إرضاءً لرؤسائهم وكبرائهم أو خوفاً منهم؛ كمن باع آخرته بدنيا غيره.

وقد حكى القرآن الكريم قصة المستضعفين وهم في النار يُلقُون التبعة على المجرمين الذين أطاعوهم وأذعنوا لتشريعاتهم وقوانينهم وسوَّوهم بالله - عز وجل - في الطاعة والتعظيم والتشريع، وهو ما يتعلق بشرك الألوهية، فلم تنفعهم حسرتهم وندامتهم وتمنِّي العودة إلى الدنيا لتغيير السلوك والمواقف: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦ - ١٠٢].

وكذلك وجَّهت الأحاديث الشريفة الإنسان المسلم إلى توطين النفس على الإحسان: «لا تكونوا إمَّعة تقولون...» الحديث[2].

على أن طاعة القيادة مشروطة بالمعروف وتنفيذ تعاليم الشرع لقول النبي ﷺ: «الطاعة في المعروف»[3] وقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[4].

إنها طاعة واعية مبصرة لا تسمح للأفراد أن تذوب شخصيتهم في شخصية القيادة؛ لأن المؤمن يتعلق بالمبدأ لا بالقيادة، التي تُسمَع وتطاع بحسب امتثالها لأوامر الله، عز وجل.

وحتى في أحلك الظروف؛ فإن الإنسان يملك قوة عظيمة هي قوة الرفض بقلبه، وهذه القوة سماها النبي ﷺ «جهاداً» في قوله: «ما من نبي بعثه الله في أمَّة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنَّته ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخْلُف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون

(١) ويبيّن الحديث الشريف بشكل جليٍّ أثر البيئة الاجتماعية في التماثل؛ حيث يقول ﷺ: «كل مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...»، رواه أحمد في مسنده، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب المغازي: ٥/١٠١.

(٤) أخرجه أحمد في المسند: ٥/٦٦. وذكره الألباني في الصحيحة وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

مـــا لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خردل»[1].

وهذا الحديث وإن كان مســـوقاً فـــي بيان أحوال الأنبياء الســـابقين؛ إلا أن الظاهر من لفظه أن هذه الأمة داخلة فيه؛ إذ يمثل سنَّة اجتماعية مطَّردة وشاملة.

إنَّ الانهزام الداخلي الذي يستطيل به الباطل، يمنعه المسلم بالتماســـك القلبي. والموالاة التي يحتاجها الباطل - حتى مع قوَّته - فَلْيمنعها عنه. وهذا ما يطلَق عليه جهاد القلب.

وقد جاء الوعيد شـــديداً في مَن يلتف حول أهل الباطل ويذعن لهم، ويتعلق قلبـــه بنصرتهم، أو يتبعهم من غير رويَّة: «أهل النار خمســـة: الضعيف الذي لا زَبْـــرَ له[2]، والذين هم فيكم تبع...» الحديث[3].

ومن المعلوم أن أفعال الإنســـان من حيـــث اعتبارُ الإرادة والقصد على ثلاثة أحوال:

١ - ثبوت الرضى والاختيار (وهو ما يتناوله هذا البحث)، وهذه ليست حالة إكراه.

٢ - انعدام الرضى وبقاء الاختيار.

٣ - انتفـــاء الإرادة والقصـــد بانتفتاء الرضـــى وانتفاء الاختيار[4].

أما الحالـــة الأولى: فقد تحدثنا عنها بمـــا فيه الكفاية، والمذعن ها هنا يكون مســـؤولاً عن موقفه وســـلوكه، ويتحمَّل تبعة أفعاله.

وأمـــا بالنســـبة للحالـــة الثانية؛ حيث يتعـــرض المذعن «للتهديـــد»، وينعدم رضاه ولا ينعدم اختيـــاره تماماً: فالمؤمن يختار في هذه الحالة أخفَّ الضررين وأهون الشرين، كما هو حال نبي الله شعيب ﷺ مع قومه: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَـالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَـدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَـاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨ - ٨٩].

فلا تجوز الاســـتجابة لهذا التهديد واســـتقبال فتنة الإيذاء بالاستخذاء والانقياد، كما في قوله - تعالى -: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

وفـــي ما يتعلق بالحالـــة الثالثة «الإلجـــاء»؛ حيث ينعدم الرضـــى والاختيـــار، وتُنفى الإرادة والقصـــد؛ بالوقوع تحت طائلة التعذيب الشديد، وهو ما يلغي الإرادة ويسقط مسؤولية الإنســـان عن أفعاله وأقواله؛ بحيث تكون كأفعال العجماوات والجمـــادات[5]: فهذه الحال هي التـــي نزلت فيها آية النحل: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦]، واختلفت فيها مواقـــف الصحابة - رضي الله عنهم - كبلال وعمار وغيرهم بحســـب قوة الإيمان وقوة الإرادة وقوة التحمـــل وضعفهـــا. لكن لا تبعة على الإنســـان في مثل هذه الحالة؛ إذ يُستخدَم فيها كالآلة.

وهكذا مـــن منطلق التأصيل الشـــرعي، ينبغي أن نفرق بين الإكراه (التهديد والإلجاء) وبين مشـــاعر الخوف والطمع التي تتزاوج فيها مشاعر الرجاء والتعظيم والاتِّباع (الإذعان)، كما يجب أن نفرق بين الاســـتضعاف مع الرفض القلبي وبين الهزيمة النفسية والاستكانة لتقاليد وأعراف المجتمع، والركون إليها، وفقدان الثقة في الله، وترك التوكل عليه.

وفي الختام يمكننا القول بأن الفكر الغربي قد بلغ شـــأواً بعيداً في تفكيك وتحليل الظواهر الاجتماعية؛ بالكشـــف عن أســـبابها والعوامل المؤثرة فيهـا وما يتمخض عنها من نتائج وآثار، وذلك بفعل التجارب المختبرية والدراسات الميدانية.

لكن يبقى هـــذا الفكر عاجزاً عن إيجـــاد حلول حقيقية للمشـــاكل الناجمة عن الظواهر الاجتماعية المستعصية؛ لأنه مقطـــوع الصلة بالوحي، وهو ما يجعله غيـــر قادر على فهم حقيقة النفس الإنســـانية، وطبيعتها، ودروبها، وتشـــعباتها، ووســـائل علاجها، ومن ثَمَّ لم يحالفـــه النجاح في ضبط بنيَة العلاقات الإنســـانية والنفسية المجتمعية في سيرورتها الآنية والمستقبلية.

وليـــس أدلَّ على ذلك مما تعانيـــه المجتمعات الغربية من انحطاط خُلُقـــي وأمراض اجتماعية ونفســـية تنذر بحتمية الانهيار مهما يكن بطيئاً: ﴿ سُـنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح: ٢٣].

---

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان: ٢/ ٢٧.

(٤) وفي رواية: «لا دين له». لا زبر له: أي لا عقل له يمنعه مما لا ينبغي. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ١٧/ ١٩٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار: ١٧/ ١٩٧ - ١٩٨. وأحمد في المسند: ٤/ ١٦٢.

(٤) عبد المجيد الشاذلي: حدُّ الإسلام وحقيقة الإيمان، ص ٥٧٥.

(٥) عبد المجيد الشاذلي، المرجع السابق، ص٥٧٥.

طيِّب الكسب وصلاح الأبناء

عبد العزيز مصطفى الشامي
Omarez1973@hotmail.com

لا يخفى أننا في زمن فُتِحَت فيه الدنيا على الناس، وكثُرت تجاراتهم، وتعددت مكاسبهم، وكثرت صور البيوع التي حيَّرت الناس ولبَّست عليهم، وقد أخبر النبي ﷺ أنه يأتي على الناس زمان ما يبالي الرجل من أين أصاب المال؛ من حلال أو حرام؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان ما يبالي الرجل من أين أصاب المال؛ من حلال أو حرام»(١).

وإن العبد الصالح نقيُّ القلب لا يتأثر بما يتأثر به الناس، ولا يتابعهم في ما يخالفون فيه هدي رسول الله ﷺ الذي لم يأكل التمرة؛ لأنه يخشى أن تكون من تمر الصدقة، وقد قال ﷺ: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحُسْن خليقة، وعفَّة طُعمَة»(٢).

والعبد إذا اطمأن قلبُه بربه؛ وَثِق في تدبير ربه له في أمر رزقه، بين بسطه وتقديره؛ فهو راضٍ عن ربه، غيرُ متطلع لما في يد غيره، قانعٌ برزقه، واثقٌ في حُسْن اختيار الله له؛ فقد آمن وصدَّق بقول الحبيب محمد ﷺ: «إن روح القدس نفث في رُوعِي أن نَفْساً لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنَّ أحدَكم استبطاءُ الرزق أن يطلبه بمعصية الله؛ فإن الله - تعالى - لا يُنَال ما عنده إلا بطاعته»(٣).

ولا يتطلع للكسب الحرام موقناً بتأكيد النبي ﷺ: «لا تستبطئوا الرزق؛ فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق هو له، فأجملوا في الطلب: أخذ الحلال، وترك الحرام»(٤).

وحذر النبي ﷺ العبد من أكل الحرام، مبيِّناً آثاره الضارة على دين العبد وسلامة عبادته، فقال ﷺ: «أيها الناس! إن الله طيِّب لا يقبل إلا طيِّباً، وإن الله - تعالى - أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام؛ فأنى يستجاب لذلك؟»(٥).

(١) سنن النسائي: ٤٤٥٤، وصححه الألباني.
(٢) مسند أحمد: ٦٦٥٢، وصححه الألباني.
(٣) أبو نعيم في حلية الأولياء: ١٠/ ٢٧، وصححه الألباني.
(٤) السلسلة الصحيحة: ٢٦٠٧.
(٥) رواه مسلم: ١٠١٥.

قال ابن رجب – رحمه الله – في شـــرحه لهذا الحديث: «في هذا الحديث إشـــارة إلى أنه لا يُقبَل العمل، ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأنَّ أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قَبُوله؛ فإنه قـــال بعد تقريره: «إن الله طيِّب لا يقبل إلا طيِّباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرســـلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُـــلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَـــاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِـــن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]»، والمراد بهذا أن الرسل وأممَهم مأمورون بالأكل من الطيِّبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح؛ فما دام الأكل حلالاً فالعمل صالح مقبول؛ فإذا كان الأكل غير حلال؛ فكيف يكون العمل مقبولاً؟ وما ذكره بعد ذلك من الدعـــاء، وأنه كيف يُتَقبَّل مع الحرام؛ فهو مثال لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام»[1].

وقال أبو عبد الله النباجي الزاهد – رحمه الله –: «خمس خصـــال بها تمام العمل: الإيمان بمعرفـــة الله – عز وجل – ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السُّنة، وأكل الحـــلال؛ فإن فُقدَت واحدة لم يرتفـــع العمل؛ وذلك أنك إذا عرفت الله – عز وجل – ولم تعرف الحق لم تنتفع، وإن عرفت الحـــق ولم تعرف الله لم تنتفع، وإن عرفت الله وعرفت الحق ولـــم تُخلِص العمل لم تنتفع، وإن عرفـــت الله وعرفت الحق وأخلصت العمل ولم يكن على السُّنة لم تنتفع، وإن تمَّت الأربع ولم يكن الأكل من حلال لم تنتفع).

وقـــال وهيب بن الورد: (لو قمتَ مقام هذه الســـارية لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل بطنك؛ حلال أم حرام؟).

ويقول ميمون بن مهران: (لا يكون الرجل تقيّاً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه؟).

وقال يوسف بن أســـباط: (إذا تعبَّد الشاب يقول إبليس: انظـــروا من أين مطعمه؟ فإن كان مطعمه مطعم ســـوء قال: دعوه لا تشتغلوا به، دعوه يجتهد وينصب؛ فقد كفاكم نفسه).

وقال ســـهل بن عبد الله: (من نظر في مطعمه دخل عليه الزهد من غير دعوى).

وسأل رجل سفيانَ الثوري عن فضل الصف الأول فقال: (انظر كســـرتَك التي تأكلها من أيـــن تأكلها؟ وقم في الصف الأخير).

وقـــال إبراهيم بن أدهم: (ما أدرك من أدرك؛ إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه).

وقال ابن المبارك: (رَدُّ درهم من شـــبهة أحب إليَّ من أن أتصـــدق بمائة ألـــف درهم ومائة ألف ومائـــة ألف حتى بلغ ستمائة ألف).

لقد كانوا – رحمهم الله – يؤكدون على هذا المعنى كثيراً؛ حتى إن الفضيل – رحمه الله – لما أراد أن يعرِّف أهل السُّـــنة قال: (أهل السُّنة مَن عرف ما يدخل بطنه من حلال).

يجـــب على من يحرص على دينه إذا التبس عليه أمرٌ بين حِلٍّ وحرمةٍ أن يسأل إذا لم يعلم، كما كان سلفنا، رضوان الله عليهم.

إنَّ كل معاملة ليســـت على أصل شرعي واضح: هي من أكل أمـــوال الناس بالباطل الذي حرَّمـــه الله ونهى عنه. وكم تجرأ الناس على الكســـب الحرام؛ فهذا عامل لا يؤدي عمله علـــى وجه صحيح، ورَبُّ عمل يقتطع من حق أجيره، وموظف لا ينهض بمسؤولية وظيفته، وتاجر يغش في سلعته، ومتجرئ على التعامل بالربا، ومتاجر بما يفســـد عقول الناس ويدمر حياتهم... والكسب الحرام ينعكس على صلاح الأولاد.

التربية بالقدوة والمثل الأعلى:

مما لا شـــك فيه أن الحديث عن المثـــل الأعلى والقدوة الطيِّبة شـــيء ضروري في هذه الأيام؛ حتى ينشـــأ شـــباب المســـلمين مقتدين بسِـــيَر العلماء وأهـــل الفضل والخير من هـــذه الأمة؛ ممن جمعوا بين العمل الصالح وحب الخير ونفع الخلـــق، وحتى يتطلـــع الجميع إلى مُثُل عُلْيـــا حقيقيةٍ أثَّرَت في حياة النـــاس، وغيَّرت الاهتمامـــات والطموحات. فكثير من شـــباب هذه الأيام لا يجد قدوة له إلا لاعباً مشـــهوراً، أو ممثلاً مغموراً، أو حضارة غربية مفلســـة مظلمة؛ فهؤلاء في حاجة ضرورية إلى أن يشاهدوا نماذج مشرقة، ورجالاً نبلاء فضـــلاء، وما أكثرَهم في تاريخ هذه الأمـــة العريقة التي قد تمرض ولكنها لا تموت!

فبدلاً من تعلُّق القلوب بأقـــدام الاعبين أو لَهْـــوِ اللاَّهين، وتفريـــط المفرطين، لا بد من إبراز هذه القمم العالية؛ لتكون منارات في طريق الحق والخير؛ يقتدي بها الحيارى، ويبصرون سبيل الحق والخير.

(١) جامع العلوم والحكم، ص ١٠٠.

إن إنارة الطريق للشـــباب الغريق، وبثَّ الأمل في القلوب والنفـــوس، لمن الأعمال الموفَّقة التي تعـــود على الأمة بالنفع والخيـــر؛ فيتخلص أبناؤهـــا من الهزيمة النفســـية، ويعتزوا بإيمانهم ودينهم العظيم، وتاريخهم المشـــرق، ورجالهم النبلاء وقادتهـــم العظماء، ويعرفون أن تاريخ أمة الإســـلام فيه كنوز عظيمة؛ فيها القدوة والأسوة الحسنة لمن قرأ وتدبَّر.

طَيِّب الكسب وعفة المطعم من أسباب صلاح الأولاد:

مما لا شـــك فيه أن الشـــجرة الطيِّبة ذات الجذور الراسخة التي تُسقَى بماء صافٍ لا تُنبِت إلا خيراً، وكان عمر بن عبد العزيز غرســـاً طيِّباً لأســـرة كريمة طاهرة؛ فوالده هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، من خيار أمراء بني أمية، شـــجاعاً كريماً، وكان من تمام ورعه وصلاحه أنه لَـمَّا أراد الزواج قال لخازنه: اجمع لي أربعمائة دينـار من طيِّب مالـي؛ فإني أريد أن أتزوج إلى أهـل بيت لهم صلاح، فتزوج أم عاصم بنـــت عاصم بن عمـر بن الخطـاب، رضي الله عنه، حفيدة أمير المؤمنين[1].

إن زواجـــه من آل الخطاب ما كان ليتم لولا علمهم بحاله وحُسْن ســـيرته وخُلُقه؛ فقد كان حَسَن الســـيرة في شبابه، فضـــلاً عن التزامـــه وحرصه عل تحصيل العلـــم واهتمامه بالحديث النبوي الشريف؛ فقد جلس إلى أبي هريرة – رضي الله عنه – وغيره من الصحابة وســـمع منهم، وواصل اهتمامه بالحديث بعد ولايته مصر، فطلب من كثير بن مُرَّة في الشام أن يبعث إليه ما يســـمعه من حديث رسول الله ﷺ إلا ما كان من طريق أبي هريرة – رضي الله عنه – فإنه عنده.

لذلـــك لا بـــد أن ننتبه إلـــى أن صـــلاح الأولاد والذرية مسؤولية وأمانة، وأن لهـذا الصلاح – بعد توفيق الله – تبارك وتعالى – سببين ظاهرين:

أولهما: الحرص على الحلال الطيِّب في المطعم والمنكح.

وثانيهما: البحث عن الأسر الصالحة الطيِّبة عند الزواج، ليُخرِج الله لنا أبناءً بررة غُذُّوا بالحلال، ونشـــؤوا عليه وعلى تعظيم الشرع الحنيف، وهذا النبت هو أساس الشجر الوارف الظـــلال الذي ينتج للأمة ثماراً نافعة، وأطفال اليوم هم قادة الغد. فيا ليتنا ننتبه إلى بداية الطريق الصحيح حتى لا نضل ولا ننسى.

وعن أســـلم قال: بينما كنت مع عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وهو يعسُّ بالمدينة إذا هو قد أعيا فاتَّكأ على جانب جدار في جوف الليل؛ فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه! قومي إلـى اللبن فامذقيـه بالمـــاء (أي اخلطيـه)، فقالت لها ابنتهـا: يـــا أُمتاه! أما علمـت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم، ألا يُشاب اللبن بالماء، فقالت الأم: قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء؛ فإنـــك في موضع لا يراك فيه عمـــر ولا منادي عمر، فقالت البنت لأمهـــا: والله! ما كنت لأطيعه علانية وأعصيه ســـرّاً، وكان أمير المؤمنين في استناده إلى الجدار يسمع هذا الحوار فالتفت إليَّ يقول: يا أســـلم! ضع على هذا الباب علامة، ثم مضى أمير المؤمنين في عَسِّـــه، فلما أصبح ناداني: يا أسلم! امـــضِ إلى البيت الـــذي وضعتَ عليه العلامـــة، فانظر من القائلة، ومن المقول لها؟ انظر هل لهما من رجل؟ يقول أسلم: فمضيـــت، فأتيت الموضع؛ فإذا ابنـــة لا زوج لها، وهي تقيم مع أمها وليس معهما رجـــل، فرجعت إلى أمير المؤمنين عمر فأخبرته الخبر، فدعا إليه أولاده، فجمعهم حوله ثم قال لهم: هـــل منكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه؟ لو كان بأبيكم حركة إلى النساء، ما ســـبقه أحد منكم إلى الزواج بهذه المرأة التي أعرف نبأها، والتي أحب لأحـدكم أن يتزوجهـا. فقال عاصم يا أبتاه! تعلم أنّ ليس لي زوجة؛ فأنا أحق بزواجها. فبعث أمير المؤمنين من يخطب بنت بائعة اللبن لابن أمير المؤمنين عاصم، فزوجـــه بها، فولدت له بنتاً تزوجهـــا عبد العـزيز بن مروان، فولدت له خامس الخلفاء الراشدين الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، رضوان الله عليهم أجمعين[2].

كان مِـــن يُمْنِ هذا التصرف الكـــريم أن كانت ثمرة هذا الزواج، خليفةً لم تعرف الإنسانية بعده نظيراً له في عدالته، وزهادته، وسعادة رعاياه به، رضي الله عنه ورحمه.

إن هذا مثال على ثمرة الحلال في صلاح الأولاد.

اللهم اكفنـــا بحلالك عن حرامك وأغننـــا بفضلك عمَّن سواك.

(١) ابن سعد في الطبقات: ٥ / ٣٣١.

(٢) الدولة الأموية... عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار: ٣/ ١١٠.

مجلة البيان

2 وثيقة تأهيل الآباء والأمهات لدورهم التربوي

إعداد مؤسسة المربي

www.albayan.co.uk

الخصم الأكبر!

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@hotmail.com

لطالما طرق أذني هذا المعنى، وكثيراً ما يعاد ترداده في مناسبات عديدة، هذا المعنى يتلخَّص في العبارة التالية: **(ضرورة تقديم خطاب عقلاني وبرهاني وعلمي لدعوة الناس إلى الإسلام، وأنَّ سبب جفولهم عن الإسلام راجع إلى ضعف الخطاب الموجَّه إليهم)**.

ليس لي تحفُّظ كبير يمسُّ صحَّة هذا المعنى، لكنني كلما سمعتُ هذه العبارة قفز إلى ذهني المناظرات العلمية والإعجاز العلمي فأجد أن دورها في دعوة الناس إلى الإسلام، وأثرها على أعداد الداخلين في الإسلام أضعفُ وأبعدُ بمراحل كثيرة من دور الموعظة الحسنة أو التعامل اللطيف أو الخطاب العقلي الميسَّر، وهو ما جعلني أشك في حقيقة هذه الضرورة التي تكرَّر علينا في كل حين، ليس انتقاصاً لأهمية الحديث العقلاني والعلمي أو شكاً فيه؛ وإنما أشعر أنه يتضخَّم أمام ناظرينا فيتشكل بأكبرَ من صورته الحقيقية.

عدتُ إلى كتاب الله – تعالى – وبدأت في قراءته من فاتحته لأتلمَّس الطريق الصحيح في التعامل مع هذه الأمر، ولم أكد أنهي بعض أجزاء منه حتى ذهلت من الحقيقة التي ظهرت لي بجلاء، لم تكن جديدة عليَّ ولا أظنُّها تخفى على أحد؛ لكن ميزة النظر في القرآن أنه يرتِّب الأولويات في عقل المسلم ويعيد تشكيل نظرته إلى الأمور لتبدوَ في وضعها الصحيح.

بدت لي حقائق شرعية ناصعة البيان يجب أن تكون أمام أنظارنا في قضية الإيمان:

الحقيقة الأولى

أن الهداية إلى الإسلام نعمة ومنَّة من الله على أهل الإسلام ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤]، يختار الله لها و ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥] وأمرها إلى الله فـ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّـهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]؛ فلن يدخل أحد في الإسلام إلا بعد أن يشرح الله صدره لذلك ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وهذا ما يجعل من ثناء أهل الإيمان قولهم ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، حتى من دخل في الإسلام فلن يستقيم على أحكام الشريعة إلا بفضل من الله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

وهذه الحقيقة توصلنا إلى

الحقيقة الثانية

أن اللـــه يحـــول دون وصـــول بعـــض الناس إلى الإســـلام؛ فلا يتمكن من فهم الحقِّ ولا ينشـــرح صدره له ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَـمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْـتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]. وجاء في ذلك التحذير المخيف ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فإذا لم يُرد الله هداية إنســـانٍ إلى الإسلام فلن يملك أحد له شيئاً ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [النساء: ٨٨]، وقال نوح مخاطباً قومه: ﴿وَلا يَنفَعُكُـمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]؛ لأن القاعدة الشرعية الراسخة في نفوس المســـلمين جميعاً أنه ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]؛ فهم محجوبون عن الهداية، بل يصرفهم الله عنها لِـمَا علم من حالهم ﴿سَـأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦].

هاتان الحقيقتان تزيحان الســـتار عن ناظرَي المسلم بأنَّ فهمَ الإسلام والاقتناعَ به لا يعني الدخول فيه، وأن من يرفض الدخول في الإســـلام فليس لأنه لم يفهم الدليل ولم يقتنع به، لكن ثمَّ أمر آخر فوق هذا كلِّه، هو إرادة الله ومشيئته؛ فالهداية ليست مرتبطة آلياً بالدليل العقلي؛ فإذا رفض شـــخصٌ الإسلام بحثنا عن المزيد من الدلائل العقلية واجتهدنا في الإقناع تلو الإقناع، بل هي هداية وانشـــراح قبل ذلك وبعده، وهذا يضع (الدليل العقلي) في مكانه الصحيح فلا يطغى ويتضخَّم ليُرْبك المفاهيم والأولويات الشرعية.

الحقيقة الثالثة

أن الدلائل العقلية ليست على الوجه الذي يريده الكفار؛ فإنهم يقترحـــون دلائل معيَّنة فلا تُحقَّق لهم ﴿فَلَعَلَّـكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَـا يُوحَى إِلَيْـكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَـدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَـاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، وطالَبُوا ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠ – ٩١]؛ فهذه دلائل طلبوها حتى يقتنعوا بالإسلام فلم تحصل لهم، وهو ما يعني أن الدلائل العقلية لا يجب أن تكون بحســـب ما يريد الكافر.

الحقيقة الرابعة

أنَّ الكفار يعتقدون أنهم على حقٍّ ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَـبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ولديهم قدرة على المحاججة والمجادلة عن باطلهم ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُـونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعـام: ١٢١]، ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦].

فبقاء الكافر معتقداً أنه على حق ويسير في طريق صحيح، ســـنَّةٌ كونية أرادها الله ولا مبدِّل لما أراد؛ فالإنسان ليس بقادر على أن يقدِّم دليلاً عقلياً يكـــون قاطعاً لأي أحد ولكل مجادل ويكون حالُ منكره كحال من ينكر الأرض التي يمشي عليها، بل سُـــنة الله أن يبقى أكثر الناس على ضلال ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

الحقيقة الخامسة

أن سبب ضلال كثيرٍ من الناس ليس لعدم فهمهم لدلائل الإيمان والتوحيد، بل لما في نفوســـهم من أهـــواء وأدواء: وفي (القرآن) ذِكْر لكثير من هذه الأهواء: المـــال ﴿وَلا تَشْـتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًـا قَلِيلاً﴾ [البقـرة: ٤١]، والتلبيس ﴿وَلا تَلْبِسُـوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، والإعراض ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]، والحسد ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَـدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِـهِم﴾ [البقـرة: ١٠٩]، والتعصُّب للآبـــاء ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَـا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَا﴾ [يونس: ٧٨]، وحـــب الدنيا ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَـاةُ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢]... وغيرها كثير.

الحقيقة السادسة

قيام الدنيا على الابتلاء والتمحيص: فمن سنَّة الله أن يُجري على أهل الإيمان الابتلاء والاختبار ﴿أَمْ حَسِـبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَـمَّـا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقد بيَّن الله حكمة هذه الســـنَّة الربَّانية ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْـهِ حَتَّى يَمِيـزَ الْخَبِيثَ مِـنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمـران: ١٧٩]، فقضية الإيمان ليست مسائل عقلية تُفهَم أو لا تُفهَم، بل تحتاج النفوس مع ذلـــك إلى اختبارٍ وامتحانٍ ليظهـــر الثبات والصبر وتقديم مراد الله، وهذه معانٍ شرعيةٌ عظيمةٌ هي أسمى بكثير من فَهْم

الدليـــل أو عدم فهمه؛ ولذلك يتكرر في القرآن وَصْف المؤمنين بالتزكية والثبـــات والإخبات والانقياد، وهو ما يعني أن الإيمان ليس فَهْماً للدليل بل خضوع وانقياد وتســـليم لله ربِّ العالمين، وهو ما تأنـــف عنه كثير من النفوس ولا يكفـــي فهمها للدليل لتصل إلى هذه المنزلة.

ما الذي نخلص إليه بعد استحضار هذه الحقائق القرآنية؟

نخلص إلـــى أنَّ موضوع الإيمان ليـــس قضية عقلية صِرفـــة، تتوقَّف علـــى مدى قدرتنا علـــى تقديم خطاب عقلاني مذهل، وأنَّ كثرة المعادين للإسلام وعلوَّ أصواتهم ليس ناتجاً بالضـــرورة عن ضعف الدليـــل العقلي الذي يســـمعونه من المســـلمين، بل وراء ذلك أسباب عدَّة تفتح لذهن الداعية فضاءً واسعاً للتفكير في كيفية الدعوة إلى الإســـلام؛ فلا يغلق ذهنه على صورة واحدة تتضخَّم في الذهن بســـبب عوامل خارجية. إن هـــذا – قطعاً – ليس تقليلاً مـــن الدلائل العقلية أو تهويناً مـــن قدرها، بل إن القرآن مليء بالبرهنة والاستدلال العقلي واستحثاث أهل العقول ونعيٌ على أهل الشرك تعطيلهم لعقولهم.

إن حضور هذه الحقائق يفتح أمام أنظارنا النتائج التالية:

١ **أن الخصومة الحقيقية والمشكلة الأكبر التي تصدُّ الناس عن الإسلام ليست الدلائل العقلية بقدر ما هي (الأمراض) التي تسكن النفوسَ:** من كِبْر وحسد وحبٍّ للمال والجـــاه، أو التعصُّب لِمَا عليه المجتمـــع والإرث، أو الإعراض وحب الدنيا، ولعل هذا يفسِّـــر أن أكثر الداخلين في الإســـلام ينقادون إليه مـــن دون حاجة لخطاب ذي مواصفات عالية في البرهنة والعقلانية.

٢ **أهمية العناية بالوسائل التي تعالج أمراض النفوس وأدوائها:** فالوعظ، والترغيـــب، والترهيب، والتذكير بالبعـــث والمصير له دور عظيم في دخـــول الناس في دين الله أفواجاً، وســـيلفت نظرك حين تقـــرأ دلائل القرآن أن الخطاب الوعظي حاضر بقـــوَّة في مجادلة الكفَّـــار، فتأمل في الآيات التاليـــة: ﴿فَإِن لَّـمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُـوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِـي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله – ســـبحانه –: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النســـاء: ١٧١]، وقوله ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣] بل إن من حكمة الله في إرسال الآيات ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ فهـــذا خطاب الله الذي خلق هذه الأنفسَ ويعلم ما تحتاج إليه، وهو معنى يغفـــل عنه كثيراً مَنْ يغرق في العناية بالدلائل العقليـــة فيكون جـــلُّ تفكيره وحديثه في محاولـــة الإبداع في اســـتخراج الدلائل التي تقنع المخالف – وهو مطلوب حســـن – لكنه يغفل عن أثر الوعظ في هداية الناس.

٣ **الاعتدال في تقرير وتقديم الدلائل العقلية:** فدورها أن تبيِّن الحق للشـــخص وليس أن تدخله في الإسلام، وحينما لا ينشـــرح صدره للإسلام فإنه قادر على المجادلة وإثارة الملفـــات المختلفة إلى مـــا لا نهاية، وكثيراً مـــا تختفي الأهواء والأمراض والحظوظ الشخصية في قوالب الدلائل العقلية التي يقدِّمهـــا المجادل، فتكون غلافاً لأهواء النفوس من حيث يشـــعر أو لا يشـــعر؛ ولهذا يكثر في خطاب القرآن تسمية حجج الكفار بالأهـــواء ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٤٥] بل كلُّ مـــن يُعرض عن اتباع الرســـول ﷺ فهو متَّبع لهواه ﴿فَإِن لَّمْ يَسْـتَجِيبُوا لَـكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُـونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، وحـــين يكون بعض الناس بحاجة للدلائل العقلية المعقَّدة والمركَّبة والدقيقة فيجب أن يكون ذلك بحســـب الحاجة؛ لأن أكثر الناس في غنى عنها.

٤ **مراعاة النفوس التي يُعرَف من حالها الصدق والبذل وحبُّ الخير للناس أو الضعفة منهم:** فمثل هؤلاء أقرب لأن تكون نفوســـهم مهيَّأة لقبول الحق ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْـمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ لأن سوء بعض الناس يكون سبباً لأن يحرمه الله مـــن الهداية، فكما قال – تعالى –: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّـهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصـــف: ٥]، حتى لو جاءتهم الدلائل العقلية الواضحة البينة فإنهم لا يستفيدون ولا ينتفعون، بل قد يزيدهم ســـماع الحقِّ ضلالاً وفساداً كما قال – تعالى –: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال – سبحانه –: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإســـراء: ٤١]، بل حتى لـــو أتاهم الدليـــل عياناً بياناً وتحقَّـــق لهم حســـب ما يريدون فلن ينتفعوا به ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّـمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾. [الحجر: ١٤ – ١٥]

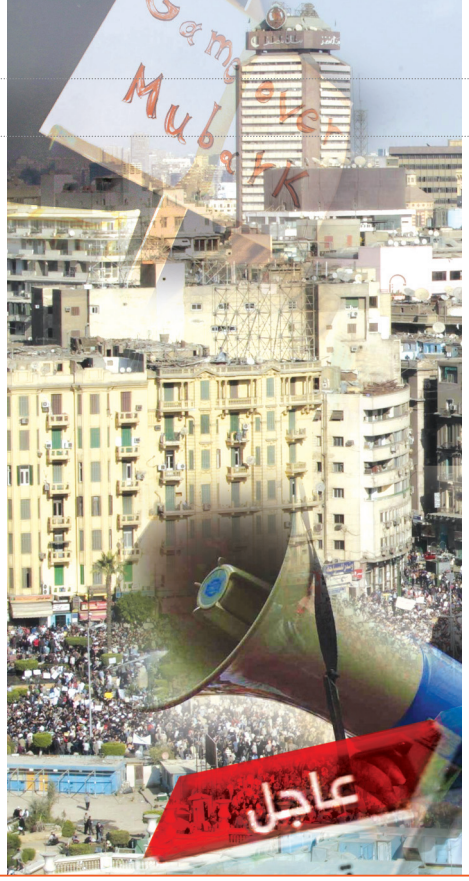

عِبْرَة

عبد العزيز بن صالح العسكر

قُـلْ لـلـذي تـاهـتْ بـه أوهـامُـهُ ... وأضـلَّـه بُـومُ الـرَّدى وغُـرابُـهُ:

إنَّ الـتـقـدُّمِ لا يـكـون بمنـهـجٍ ... يُـعـصَـى بـه ربُّ الـسـمـا وكـتـابُـهُ

سـقـطَ الـظـلـومُ ودُمِّـرتْ أوكـارُهُ ... وجـفـاه جـيـرانٌ لـه وصـحـابُـهُ

يـحـكـي لـنـا الـتـاريـخُ أَكْـبـرَ عِـبْـرَةٍ ... فـي بـيـت عِـزٍّ قـد عَـلاه خـرابُـهُ

الـظـلـمُ نـارٌ إن تَـوَقَّـد ضـوؤهـا ... فـوقُـودُهـا لـلـمـسـتـبـدِّ عَـذَابُـهُ

إنَّ الـشُّـعـوبَ – وإن تـطـاولَ صمتُها – ... لـن تـسـتـكـيَ لمـن بـدَت أنـيـابُـهُ

إنَّ الـشُّـعـوبَ – وإن تـبـدَّى حِلمُها – ... كـالـبـحـر يُـفـنـي مَـن طـغـى ويـجـابـهُ

إنَّ الـشُّـعـوب عـزيـزةٌ لا تـرتـضـي ... وَعْـدَ الـلَّـئـيـم؛ فـلـلـفـدى أربـابُـهُ

قـل لـلـذي يـبـغـي الـكـرامـةَ جـاهـداً: ... لا يـخـدعـنَّـك مـن الـنُّـهـوض سَـرابُـهُ

قـل لـلـذي يـبـغـي الـنـزاهـةَ صـادقـاً: ... إن الـنَّـزيـه (نـظـيـفـةٌ) أثـوابُـهُ

قـل لـلـذي يـبـغـي الـتَّـقـدُّمَ والـعُـلا: ... لـلـعـزِّ مـن ربِّ الـسـمـا أسـبـابُـهُ

قـل لـلـذي يـبـغـي الـقـيـادةَ مُـخـلـصـاً: ... لـلـنَّـصـر فـي أرض الـهـدى أبـوابُـهُ

رئيس الحركة الإسلامية في الداخل الفلسطيني

الشيخ رائد صلاح

في حوار خاص مع البيان

كشف الشيخ رائد صلاح (رئيس الحركة الإسلامية في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م) الذي أُفرِج عنه من سجون الاحتلال الصهيوني قبل أسابيع، أن دولة العدو ماضية في تنفيذ خطة «زاموش» لهدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل المزعوم.

وتحدث الشيخ رائد في مقابلة خاصة مع مجلة البيان عن تعرُّض الأسرى في سجون الاحتلال إلى مضايقات شديدة جداً؛ أخطرها التحرش الجنسي، والاعتداء على الحريات الدينية.

حاوره: البيان

البيان: أشرتم سابقاً إلى الظروف الصعبة التي يمر بها الأسرى داخل السجون، هل لكم أن توضحوا المعاناة اليومية التي يعيشها الأسرى في السجون الصهيونية؟

الشيخ رائد صلاح: بداية أؤكد أن المعاناة تختلف من سجن لآخر؛ فما يعانيه الأسرى السياسيون (أو من يجب أن يطلَق عليهم أسرى حرب) في سجن «جلبوع» على سبيل المثال، يختلف عمَّا يعانونه في سجن «نفحة»، أو في سجن «الرملة»، أو في سجن «بئر السبع»، ولكن جامع صور هذه المعاناة واحد، إلى درجة أنَّ بعض الأسرى يتعرضون إلى التفتيش عراة، والأطفال منهم قد يتعرضون للاغتصاب، والأسيرات قد يتعرضن أيضاً إلى التفتيش عاريات من قِبَل سجَّانات، وقد تُقمع الحقوق الدينية للجميع، وجرى الاعتداء على القرآن الكريم في بعض السجون، وهناك مئات من هؤلاء الأسرى

يعانون من أمـــراض خطيرة مزمنة تهدد حياتهم، وهم في عداد من يعاني من الموت البطيء التدريجي في هذه الأيام، وهناك بعض الأســـرى الذين تُقتحَم غُرَفهم بعد منتصف الليل، وتدخل فرق ســـيئة الذكر تســـمى «متســـادا» تقوم بتفتيش غرفهم والعبث فيها عبثـــاً فوضوياً تخريبياً عن سبق إصرار، فيخلطون الأَرُز مع العدس مع السكر، وينثرون لوازم الأسير (سجين الحرب) بشكل مقصود لتخريبها، وخلال التفتيش قد يُكرَه الأســـرى على الانتظار في الساحات في البرد القارس لساعات طويلة، والأبشـــع من ذلـــك أنَّ هناك من الأســـرى مَـــن يتعرضون إلـــى التحرش الجنســـي من قِبَل بعض السجانات، وأنا أعلم روايات مخزيـــة صدرت عن بعض الســـجَّانات بدوافع التحرش الجنســـي بالأسرى السياسيين، والله – تعالى – هو الحافظ واللطيف بهم.

بالإضافـــة إلى ذلك يُمنَع دخول الكتب – وبشكل خاص الكتب الدينية – على كثير من الأســـرى، وهناك أوامـــر تمنع إدخال الصحـــف على كثير من الأســـرى، وهناك بعض الأســـرى ممن يعانون من سياســـة العزل لســـنوات طويلة، لدرجة أنَّ بعضهم قد تجاوز أكثر من عشـــر سنوات وهو في عزل، وهناك من الأسرى من يُعاقَبُون وهم داخل الســـجن؛ بمعنى أن يجـــري نقلهم عقوبة لهم من غرف الســـجن إلى زنازين ذات ظروف قبيحة جـــداً، تفوق كل تصور في مأســـاويتها؛ فقد يعيشون مع الفئران في هـــذه الزنازين التي لا يوجد فيها أدنى الظروف الصحية؛ فلا يوجد مرحاض، بل يســـتخدمون دلواً كبيراً لقضاء حوائجهم، وذلك في هواء منتن بارد في الظلام، فكل مـــا أذكره هو جوانب مـــن المعاناة التي لا تـــزال سياســـة لمديرية الســـجون، ولكنها – كمـــا قلت – يطبق قســـم منها في هذا

الســـجن، وقسم آخر في سجن ثانٍ، وقسم ثالث في ســـجن ثالث وهكذا، فالمأســـاة كبيرة والمعاناة مؤلـــة جداً، وأنا لا أتحدث عن مائة سجين ولا عن ألف؛ إنما أتحدث عن قرابة سبعة آلاف سجين (أسير حرب) من شعبنا الفلســـطيني ومن عالمنا العربي والإســـلامي، يعيشـــون الآن وراء قضبان الســـجون الصهيونية على خلفية الصراع (الفلســـطيني – الصهيوني)، أو (الصراع الإسلامي العربي – الصهيوني).

البيان: كيف تتعامل شرطة السجن مع الأسيرات والأطفال والمرضى، وهل معاناتهم مضاعفة عن بقية زملائهم الأسرى؟

الشـيخ رائد صلاح: دعني أقول: إنَّ المرضى يعانون مـــن خطر الموت البطيء، وحـــدث أن مـــات بعض الأســـرى داخل الســـجون، وحـــدث أن استشـــهد بعض الأســـرى داخل الســـجون، وهم شـــهداء الحركة الأســـيرة، هكذا يعرَّفون. والنساء يؤذَين بكل الوسائل التي يُؤذى بها الرجال بدون تمييز، والشـــيء نفسه يقال بالنسبة للأطفـــال؛ فهـــم يعانون ممـــا يعاني منه السجناء والســـجينات أيضاً، مع خطر أن يتعرض بعـــض الأطفال للاغتصاب، ومن الأطفـــال مَن لا تتجاوز أعمارهم عشـــر ســـنوات، يعيشـــون في ظروف مأساوية، يكبرون داخل السجون مع الآلام والحصار بدون أي رعاية طبية أو نفســـية؛ ولذلك قد يبلغ هذا الطفل وهو يعاني من أزمات وصدمات نفسية خطيرة جداً على مسيرة حياتـــه في بيته ومجتمعـــه، إلى درجة أن من النساء سُجنَت وكانت حاملاً، فقُيدت داخـــل الســـجن، ووضعـــتْ طفلها وهي مقيَدة، فهذا الرضيع ولد سجيناً دون أي ذنب، وعاش ســـجيناً منذ نعومة أظفاره، ورضع من أمه وهو ســـجين، وبلغ سنوات أيضـــاً وهو على هـــذا الحال بلا أي ذنب اقترفـــه. هذا هو النهج الصهيوني الظالم القبيح الرديء مع كل أســـرانا السياسيين على اختلاف ســـنوات محكومياتهم، وفي كافة سجونهم؟

البيان: كيف كان يقضي الشيخ رائد يومه في السجن، وهل تمكنتَ من كسر حالة العزل التي فرضتْها عليك إدارة السجون؟

الشيخ رائد صلاح: أنا – والحمد لله رب العالمين – حوَّلت العزل إلى نعمة كبرى، لدرجة أنني كنت أشعر بضيق الوقت وأنه لا يكفي لكل برنامج حياتي اليومي الذي وضعته لنفســـي؛ فأنـــا – بحمد الله رب العالمـــين – إن أردت أن أفصِّل برنامجي

اليومي، فهو هكذا: كنت أستيقظ قبل صلاة الفجر في الوقت المبارك، فأصلي ما شاء الله – تبارك وتعالى – ثم أقرأ المأثورات، وبعد ذلك أصلي صلاة الفجر، ثم أنام لوقت قصير، وبعد أن أستيقظ أصلي صلاة الضحى، وأقرأ وِردِيَ القرآني وأبدأ بكتابة ذكريات كلِّ يوم يمرُّ عليَّ في داخل السجن، ثم أنتقل إلى قراءة الكتاب الذي كنت قد بدأت به، بعد ذلك أخرج إلى جولة يومية لوحدي للساحة بحكم أني في عزل، وتستغرق هذه الجولة عادة ساعة، ثم أعود إلى الغرفة أمسح الغرفة، ثم أغسل ما أحتاج لغسله من ثيابي، ثم أغتسل، ثم أصلي صلاة الظهر، ثم بعد ذلك أنام القيلولة لوقت قصير جداً، ثم أقوم وأواصل القراءة في الكتاب حتى صلاة العصر، عادة ما أبدأ قبل صلاة العصر بقليل بإعداد وجبة طعامي اليومية، وإذا كنت صائماً فهي بطبيعة الحال عبارة عن إفطار، وخلال إعداد وجبة الإفطار أواصل القراءة، ثم أقرأ المأثورات مرة أخرى إلى صلاة المغرب، عند صلاة المغرب بطبيعة الحال كنت أؤذن بنفسي في بعض الأوقات، ولكن في معظم الحالات كان هناك من يؤذن من الإخوة في قسم العزل، جزاهم الله خيراً. ثم أصلي صلاة المغرب، وإذا كنت صائماً كنت أسبق ذلك بتناول حبَّات من التمر وشربة ماء، ثم أصلي المغرب، ثم بعد ذلك أتناول وجبة الإفطار، وبعد ذلك أواصل كتابة ذكرياتي اليومية إلى صلاة العشاء، فأصلي العشاء ثم أواصل القراءة، وفي هذه الفترة كنت أحرص أن أشاهد الأخبار في أكثر من فضائية مما تيسر من الفضائيات العربية الموجودة، وهي محدودة جداً، وكنت أحرص بشكل خاص ومقصود أن أسمع الأخبار في إحدى المحطات العبرية، بالذات القناة الثانية، بعد ذلك كنت أواصل القراءة أو نظم الشعر، وأبقى على هذا الحال إلى منتصف الليل، حيث أقوم فأتوضأ وأنام بحمد الله رب العالمين، إلى ما قبل صلاة الفجر؛ حيث يبدأ برنامجي مرة ثانية، وكنت خلال هذا السرد الذي ذكرته أحرص على أوراد أخرى من الذكر، أواظب عليها خلال جولتي في الساحة، وكنت عندما أخرج إلى الساحة أحرص على التجول على قدمَي طوال الوقت مدة ساعة، وكنت أمرُّ على كل أوراد الذكر اليومية، بحمد الله رب العالمين، وهذا ما جعلني – بتوفيق الله – أنجح بقراءة موسوعة البداية والنهاية لابن كثير، وقرأت أول أربع مجلدات من تفسير الشيخ الشعراوي، وبدأت بالخامس ولكن لم أستطع إكماله. لقد قرأت كتباً مختلفة، وعندما مُنِعت عني الكتب في فترة ما، بدأت أقرأ ما تيسر من الكتب الموجودة في مكتبة السجن، قرأت كتبَ أدب عالمي، وقرأت أيضاً قصصاً لكتَّاب عرب وعالميين.

وخلال كل هذه الفترة التي تحدثت عنها نجحت – بحمد لله رب العالمين – بإعداد ثلاثة كتب: الكتاب الأول كان عبارة عن ديوان شعر باسم «أسطول الحرية» سيصدر عما قريب؛ فقد انتهت مرحلة التنقيح وبقيت مرحلة الطباعة، وأيضاً هناك كتاب سأسميه «خواطر سجين» وهو في مرحلة الطباعة كذلك، وثمة كتاب ثالث سميته «تأملات في مواقف مشرقة» أيضاً هو الآن تحت الطباعة، وسيخرج – إن شاء الله تعالى – إلى النور مع بقية الكتب. وأستطيع أن أقول: إنَّ واقع السجن الذي عشته كان «خيراً» بلا حدود، ونعمة كبرى أحمد الله – تعالى – عليها طوال الوقت.

البيان: تعرضتم قبل شهور إلى محاولة اغتيال على ظهر سفينة مرمرة، ثم تبعها تغييبكم في السجن، واستمرار مَنعِكم من زيارة المسجد الأقصى والقدس... هل تعكس هذه الإجراءات الصهيونية تجاهكم المؤامرة التي تحاك ضد المسجد الأقصى المبارك؟

الشيخ رائد صلاح: نعم، هذا صحيح هي تعكس حجم المؤامرة ومدى وحشية الاحتلال ضد القدس وضد المسجد الأقصى المحتلَّين؛ لأنَّ الاحتلال الإسرائيلي يحرص أن يُعاقب كل واحد من أهلنا يرى فيه عاملاً لنصرة القدس والمسجد الأقصى؛ ولذلك هناك مئات من أهلنا يعيشون في السجون، وهناك من هم ممنوعون من دخول المسجد الأقصى، أو ممنوعون من دخول القدس وهم بالمئات كذلك، وهناك من جرى ترحيلهم من بيوتهم الموجودة بالقدس على الرغم من أنهم هم الذين بنوا هذه البيوت بأيديهم من أموالهم الحلال، مع ذلك قام الاحتلال الإسرائيلي بإبعادهم، وآخر

من أُبعِد عضو المجلس التشـريعي الشيخ محمد أبـو طير، وتبعه إبعـاد أحد أهل سلوان يسـمى عدنان غيث، وهناك الآن من هم مهدَّدون بالإبعاد، وهم عضوان في المجلس التشـريعي ووزير القدس السابق الذي كان في فترة الحكومة الفلسـطينية التوافقية بين حماس وفتح وبقية الفصائل الفلسـطينية، هؤلاء من ذكرت أسماؤهم مهددون بالإبعاد، وهم الآن يعيشـون في خيمة الاعتصام، في مقرِّ الصليب الأحمر فـي القدس، زيادة علـى ذلك هناك من يتعرضون للضرب والأذى الشـديد، وقد ينقَلون إلى المستشـفيات، لا لسبب إلاَّ أنهم ينتصرون لقضية القدس والمسـجد الأقصى، فأنا شـخصياً من ضمن هؤلاء الذين تعرضوا للإيذاء، وأؤكد وأقول لقد تحوَّل الإيذاء في حياتنا إلى وضع عادي؛ لذلك لن يكسر معنوياتنا، بل على العكس سيزيدنا صلابة، وتمسكاً بعدالة القضية التي ننتصر لها، قضية القدس والمسـجد الأقصـى المحتلَّـين، التي تمثـل الحق الإسـلامي العربي الفلسـطيني المنتصر رغم أنف الاحتلال الإسرائيلي، بإذن الله تعالى.

البيان: كيف كان الشيخ رائد صلاح يتابع أخبار القدس والمسجد الأقصى من داخل سجنه ويتفاعل معها؟

الشيخ رائد صلاح: لقد تابعت أوضاع القـدس والأقصى من خلال ما تيسـر من الفضائيـات العربية محدودة العدد، التي كان يُسـمَح ببث برامجها في قسـم العزل الذي كنت فيه والذي يعرف باسم «أيالون»، كان هناك فضائية «العربية»، والفضائية الأردنية، وفضائية فلسطين، وفضائية الـ mbc، بالإضافة إلى ذلك القنوات العبريـة: رقـم ١، ورقـم ٢، وكنت أحرص لدى زيارة الأهل والمحامين أن أسمع كلَّ ما هو جديد، وبهذه الصورة - بفضل الله رب العالمين - اجتهدت أن أتابع كل التفصيـلات التي كانت تجري على أرض القدس والمسـجد الأقصى المحتلَّين، أو حتى في المحيط الفلسطيني عامة، ثم المحيط العربي والإسلامي بشكل أعمَّ.

البيان: لماذا تقوم إسرائيل اليوم باستبدال بعض حجارة أسوار الحرم بحجارة منقوش عليها عبارات عبرية؟

الشيخ رائد صلاح: نحـن حذرنـا من مثـل هذه الأسـاليب العدوانية، منذ عـام ٢٠٠٦م عندما كشـفنا لكل الأمة الإسلامية والعالم العربي والشـعب الفلسـطيني عن مخطط يسـمى «مخطط زاموش»، أو مخطـط «القـدس أولاً»، الذي تقوم عليه المؤسسـة الإسـرائيلية الاحتلاليـة، حذرنا مـن مثل هذه الأساليب العدوانية منذ ذلك الوقت عندما كشـفنا لكل الأمة الإسلامية والعالم العربي والشعب الفلسطيني عن المخطط المذكور، الذي يسـعى إلى السـيطرة الكلِّية على المسـجد الأقصى، وعلى الحياة في المسـجد الأقصى، وعلى كل أبواب المسـجد الأقصـى؛ بهدف تغييـر واقعه، من مبنى إسـلامي عربي فلسـطيني، إلى طمع أسـود كيما يكون تجسيداً لمبنـى احتلالي إسـرائيلي، هو وما يقع حوله من مبانٍ وأسـوار، ونحن شرحنا في حينه عن خطورة مخطط زامـوش، ونقلنا ما قرأناه في مذكرة صدرت عمَّن يقفون مـن وراء هذا المخطـط، نقلناهـا بالتفصيل بعد ترجمتها ترجمة دقيقة، وأرسـلناها إلى كل العناوين الرسمية، والمنظمات العالمية في العالم الإسلامي والعربي، واجتهدنا أن نتحدث عنها عبر مؤتمر صحفي عقدناه مرة، ثم عبر لقاءات صحفية فـي فضائيات كثيرة مرَّات كثيرة، ومرة أخـرى أقول: ما يجري تحت أرض المسجد الأقصى، أو حول المسـجد الأقصى، أو داخل المسجد الأقصى، أو ما يجري الآن لأسـوار القدس القديمة: هـو جزء من هذا المخطـط المعروف باسـم «مخطط زاموش» الذي يطمع في آخر مراحله السوداوية - التي لن تتحقق إن شاء الله تعالى - بما يطمع به المشـروع الصهيونـي منذ القـديم، وهو بناء هيكل أسـطوري كاذب على حساب المسجد الأقصى.

البيان: هل بالإمكان أن يقدم فضيلتكم لقراء مجلة البيان ملخصاً عن أخطر وأهم الاعتداءات الصهيونية على المسجد الأقصى خلال العام الماضي، الذي قلتَ عنه: إنه سيكون عاماً حاسماً في تاريخ القدس؟

الشيخ رائد صلاح: دعني أولاً – حتى نبقى على وعي كامل في هذه القضية – أقول: إنَّ أخطر اعتداء لا يزال قائماً رابضاً بأذاه على المسجد الأقصى: هو استمرار الاحتلال الصهيوني، هذا أخطر اعتداء، فما دام هناك احتلال فإن الشر يقع يومياً في كل ثانية تمرُّ على القدس والمسجد الأقصى، ولكن من نتائج استمرار هذا الاحتلال مشاهد عدوانية غير مسبوقة وقعت في عام ٢٠١٠م، وأنا أقول: كانت أخطر بكثير مما توقعنا حدوثه؛ فعلى سبيل المثال: لأول مرة القضاء الصهيوني والمحاكم الصهيونية تُصدِر حكماً بكل صراحة يقول: يجب على قوات الأمن الإسرائيلية أن توفِّر الحماية لطوائف اليهود لدى دخولهم إلى المسجد الأقصى. هذا حدث في عام ٢٠١٠م، وفي ما قبل ذلك كان القضاء الإسرائيلي والمحاكم الإسرائيلية تصدر قرارات ضبابية غير واضحة. أما الآن أصبح على المكشوف إعلان الحرب – حتى باسم القضاء الإسرائيلي – على المسجد الأقصى.

الشيء الثاني: الفتاوى الدينية اليهودية التي أصبحت تصدر بزخم كبير جداً بجواز الدخول إلى حرم المسجد الأقصى والتجول فيه، في الوقت الذي كان كثير منهم في ما مضى يحرِّمون مبدأ الدخول على اليهود إلى المسجد الأقصى المبارك، وأنه لا يجوز لهم أن يدخلوا إلاَّ إذا قام الحلم الأسود الذين يطمعون به، وهو بناء هيكل أسطوري كاذب على حساب المسجد الأقصى المبارك.

الشيء الثالث: أن اقتحامات طوائف من اليهود للمسجد الأقصى المبارك، أصبحت علنية مكشوفة برعاية قوات الاحتلال الإسرائيلي، بالإضافة إلى أن هذه الطوائف بدأت تؤدي طقوساً دينية يهودية تلمودية داخل المسجد الأقصى. وأؤكد بكلمات واضحة مرة بعد مرة أن الطقوس الدينية اليهودية بدأت تؤدَّى داخل المسجد الأقصى.

كل ما قلته حدث في عام ٢٠١٠م، وحدث فيه ما هو أبعد من ذلك أيضاً؛ فقد بدأ الإعلان عن الأنفاق التي تُحفَر الآن، وقد كوَّنت شبكة أنفاق تحت المسجد الأقصى. في الماضي كان الاحتلال الإسرائيلي يعتم على مثل هذه الجرائم، أما الآن فقد بدأ يتحدث عنها على المكشوف، ويبثها في القنوات العبرية، ومن يتابع ذلك يعرف حقيقة ما أقول، وأصبح يتحدث على المكشوف عن نواياه الخبيثة السوداء عن قرب تلك المرحلة التي سيقوم فيها ببناء الهيكل الأسطوري المزعوم، وبدأ الاحتلال الإسرائيلي كذلك على ألسنة بعض مسؤوليه يوهم العالم أنَّ مبنى المسجد الأقصى على حافة الانهيار، بعضهم قال ذلك عن المصلى المرواني، وبعضهم قال ذلك عن كل المسجد الأقصى، وكأنهم يهيئون العالم إلى لحظة التي قد يقع فيها المسجد الأقصى وينهار.

أذكر ذلك مع ألمي الشديد وأسفي أن يقع على المسجد الأقصى وقد اختفى شيء اسمه الردع على صعيد الفلسطيني، أو الردع على الصعيد العربي والإسلامي؛ بمعنى أن الاحتلال الإسرائيلي بدأ يشعر أنه يتصرف في القدس والمسجد الأقصى المحتلَّين بلا أيِّ ردع (إعلامي، أو سياسي، أو دبلوماسي). إن فقدان الردع نهائياً مما يُجرِّئ الاحتلال الصهيوني يوماً بعد يوم على تصعيد اعتداءاته، وعلى التشعب بمئات الوسائل من أجل مواصلة هذا العدوان على القدس والمسجد الأقصى المحتلَّين.

البيان: إذا كنت تقرأ أحداث عام ٢٠١٠م بهذه الصعوبة بخصوص القدس والمسجد الأقصى، كيف سيكون برأيك عام ٢٠١١م الذي شهد في أيامه الأولى تصعيداً كبيراً جداً في الاعتداءات على القدس، ومنها عملية هدم بيت الحاج أمين الحسيني وقصر؟

الشيخ رائد صلاح: الذي يظنُّ أنَّ عملية هدم فندق شيبرد في القدس مما يمكن أن يندرج تحت هدم بيتٍ هنا أو هناك فهو مخطئ، وفي تصوري فإن عملية هدم بيت الحاج أمين الحسيني المعروف بفندق «شيبرد» هو بداية تنفيذ خطة هدم مدينة القدس؛ فالاحتلال الإسرائيلي الآن يهدم مدينة القدس بكل معنى الكلمة، يهدم كل

بصمة للتاريخ والحضارة الإسلامية العربية الفلسطينية، إنهم لحقدهم التاريخي على الحاج أمين الحسيني - رحمة الله عليه - لا يريدون أن يُبقُوا له أي أثر في مدينة القدس، وقبل سنوات هدموا مبنى المجلس الإسلامي الأعلى الواقع قرب مقبرة مأمن الله ولم يبق منه إلا حائط خارجي، أيضاً هذا من آثار الحاج أمين الحسيني، رحمة الله عليه. إنهم يهدمون فندق «شيبرد» بحجة كاذبة دنيئة قبيحة، وهي أنه بناء يقف حجر عثرة أمام بناء استيطاني يهودي... إنه عذر أقبح من ذنب، وادِّعاء قبيح كعادة الاحتلال الإسرائيلي؛ لذلك أقول بألم وحسرة مُرَّة جداً: إن الذي يجري اليوم هو هدم مدينة القدس، وبدايات تطهير على أرض الواقع في مدينة القدس، كنَّا نتحدث محذِّرين من التطهير العرقي. أما الآن فنتحدث محذِّرين من بدايات تطبيق التطهير العرقي في مدينة القدس المحتلة.

وأما حول مصير المسجد الأقصى، فواحسرتاه! نحن نقول: إنَّ كل الجنون (المركَّب والمعقَّد والشائك) الذي يعشِّش داخل الاحتلال الإسرائيلي بدأ ينفَّذ اليوم في المسجد الأقصى، هذا ما أسمعه أنا من تسريبات إعلامية عبرية، وما يسمعه غيري إنه لم يعد سراً، وأخشى ما أخشاه أن يكون عام ٢٠١١م هو عام الحرب الإقليمية في المنطقة، التي قد يختلط فيها الحابل بالنابل، وتسودها أجواء ضبابية لأشهر طويلة، وعندها قلبي على المسجد الأقصى، بكل معنى الكلمة.

البيان: ما هي تفاصيل المبادرة التي أطلقها الشيخ رائد صلاح لتحقيق المصالحة الفلسطينية؟ وهل سنشهد تحركاً من طرفكم بهذا الاتجاه خلال الأيام القادمة؟

الشيخ رائد صلاح: نعم بدأت لجنة المتابعة العليا في الداخل الفلسطيني (وهي أعلى هيئة في الداخل الفلسطيني) بخطوات أُولَى نحو الوصول إلى المصالحة الفلسطينية، أو على الأقل الوصول إلى تنسيق فلسطيني فلسطيني؛ لأنَّ هذا الانقسام قد أضعف من قوة الردع الفلسطيني، وأتاح للاحتلال أن يتصرف وكأنه لا يوجد ردع، لدرجة أن الواقع المرَّ الذي تعيشه القدس الآن يفرض عليها قطيعة ما بينها وبين قطاع غزة، وما بينها وبين الضفة الغربية، بل ما بين القدس وما بين المسيرة الفلسطينية بشكلها الرسمي والفصائلي تقريباً، وفي تصوري فإن الخروج من هذا المأزق سيكون - بإذن الله رب العالمين - في حال بدأ الحديث عن التفاهم الفلسطيني الفلسطيني، والتنسيق الفلسطيني الفلسطيني، ولتكن قضية القدس التي هي محل إجماع (إسلامي عربي فلسطيني)، باكورة ما يمكن أن نتفق أن نتعاون عليه، ابتداءً من قطاع غزة، إلى الضفة الغربية، إلى الشتات الفلسطيني في الخارج، على أمل أن يقود هذا التعاون على الثوابت للوصول إلى مرحلة مصالحة فلسطينية أيضاً على الثوابت الفلسطينية.

البيان: كنتم قد ذكرتم بعد خروجكم من السجن، تعليقاً على الوضع الإسلامي العربي الراهن: أن التغيير قادم بأسرع مما يتوقع كثيرون، هل ما حدث في تونس، جزء مما توقعتم؟

الشيخ رائد صلاح: أنا لا زلت أؤكد ما قلته قبل ما حدث في تونس، قلت جملتين، ولا زلت أرددهما؛ لأنني أعتزّ وأفتخر بأنني مسلم عربي فلسطيني، ومعنى هذا الاعتزاز والافتخار: أنني أعتزُّ بانتمائي إلى الأمة الإسلامية وإلى العالم العربي، وإلى شعبنا الفلسطيني، وأحبُّ هذا الانتماء، وأحبُّ له الخير، وأحبُّ الخير للجميع بدون استثناء، وأتمنى دائماً وأبداً أن نصل إلى مرحلة تتم فيها المصالحة؛ ليس فلسطينياً فقط، بل تتم المصالحة الإسلامية، ما بين الحكام والشعوب عربياً وإسلامياً، كم هو جميل أن نصل إلى هذه المرحلة من المصالحة؛ أن ينحاز الحكام على الصعيدين الإسلامي والعربي إلى آلام وآمال شعوبهم! كم هو جميل أن نصل إلى مرحلة يستمع الحكام ودوائر صنع القرار في العالم الإسلامي والعربي؛ على صعيد البرلمانات والحكومات إلى رؤية العلماء الربانيين الصادقين الذين لا يزالون على مدار تاريخنا وحاضرنا هم ملح الواقع الإسلامي، هم نبض الأمة، هم روحها، هم همَّتها! كم أتمنى أن يحدث ذلك! إنَّ أخشى ما أخشاه، - إذا لم يحدث هذا التغيير بمبادرة عاقلة وواعية راشدة من الحكام ودوائر صنع القرار - أن يتحرَّك الشارع الإسلامي والعربي، ولعل الأحداث الأخيرة أصبحت مشهداً وواقعاً يؤكد بشكل ملموس ما ذهبتُ إليه في السابق، وأقول باختصار: المستقبل القريب للواقع الإسلامي والعربي، وأتمناه أن يحدث بمبادرة القوى التي هي أصول قوَّته، وهم الحكام والحكومات من جهة، والعلماء من جهة ثانية، والشعوب من جهة ثالثة، أن تتمَّ بينها المصالحة، وإلاَّ أحذِّر إذا تأخر ذلك لا شك أن الشارع المسلم والعربي سيتحرك من ذاته.

إلى أين يتجه العرب؟

حدثٌ ربما يكون عابراً في مدينة (سيدي بوزيد)، لكنه لم يكن كذلك في هذه المرحلة، فقد اشتعلت المدينة كلُّها، ثم انتقل لهيبها إلى تونس كلِّها، وسط ذهول جميع المراقبين في الداخل والخارج، وما هي إلا أيام قلائلَ حتى عصفت بالمنطقة العربية تغيرات فاقت كلَّ التوقعات!

أيام قلائلُ في تاريخ العرب غيَّرت كثيراً من الموازين، وأعادت بناء كثير من المعادلات السياسية والاجتماعية، وأدخلت بعض شعوب المنطقة في صراع إرادات مع حكوماتهم. كان الفاعل الأقوى فيها أمرين:

الأول: الشباب الذين أثبتوا أنهم طاقة هائلة، ومخزون كبير قادر على إعادة كتابة التاريخ.

الثاني: الإعلام، فإذا كانت الصحافة الورقية تسمى بالسلطة الرابعة في ما مضى، فقد أثبت الإعلام الاجتماعي في الأحداث الأخيرة أنه السلطة الأولى.

أثارت هذه المشاهد المتسارعة موجةً متلاحقة من الأسئلة، وفتحت سلسلة من الملفات المغلقة، نحاول في مجلة البيان الإجابة عن بعضها، مع يقيننا أن تسارع الأحداث سيكشف مزيداً من الإجابات، والأيام حبلى بمشاهد جديدة لا يعلم أحد نهايتها إلا الله سبحانه.

مجلة البيان

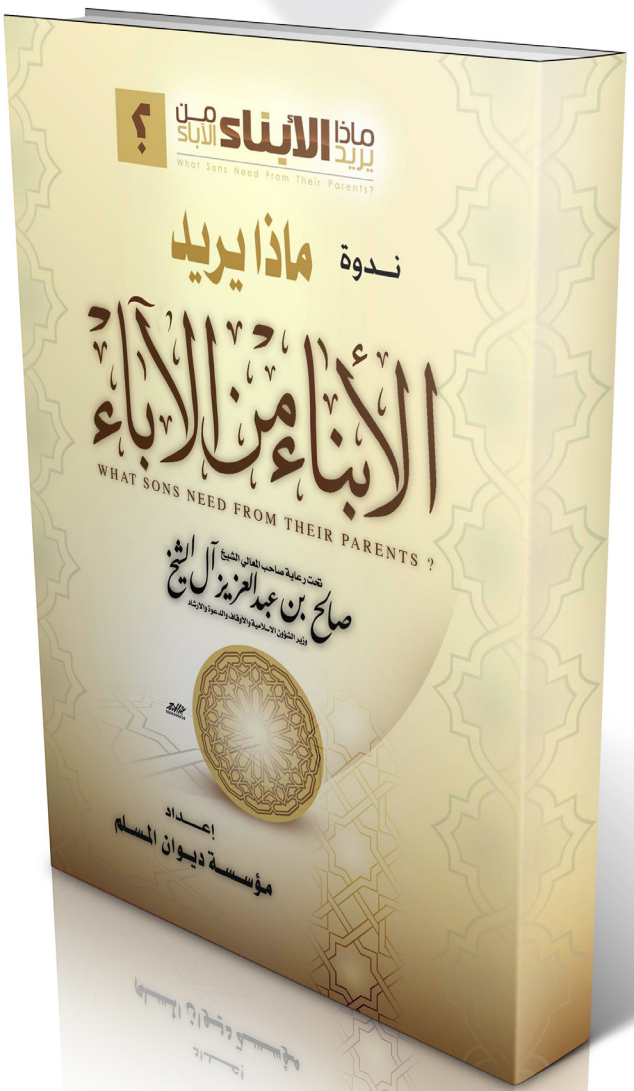

ماذا يريد الأبناء من الآباء

إعداد مؤسسة ديوان المسلم

المشرف العام

أ.د/ ناصر بن سليمان العمر

www.albayan.co.uk

العـــدل

قيمة إسلامية مُطْلَقة

محمد بن شـاكر الشـريف
alsharif@albayan.co.uk

العدل صفة من صفات الإنسانية المستقيمة، جاء في لسان العرب: العَدْل: ما قام في النفوس أنه مُسْتقيم، وهو ضِدُّ الجَوْر، وفي أَسماء الله - سبحانه -: العَدْل هو الذي لا يَميلُ به الهوى فيَجورَ في الحكم، والعَدْلُ من الناس: المَرْضِيُّ قولُه وحُكْمُه، ورَجُلٌ عَدْلٌ: رِضاً ومَقْنَعٌ في الشهادة.

ومن الألفاظ الدالة على العدل لفظ القسط؛ فمعناهما واحد، وضد العدل ونقيضه: الظلم والجور، والظُّلْمُ: وَضْع الشيء في غير موضعه، والظُّلْم: المَيْلُ عن القَصد.

العدل والتوحيد:

إن مما يدل عليه القيام بالعدل وترك الظلم: التسوية بين المتماثلات والتفرقة بين المختلفات، ولما كان الله - تعالى - لا مِثْل له ولا نِدَّ له ولا كفؤ له كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ فكان التفريق بين الخالق والمخلوق - وهو التوحيد - من العدل؛ لذا كان توحيد الله - تعالى - وإفراده بالعبادة أعلى مراتب العدل وأوضح صوره، وكانت المساواة بين الله - تعالى - وخلقه من أبين صور الظلم وأقبحه.

قال الله – سبحانه وتعالى – في ذم المشركين: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ١]، يثني الله – تعالى – على نفسه ويحمدها معجِّباً خلقَه المؤمنين من كَفَرة عباده؛ حيث يعدلون (يسوون) بربهم ما يعبدون من الأصنام والأوثان وهو الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور بما في ذلك من المنافع والحِكَم التي لا تحصى؛ لذا كان العدل اسماً من أسماء الله الحسنى، وكان الكفر بالله – تعالى – والشرك أقوى مراتب الظلم وأظهر صوره. قال الله – تعالى –: ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [**البقرة**: ٢٥٤]، وقال – تعالى –: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [**لقمان**: ١٣]، والعدل في النصوص الشرعية جاء على عدة أوجه من التصرف؛ فمنها النصوص الآمرة به أو المبينة لفضله، ومنها النصوص الزاجرة عن ضده أو المبينة لقبحه. قال – تعالى –: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [**الحديد**: ٢٥] فأرسل الله رسله بالبينات المفصَّلات الواضحات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليعمل الناس بينهم بالعدل؛ فكان العمل بالعدل من الثمار المرجوة من بعثة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – على امتداد التاريخ؛ إذ لا تصلح الحياة ولا تستقيم إلا بالعدل؛ «فعن عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: والله! لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض»[1]، وقال ابن تيمية: «... وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وقد قال النبي ﷺ: «ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم»؛ فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة؛ وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»[2].

والعدل كما يتناول التوحيد فإنه يتعدى ذلك ليشمل السلوك الإنساني كله: في الفكر والتصورات، وفي القول والعمل، مع الذكر والأنثى، والكبير والصغير، والقريب والبعيد، والموافق والمخالف، والصديق والعدو، والغني والفقير؛ فالعدل قيمة مطلقة لا يدخلها تقييد، وقد دلت النصوص الشرعية على ذلك كله.

العدل مع الأولاد: أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن الشعبي: (حدثني النعمان بن بشير أن أمه بنت رواحة، سألت أباه بعض الموهبة من ماله لابنها، فالتوى بها سنة ثم بدا له، فقالت: لا أرضى حتى تُشهِد رسول الله ﷺ على ما وهبت لابني، فأخذ أبي بيدي – وأنا يومئذٍ غلام – فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إن أم هذا بنت رواحة أعجبها أن أشهدك على الذي وهبت لابنها، فقال رسول الله ﷺ: «يا بشير ألك ولد سوى هذا؟» قال: نعم. فقال: «أكلهم وهبت له مثل هذا؟» قال: لا. قال: «فلا تشهدني إذاً؛ فإني لا أشهد على جور»)[3].

العدل مع الغني والفقير، والقريب والبعيد: قال الله – تعالى –: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا** ﴾ [**النساء**: ١٣٥]. قال ابن كثير في تفسيرها: «يأمر – تعالى – عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط؛ أي بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه... قوله: ﴿ **وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ** ﴾؛ أي: اشهد الحق ولو عاد ضررها عليك وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه؛ وإن كان مضرة عليك؛ فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه. وقوله: ﴿ **أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ﴾؛ أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك، فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدَّم على كل أحد. وقوله: ﴿ **إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا** ﴾؛ أي: لا ترعاه لغناه ولا تشفق عليه لفقره؛ الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما. وقوله: ﴿ **فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا** ﴾؛ أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس

(١) تفسير ابن كثير ط١ ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية: ٢/ ٣٨٣ – ٣٨٤، وأخرجه أحمد في المسند، رقم ١٤٩٥٣، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص٢٩، ط١ وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف.

(٣) أخرجه مسلم، رقم ١٦٣٢ بلفظه وأخرج البخاري نحوه.

إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال - تعالى -: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٨]»[١].

العدل مع الأعداء والأصدقاء: قال الله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]. قال ابن جرير الطبري: «وأما قوله: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ﴾ [المائدة: ٨] فإنه يقول: ولا يحملنكم عداوةُ قوم على ألا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة ﴿ اعْدِلُوا ﴾ أيها المؤمنون، على كل أحد من الناس وليّاً لكم كان أو عدوّاً، فاحملوهم على ما أمرتُكم أن تحملوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحد منهم عنه، وأما قوله: ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ فإنه يعني بقوله: ﴿ هُوَ ﴾ العدلُ عليهم أقرب لكم - أيها المؤمنون - إلى التقوى؛ يعني: إلى أن تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهل التقوى، وهم أهل الخوف والحذر من الله أن يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئاً من معاصيه»[٢].

العدل مع القوي والضعيف، والشريف والوضيع: سرقت امرأة قرشية من بني مخزوم فطلب أهلها من أسامة بن زيد(حب رسول الله ﷺ) أن يتوسط لهم عند رسول الله في ترك إقامة الحد عليها فأبى الرسول العظيم ذلك وقال قولته المشهورة التي تبيِّن إصرار الرسول ﷺ على إنفاذ الحدود على كل أحد بلا تفرقة بين شريف ووضيع أو قوي وضعيف على ما تبينه الرواية التالية؛ فعن عائشة - رضي الله عنها - «أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٣].

وقد أمر الله بالعدل في أكثر من موضع من كتابه الكريم فقال - تعالى - آمراً بالحكم بالعدل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]، وقد أثنى الرسول ﷺ على الحاكمين بالعدل فقال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم وما ولوا»[٤]. وقد بيَّن رسول الله ﷺ فضيلة الحاكم العادل فقال: «سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...» الحديث[٥]، وقال: «وإنما الإمام جُنَّة يقاتَل من ورائه ويُتقَى به؛ فإن أمر بتقوى الله وعدل، فإن له بذلك أجراً وإن قال بغيره فإن عليه منه»[٦].

وقال - تعالى - آمراً بقول الحق: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال آمراً بالعدل في الصلح بين الفئات المتقاتلة: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ﴾ [الحجرات: ٩]، وقال في كتابة الدين: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال في إملاء الدين: ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال آمراً رسوله ﷺ في ما يقوله في دعوته لأهل الكتاب: ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال آمراً بالعدل في كل شيء آمراً مطلقاً: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠].

وهكذا نجد العدل قد انتظم كل أحوال المسلمين: في سلوكهم وأنشطتهم، في أقوالهم وأفعالهم مع الخلق طراً.

وقد منع الله - تعالى - ما يقابل العدل ويناقضه وهو الظلم فقال في الحديث القدسي: «يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّماً، فلا تظالموا»[٧]، وقال الرسول الكريم ﷺ محذراً من الظلم: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[٨].

وقد أثبت التاريخ القديم والحديث أن غياب العدل وشيوع الظلم كان سبباً رئيساً في انهيار الحضارات، وسقوط أنظمة حُكِم دولٍ قويةٍ لم يكن يتصور أحد من الناس سقوطَها بسهولة في أيام معدودات، وفي هذه الأيام انهارت أنظمة حكم انهياراً تاماً ولم ينفعها ما تحصنت به من السلاح والرجال؛ وذلك لشيوع الظلم في جنباتها وغياب العدل فباءت بالخسران في الدنيا مع ما ينتظرهم من عقاب الله الجبار المنتقم في الآخرة.

---

(١) تفسير ابن كثير مرجع سابق: ٢/ ٣٨٣.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ط ١٤٢٠١هـ، مؤسسة الرسالة: ١٠/ ٩٥ - ٩٦.

(٣) أخرجه البخاري، رقم ٣٤٧٥، وأخرج مسلم بنحوه، رقم ١٦٨٨.

(٤) أخرجه أحمد في المسند برقم ٦٤٩٢، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٥) أخرجه البخاري، رقم ٦٨٠٦.

(٦) أخرجه البخاري، رقم ٢٩٥٧.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم ٢٥٧٧.

(٨) خرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٥٧٨.

مجلة

البيان

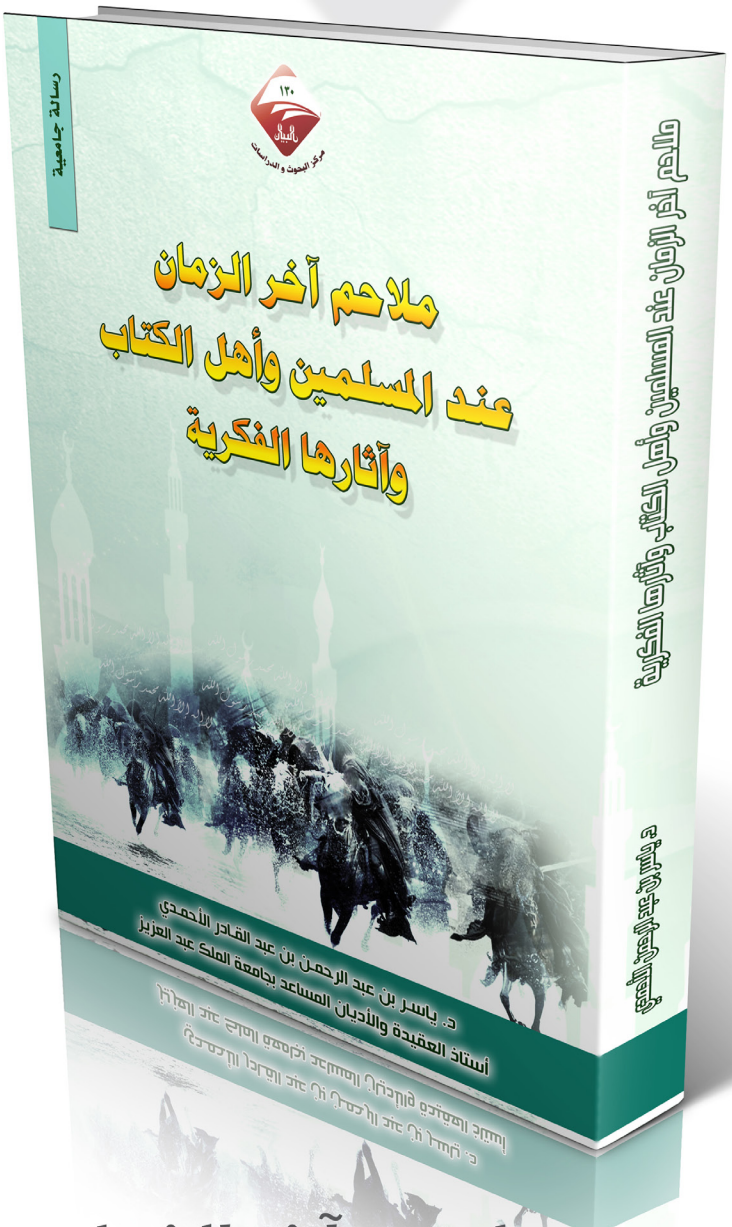

ملاحم آخر الزمان بين المسلمين وأهل الكتاب

د/ ياسر بن عبد الرحمن الأحمدي

www.albayan.co.uk

النظام التونسي والإسلام...
القصة الكاملة

حمَّاد القباج(*)

تونس بين كيد فرنسا وخيانة العملاء:

لما علمت فرنسا أنها ستغادر تونس لا محالة، وأن استعمارها إلى زوال، أدركت أن المرشحين لحكم تونس بعد انسحابها أحد رجلين: إما (فرحات حشاد)، وإما (بورقيبة). وكانت تعرف جيداً الفرق بينهما؛ حيث إن (حشاداً) كان معتزاً إلى حدٍّ ما بانتمائه الإسلامي، بينما عُرِف (بورقيبة) عندها بعداوته للإسلام وشريعته(١).

كما أن (فرحات) كان قريباً من هموم المواطن، مناضلاً من أجل عيشه الكريم. أما (بورقيبة) فكان يظهر الصورة نفسها لكنه كان مؤمناً بالتفوق الفرنسي إلى درجة الاستعداد التام لخدمة (الإيديولوجية) الفرنسية واستنساخ نمط الحياة الفرنسي ليقلده التونسيون حذو القُذَّة بالقُذَّة.

ومن هنا عملت فرنسا على قتل (حشاد) ووضعت مخططاً أوكلت تنفيذه إلى منظمة (اليد السوداء) الإرهابية.

وجرى اغتياله يوم ٥ ديسمبر سنة ١٩٥٢م في كمين وهو في طريق أحد أسفاره.

وبهذا مكَّنت فرنسا لبورقيبة، وأعطت تونس استقلالها الصوري يوم ٢٠ مارس ١٩٥٦م مطمئنَّة إلى أنها ستبقى تابعة لها (ثقافياً، واقتصادياً، وسياسياً) بما يحقق مصالحها؛ وعلى رأسها وضع حدٍّ للمد الإسلامي.

وهكذا عمل (بورقيبة) وبعده (بن علي) طيلة ٥٤ سنة (من يناير ١٩٥٣م إلى يناير ٢٠١١م) على مسخ الهوية الإسلامية العربية التونسية، وصهرها بنيران نظام عَلماني مستبد.

الاحتكار السياسي:

أسس (بورقيبة) حزب (الدستور الجديد) سنة ١٩٣٤م، مستعيناً ببقايا الحزب (الاشتراكي الدستوري). ومن خلاله بسط – بدعم من المستعمر – هيمنته الكاملة على الحكم، وخنق أو دجَّن كل الأصوات السياسية والنقابية والحقوقية، وقد وُصِف بأنه كان مولعاً بحب السلطة والحكم، ويرى العظمة في الاستبداد وبطر الحق وغمط الناس. فلما انقلب عليه نائبه بن علي الذي وعد بإطلاق (الحريات) وبَعْث (الديمقراطية)، لكنه أخلف الوعد، وواصل منهجية الحزب الوحيد المستبد لتنفيذ أجندة مرسومة؛ فأسس حزب (التجمع الدستوري الديمقراطي) سنة ١٩٨٨م بعد خمسة أشهر من قيامه بالانقلاب الطبي على الرئيس المريض بورقيبة، وسيطر بدوره على المجال السياسي بكل أنواعه وألوانه.

وقد ركز (الرئيسان) بشكل خاص على إقصاء (الحركة الإسلامية) التي أعلنت عام ١٩٨١م قيام

(*) المشرف العام على موقع: (منزلة المرأة في الإسلام).

(١) كان في أول الأمر يُظهِر المنافحة عن الإسلام مراعاة لمشاعر الناس، واتقاء محاربتهم لمشروعه، كما فعل (أتاتورك).

حزب إســـلامي سمَّته (الاتجاه الإسلامي)، وهو الذي رفضت سلطات (بورقيبة) الترخيص له، ثم دشنت حملة مكثفة ضده بتهمة العمالة لإيران.

وعندما اســـتولى (بن علي) على السلطة يوم (٧) نوفمبر عام ١٩٨٧م رحبت به (الحركة الإســـلامية)، وأصدرت بياناً بذلك في اليوم نفســـه، وقبلت بقانون (الأحوال الشـــخصية) الذي شرعه (بورقيبة)، والذي عارض أحكاماً شرعية قطعية؛ بل شاركت في بلورة ما سمي (الميثاق الوطني) الذي يجعل من ذلك القانون أحد أُســـس الجمهورية التونســـية، وقد منحتها وزارة الداخلية في فبراير ١٩٨٩م وصلاً مؤقتاً للعمل.

إلا أنه سرعان ما انقلب عليهم النظام وأعلن (بن علي) في خطابـــه يوم ٧ نوفمبر ١٩٨٩م عن رفضـــه القاطع لقيام حزب إسلامي، ولم تُجْدِ محاولات الحزب في بيانِ أنه حزب سياسي وليس إسلامياً، وأنه يؤيد الحريات والديمقراطية... إلـخ.

لـــم يكن موقف النظـــام العَلماني من الجناح السياســـي للحركة الإســـلامية مجرد موقف يحمي هيمنته على الحكم، ويريد إقصاء المنافس السياســـي الذي قد يستقطب خطابُه شـــرائح واســـعة من الشـــعب؛ بل كان هذا الموقف جزءاً من مشـــروع كامل لمحاصرة الإسلام واســـتبعاد أي دور يمكن أن يقوم به في توجيه الحياة العامة.

الحرب على الإسلام:

لقد وضع (بورقيبة) سياســـة شبيهة بسياسية (أتاتورك) في تركيا، وقـــاد حملة إعلامية وقانونية لترســـيخ العَلمانية المتطرفة وتغييب الشريعة ومظاهر الإسلام.

وهكذا (كان أول قرارات دولة (الاستقلال): الإقدامُ على ارتكاب ما لم تجرؤ عليه فرنسا نفسها: من غلق جامع الزيتونة الشـــهير، ومصادرة القضاء الشـــرعي، وتأميم الأوقاف التي كانـــت تمثل ثلث الملكية في البـــلاد مخصصة لخدمة التعليم الإســـلامي والنفع العام، والتهجم على فريضة الصيام، وكذا الإجهاز على شـــرائع ثابتة في مجال الأسرة؛ كتحريم التبني ومشـــروعية التعدد، والوعد بإصدار قانون يسوي بين الذكور والإناث في الإرث بزعم حق أولياء الأمور أن يطوروا الأحكام بحسب تطور مفهوم العدل ونمط الحياة[1].

ولم تتوقف حملة بورقيبة على الإسلام وعقائده وشرائعه عند هذا الحـــد، بل بلغت جرأته إلى حد رمي القرآن الكريم بالتناقض والسخرية من الجنة والنار ومن شعيرة الحج، أثناء محاضراته التي كان يلقيها علـــى الطلبة حول تاريخ كفاحه، وكانت تُنقَل على الهواء مباشرة[2].

كما سخر من شـــخص النبي الكريم ﷺ، ووصف شعيرة الجمعة بأنها تؤخر عجلة الاقتصاد.

وقد ســـجل التاريـــخ (خطبته على المـــلأ محرضاً على الســـفور، التي دعا فيهـــا متحجبةً إلى المنصـــة ومزق أمام الحاضريـــن حجابها، فضجـــت القاعة بالتصفيـــق، وبذلك انتهى أمر الحجاب حتى ظهر مجدداً في بداية الســـبعينيات؛ فاســـتأنف بورقيبة الحرب عليه؛ حيـــث أصدر القانون (رقم ١٠٨) يحظر فيـــه ارتداء الحجاب في المدارس وفي ســـائر المؤسسات الرسمية.

وكان تطبيقه يشـــتد أحياناً ويتراخى أحياناً أخرى، فلما تولى الأمر (بن علي) جرى تطبيقه بشكل حديدي حتى لُوحق داخل البيوت ذاتها ومُنعَت المتحجبات من دخول المستشفيات للعـــلاج ووضع الحمل، وحظـــر حتى على ســـيارات الأجرة حملهن).

وســـخَّر النظام الســـلطات للتضييق على المواظبين على صلاة الجماعة؛ إلى درجةِ جَعْل هذه المواظبة ســـبباً لاعتقال صاحبها والتحقيق معه وربما ســـجنه، ووصل التضييق على الناس في أمور دينهم إلى درجة منع الرجال من إعفاء اللحى إلا برخصة تُمنَح بموجبها (بطاقة اللحية).

وهمُّوا بفـــرض بطاقة أخرى للمصلي يطلبها المواطن من مركز الأمن، قد تُمنَح له بعد بحث طويل في شخصه، ولا يحق دخول المسجد والصلاة فيه إلا لحامل هذه البطاقة.

أمـــا الحرب على الحجاب في عهد (بن علي) فبلغت إلى درجـــة مطاردة الدمية (فلَّة) ومصادرتها من الأســـواق؛ لأنها تلبس لباساً ساتراً.

وقد أكدت (الهيئة العالمية لنصرة الإسلام في تونس) في بيانها الصادر في شوال (١٤٢٧م) على أن الحكومة التونسية تنتهج سياســـة تتنكـــر (لعادات النـــاس وتقاليدهم وثقافتهم ودينهم؛ وذلك من خلال تشـــجيعها على كل مظاهر التغريب والتبعيـــة في الأنمـــاط المعيشـــية والمســـالك الحياتية للنـــاس؛ تفرضها مكراً بالليل والنهار. ولم تدخـــر تلك الســـلطة جهداً في الحـــرب ضـــد كـــل ما يشـــد التونســـيين إلـــى هـــويتهم بذريعة مقاومـــة التخلف والانحطاط واللحـــاق بركب الأمم المتقدمة).

(١) تونس، الإسلام الجريح، ص٤٩.

(٢) جريدة الصباح التونسية، ٢١ مارس ١٩٧٤م.

العلماء والنهي عن المنكر:

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العلاَّمة ابن باز وعدداً من العلماء أصدروا فتاوى في ردَّة (بورقيبة) لتبنِّيه افتراءات المستشرقين الحاقدين على الإسلام وكتابه ونبيه ﷺ، هذا الرسول الذي شهد بعظمته المستشرقون المنصفون، والعلماء والقادة المتجردون، وأكدوا نُبْل رسالته وأثره الإصلاحي منقطع النظير على العالم.

فقد زعم (بورقيبة) أنه ﷺ إنسان بسيط يسافر كثيراً في الصحراء ويستمع للخرافات السائدة التي نقلها إلى القرآن، وهو افتراء قديم زعمه المشركون وكرره المستشرقون، وأشاعه في الأمة المستغربون من أمثال (طه حسين). قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال - سبحانه -: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقد ألَّف الشيخ ابن باز - رحمه الله - رسالة في دحض شبهات الرجل، وتأكيد دعوته إلى التوبة النصوح وإعلانها بطرق الإعلان الرسمية، وتأكيد الاعتقاد الإسلامي الصحيح.

وقد طُبعَت الرسالة ونُشِرَت وجرى توزيع عشرات آلاف النسخ منها على الحجاج مجاناً لتوعية المسلمين بخطر التطاول على حرمات الإسلام وتحصين الأمة من هذه الضلالات وردع أصحابها. كما نصح الشيخ ابن باز خلفه (بن علي)، لكن الأمر كان على حد قول الشاعر:

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حياً
ولكن لا حياةَ لمن تنادي
ولو ناراً نفختَ بها أضاءتْ
ولكن أنتَ تنفخُ في رمادِ

فقد زين له شيطانه غمط العلماء، والولاء للغرب الذي دعمه وأغراه، وأغرقه في بحر شهوة المال والسلطة. قال الله - تعالى - عن أحد جبابرة العالم: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾.

[القصص: ٧٦ - ٨١]

نفاق (رعاة حقوق الإنسان) وانكشاف المؤامرة:

إن سياسة العداء للإسلام التي انتهجها (النظام التونسي) طيلة نصف قرن؛ تفسر لنا لماذا سكت رعاة حقوق الإنسان ودعاة المواثيق الدولية من الساسة الغربيين عن مصادرة هذا النظام لحقوق المواطن (السياسية، والاقتصادية، والثقافية) بشكل لا نظير له، بل منحوه مركزاً متقدماً على مستوى حقوق الإنسان، ووصفوا إنجازه المزعوم بالمعجزة الأمنية والاقتصادية، وفي المقابل تدخلوا بقوة في شؤون السودان وغيره من الدول التي تستعصي بشكل أو بآخر على تطبيق الأجندة المفروضة. والخطة المرسومة لاستعباد الشعوب وتجريدها من هويتها وكرامتها باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان.

وانظر كيف دعموا (بل خططوا) لفصل جنوب السودان وأشرفوا على ذلك إشرافاً مباشراً بزعم أنه مهمَّش، في الوقت الذي كتموا تهميش النظام التونسي لجنوب تونس على حساب الشمال الذي جعله منتجعاً يتنعم فيه السياح وأثرياء البلاد.

وهكذا فإن الغرب المعادي للإسلام يدعم النموذج التونسي في كافة الدول الإسلامية، وينقص دعمه بقدر تقصير الدولة في تطبيق تلك القناعات. فلما أحرق البوعزيزي نفسه - غفر الله له - فضح نفاقَ النظام وحماته، وكشف حقيقة المعجزة الاقتصادية، وأنها مجرد صورة يروجها الإعلام الغربي الحكومي دعماً لنظام يخدم مصالحه.

وقد التزم الساسة الغربيون الصمت في أحداث (سيدي بوزيد) ظنّاً منهم أن القمع سيئد الثورة في مهدها كما اعتادوا على ذلك، فلما رأوا أن عصا الجوع أطول من عصا القمع، ورأوا أن الخرق يتسع وعدد الضحايا يرتفع، أشهروا وجه النفاق مرة أخرى؛ وجعلوا يلمِّحون بإنكار الأوضاع في تونس ودعوة الحكومة إلى مزيد من المرونة في التعامل مع الأحداث، ريثما يتم حبك فصول مسرحية تحتوي الوضع دون خسائر إستراتيجية.

لقد علل أحد الحقوقيين الفرنسيين تخاذل الحكومات

الغربيـــة عن إنكار القمع الوحشـــي الذي مارســـه النظام ضد انتفاضة الشـــعب التونسي قائلاً: (إن تونس قطعت شوطاً كبيراً في محاربـــة التطرف وتمتيع المـــرأة بحقوقهـــا والانفتاح على الغـــرب). وأكدت ذلك رشـــيدة داتي وزيرة العدل الســـابقة في حكومة (ساركوزي) بقولها: (بن علي حمى أوروبا من التطرف).

وقد استمر الدعم الفرنسي لهذا التوجه المستبد إلى آخر لحظة؛ حيث كشـــفت يومية (لوموند) الفرنســـية في موقعها يوم الإثنين ١٢ صفر ١٤٣٢هـ/ ١٧ يناير ٢٠١١م أن الحكومة الفرنســـية حاولت تفادي سقوط النظام التونسي، وقدمت له الدعم (اللوجســـتيكي) لقمع ثورة الشعب[١]، وهو الدعم الذي عرضته وزيرة الخارجية (إليوت ماري).

وبمجرد أن تأكد ســـقوط النظام الذي خدم فرنسا أكثر من نصف قرن؛ تنكرت له كأنها لا تعرفه، وكانت هي أول من رفض استقبال زعيمه، وإظهار استنكار سياسته ونهب أسرته ومقربيه لثروات البلاد، وطالبت بتجميد أرصدته، ودعت ابنته للخروج من فرنســـا. وســـرعان ما حاولت التخندق في صف الشعب اتقاء أن يثور على ولائه لثقافتها ومبادئها ومصالحها الاقتصادية كما ثار على عميلها الوفي.

التـلازم بـين الضيـق الاقتصـادي والتضييـق على الشريعة والتدين:

لعل من نافلة القول أن نذكر هنا أن الشـــريعة الإسلامية تضمن للمجتمـــع الذي يطبقها عدالـــة اجتماعية، وازدهاراً اقتصادياً يضمنـــان حقوق الناس ويحققـــان مصالحهم في المعـــاش والمعاد. ومن هنـــا فإن إقصاءها يمثـــل جناية على المســـلمين، ويجعل حقوقهم في مهب رياح الاقتصاد المُسَيَّس والأطماع الشخصية للحكام الذين لا تهمهم مصـــالح شعوبهم بقدر ما يهمهم توســـيع ثرواتهم وإشـــباع نهمهم البشع للمال وحياة البذخ والترف.

والحقيقة أن الحاكم التونســـي الفارَّ أخذ من هذا الحال أوفر الحظ وأعظم النصيب، وكان حاله مع شعبه كحال ذلك الحاكم الأســـطوري الذي كان يـــأكل الكعب (نوع من الحلوى الجيدة) بعد إزالة القشر المكون من الدقيق، ويكتفي بأكل اللب الذي هو عبارة عن خليط مسحوق (اللوز)، فلما اشتكى شعبه من المجاعة؛ قال لوزرائه: قولوا لهم: يأكلوا (الكعب) بقشـــره، مع أنهم لا يعرفون منه لُبّاً ولا قشراً.

وقد صرح (بن علي) نفسه في خطابه الأخير بأن بطانته كانت تخفي عنه حالة الشعب؛ وهو اعتذار أقبح من الزلة.

أما الحكّام المقســـطون فيعتبرون مصالح شـــعوبهم الدينية والدنيويـــة أمانة عظمى وواجباً كبيراً. قال ابن ســـعد: (أخبرنا عبيد الله بن موسى قال أخبرنا هشام بن عروة - قال عبيد الله أظنه عن أبيه - قال: لمـــا ولي أبو بكر خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس! قد وليت أمركم ولســـت بخيركم، ولكن نزل القرآن وســـن النبي ﷺ السنن... اعلموا أن أكيـــس الكيس التقوى، وأن أحمق الحمـــق الفجور، وأن أقواكم عنـــدي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق. أيها الناس! إنما أنا متَّبع ولســـت بمبتدعٍ؛ فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني) اهـ[٢].

إن الدين عند المســـلمين يمثل عاملاً أساســـياً من عوامل الاســـتقرار وحفظ التـــوازن، والدين يبعث في الإنســـان روح الأمـــل ويجعله قادراً علـــى تحمُّل صعاب الحيـــاة وتجاوزها. والذي ينصب نفســـه حاكماً على المسلمين يتعين عليه أن يوفر حاجياتهم المادية من خلال نظام اقتصادي متوازن وعادل، كما يتعين عليـــه أن يوفر حاجياتهم المعنوية وعلى رأســـها التوازن الروحي الذي يوفره الدين دون غيره، فإذا حصل التقصير في أحدهما فهو ضرر بليغ يلحق بالناس، فإذا حصل التقصير في الأمرين فهي طامة كبرى ستؤدي لا محالة إلى ما شاهدناه في تونس ومصر وليبيا.

فسياسة التجهيل الديني، والتضييق على التدين، وغياب الثقافـــة الدينية هي - فـــي الحقيقة - التي حملت مئات من الناس على الانتحار منذ مطلع الثمانينيات.

لقـــد صدق (بن علي) حين وصف المنتحرين بالهشاشـــة النفسية، لكنه نسي أن نظامه العَلماني المتطرف هو الذي أدى بهم إلى ذلك الحال.

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

---

(١) انظر عن الثورة (مفهوماً وحكماً) ملخصاً مفيداً في مقدمة الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان لكتاب (الإنجاد في أحكام الجهاد).

(٢) الطبقات الكبرى: ٣/ ١٨٢.

رسالة من تونس والجزائر ومصر:

تهميش المواطن... معركة خاسرة ولو بعد حين

السنوسي محمد السنوسي(*)

Elsenosey_writer@yahoo.com

إن المظاهرات والاحتجاجات التي بدأت في تونس وامتدت إلى الجزائر، ثم إلى مصر أخذت في البداية طابعاً احتجاجيّاً على الأوضاع المعيشية وارتفاع الأسعار، ثم تطورت إلى المطالب السياسية... وهي تطرح كثيراً من علامات الاستفهام حول طبيعة التحولات الاجتماعية التي تمر بها بعض الدول العربية، ومدى نجاح السياسات الاقتصادية المتبعة في تحقيق قدر مناسب من التوازن الاجتماعي، ومن ثَمَّ «الاستقرار» السياسي، أو بمعنى أدق: «النضج» السياسي. كما تطرح تساؤلات حول طريقة تعبير الشعوب العربية عن معاناتها وطموحاتها وكيفية تعاطي الأنظمة الحاكمة مع هذه أو تلك.

وكانت المظاهرات في تونس قد اندلعت في ١٩ ديسمبر الماضي بعد أن أشعل البائع المتجول محمد البوعزيزي النار في نفسه احتجاجاً على تعرُّضه للصفع والبصق على وجهه من قِبَل شُرطية تشاجر معها بعد أن منعته من بيع الخضروات والفواكه دون ترخيص من البلدية، وعجزه عن مقابلة أي مسؤول في بلدية ولاية سيدي بوزيد لإبلاغ شكواه.

ثم امتدت مظاهر الاحتجاج إلى ولايات أخرى حتى وصلت إلى العاصمة، وتطورت إلى إحراق بعض الممتلكات العامة ومصادمات عنيفة مع الشرطة التي استخدمت القنابل المسيلة للدموع والرصاص الحي، وهو ما أسفر عن وقوع عشرات القتلى والجرحى، ومغادرة الرئيس التونسي زين العابدين بن علي البلاد يوم ١٤ يناير ٢٠١١م بعد أربعة أسابيع تقريباً من اندلاع الثورة.

أما في الجزائر فقد تسبب ارتفاع الأسعار المفاجئ والكبير (بين ٢٠ –٣٠٪)، وزيادة الضرائب والرسوم على بعض السلع الغذائية الأساسية في تفجير موجة من الاحتجاجات و «أعمال شغب» حسب وصف بيانٍ حكومي لها.

ورغم أن الحكومة الجزائرية تراجعت عن الزيادة في بعض السلع وأعلنت أنها وافقت على تخفيض أسعار بعض السلع الضرورية بنسبة كبيرة، إلا أن الاحتجاجات أخذت في التصاعد، وانتشرت في عدد كبير من الولايات، وأسفرت عن

(*) باحث وصحفي.

مقتل وإصابة عشـــرات مـــن الناس، وما زالت أعـــداد القتلى والجرحى مرشحة للزيادة مع استمرار الاحتجاجات التي تأخذ منحنىً متعرجاً حتى الآن.

وفـــي مصر كانت الدعوة إلى إقامة تظاهرات في ٢٥ يناير الماضي هي الشـــرارة التي فجَّرت مخزوناً متراكماً من اختلال العدالة الاجتماعية والسياســـية؛ حيث يقبع أكثر من ٤٠ ٪ من الشـــعب المصري في مســـتوى خط الفقر وتحته، إضافة إلى مصادرة الحياة السياســـية لصالح الحزب الحاكم الذي لم يكن – حسبما يؤكد كثير من المراقبين – حزباً بالمعنى السياسي، بل كان «تجمُّعاً» لرجال المال والممسكين بمقاليد السلطة التنفيذية بشـــكل جعل ثروات البلاد نهباً مباحاً لهم. وفي الوقت الذي لا يتعدى فيه الدخل اليومي لشريحة كبيرة من المجتمع المصري دولارين أو ثلاثة، نجد آخرين تُقدَّر ثرواتهم – التي تحوم حولها الشبهات – بالملايين والمليارات.

وقد أدان النظامُ المصريُّ نفسَـــه قبـــل أن يتنحى الرئيس حســـني مبارك في ١١ فبراير، حين أحـــال أربعة من الوزراء إلـــى التحقيق بتهم الفســـاد، في محاولـــة لامتصاص غضب المتظاهريـــن، فضلاً عن هروب عدد كبيـــر من رجال الأعمال وبعض المسؤولين خارج مصر، وهو ما يؤكد فسادهم وخشيتهم من المحاكمة.

ورغـــم أن المتظاهريـــن لم يلجؤوا إلى العنـــف للتعبير عن مطالبهم، وكانوا يرفعون شـــعار: «سِـــلْمية... سِلْمية» إلا أن رد الشـــرطة وقوات الأمن كان عنيفاً؛ أســـقط أكثر من ٣٠٠ قتيل إضافة إلى ٣ آلاف جريح وآلاف المعتقلين.

السطور التالية تحاول أن تقف على مجموعة نقاط مع تلك الأحداث في ملامحها العامة، وما يمكن أن نقرأه فيها.

أمن المجتمع وأمن الأنظمة:

• لا بد أن نشـــير بداية إلى أن الأنظمـــة العربية بوجه عام كانت لفترة طويلة تعتبِر أن من أكثر ما يهدد أمنها واستقرارها: الجماعات الإســـلامية؛ التي اتخذت من العنف والقوة ســـبيلاً لتحقيـــق أهدافها، والوصول لســـدة الحكم، والتي انطلقت في ذلك من رفض النظم الحاكمة وتكفير المجتمعات؛ لأن الأنظمة – حسب رأيهم – تستمد حاكميتها وتشريعاتها من نُظُم جاهلية لا تمتُّ للإسلام بِصِلة، وتقف حجر عثرة أمام تحكيم الشريعة. كما أن المجتمعات تتواطأ بِصَمتها وسكوتها مع مشاريع التغريب والعلمنة، ولا تقوم بالدور المنـــوط بها في إنكار المنكر، ورفض التحاكـــم إلى القوانين الوضعية... إلـــى غير ذلك من المبررات التي تستند إليها تلك الجماعات.

وقد وضعت النظـــم الحاكمة مواجهة هذه الجماعات على رأس أولوياتهـــا، وجعلتها في مقدمـــة ما يحيط بها من أخطار داخلية وخارجية على الســـواء. فحشـــدت لمواجهتها كل ما في جعبتها من إمكانات: من قوانين اســـتثنائية، وتعبئة للرأي العام ضدهم، إلى الاعتقالات المفتوحة، والمحاكمات العسكرية... غير عابئـــة – في أكثر الأحوال – بكرامة الإنســـان، وحقه الطبيعي في المحاكمة العادلة، بغضِّ النظر عن حجم ما يُنسَـــب إليه من تُهَم وجرائم.

لكن التناقض أنه خلال الســـنوات الأخيـــرة، ومع انعدام عمليات العنف تقريباً (خاصة في مصر والجزائر، مع تحفظنا

على طريقة تعامل النظامين مع هذه الجماعات المسلحة)، فإن حجم الاحتجاجات والمظاهرات، بسبب الأوضاع المعيشية (لا السياسة) قد تضاعف بصورة تنبئ عن معاناة المواطن البسيط الذي ليس له في السياسة ناقة ولا جمل، وهذا يعني في ما يعني أن كثيراً من هذه الأنظمة لم تضع المواطن في أولوياتها بمثل ما عملت على تثبيت سيطرتها، وإزاحة القوى المعارضة أو تقليم أظافرها، ولم تكن لديها رؤية شاملة لمعالجة هموم المجتمع المتعددة؛ فانشغلت تلك الأنظمة بأمنها وتجاهلت أمن المجتمع، الأمر الذي أحدث خللاً اجتماعيّاً، وتردِّياً مروعاً في البُنَى التحتية، وتسبب في انعدام الحد الأدنى من الحياة الكريمة، وعمل على تفاقم الأزمات الاقتصادية لدرجة أن يكون إقدام مواطن على إحراق نفسه كافياً لإشعال الحرائق في طول البلاد وعرضها.

• إن هذا التردي الذي يلمسه المواطن في أداء قِطاعات كبيرة في تونس والجزائر ومصر وغيرها – كما تشير تقارير دولية تتصل بالشفافية ورصد الفساد – يوضح أن أزمة تلك النظم أصبحت تتسع شيئاً فشيئاً متجاوزة الصراع مع قوى المعارضة ومعها الجماعات الإسلامية إلى المواجهة مع المجتمع ذاته، وهذا يصب – كما يرى عدد من المراقبين – في دفع عجلة الإصلاح، وتسريع وتيرة التغيير؛ حيث تفقد هذه الأنظمة أهم مقومات الشرعية؛ بما أنها لم تستطع توفير حياة كريمة آمنة للمواطن.

ونحن نلاحظ في هذا الصدد أنه: إذا كانت الأنظمة العربية في معركتها مع ما يسمى الإرهاب، تلقى الدعم والتأييد من بعض شرائح المجتمع ومن الدول الغربية، فإنها الآن في مواجهتها مع المجتمع في موقف لا تُحسَد عليه؛ سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي.

• وأظن أننا لسنا بحاجة في هذا المقام إلى تأكيد أن (ألِف باء) الوطنية والانتماء تتطلب أن يشعر المواطن أن هناك من يهتم به، ويسهر على راحته، ويصون حياته وكرامته، ويحترم إرادته واختياره... وحينئذٍ تغدو العلاقة بين الوطن والمواطن متماسكة متمازجة، لا تحكمها المنفعة فقط، بل يحوطها العشق والهوى والحب والذوبان؛ لهذا ليس غريباً أن يجد العنف مرتعاً خصباً بدرجة أكبر بين أبناء الطبقات الفقيرة المهمَّشة، الذين يرون بأعينهم أن خيرات بلادهم باتت حكراً على شريحة معيَّنة، أما هم فليس لهم إلا الفُتَات القليل، وليتهم يجدونه!

• وهنا يثور تساؤل مهم: ألا يدل «نجاح» النظام الجزائري والمصري – مثلاً – في القضاء على المعارضة الإسلامية المسلحة (التي شكلت لهما امتحاناً عسيراً) وكذا سلوك نظيرهما التونسي مع المعارضة (وجَعْلها بين معتقل أو مطرود)، في مقابل «فشلهم» في تحقيق رفاهية المواطنين ومواجهة الأزمات الاقتصادية... ألا يدل على أن الأنظمة العربية تحصر مفهوم (الأمن) في أمن الأنظمة وحمايتها، وتتجاهل (الأمن الاجتماعي) الذي يقوم على تحقيق العدالة الاجتماعية وإطلاق الحريات العامة، وتتغافل عن أن الإضرار بهذا الأمن الاجتماعي أكثر خطورة مما تسميه: الإرهاب، على الدولة والمجتمع معاً؟

تشابه مذموم:

• تكشف طريقة تعامل النظام الحاكم – سواء في تونس أو الجزائر أو مصر – مع الاحتجاجات عن درجة من التشابه (أو التطابق) بين كثير من النظم الحاكمة العربية؛ حيث إنها تتعامل مع مجتمعاتها من منظور أمني لا سياسي، ومن منطق الاستعلاء وصوابية الموقف الحكومي دائماً. فقد صدرت تصريحات في هذه الدول تتهم أطرافاً داخلية وخارجية بإثارة تلك الاحتجاجات والمتاجرة بها وتشويه سمعة البلد، وهي الاتهامات نفسها التي تصدر في بلاد عربية أخرى في مواجهة المطالبات الداخلية بالإصلاح والتغيير.

ففي تونس اتهم ابن علي في البداية أطرافاً وصفها بـ «المأجورة» وبأنها تتلقى تعليمات من الخارج للعمل على إلحاق الضرر بتونس، وإثارة «أعمال الشغب». كما أدان البرلمان التونسي قناة «الجزيرة» بمحاولة «زعزعة استقرار» تونس و «بثِّ الفتنة»، وأنَّ تغطيتها الإعلامية تهدف إلى «تشويه سمعة تونس وبثِّ روح الحقد والبغضاء»، وأن للقناة «أهدافاً مغرضة تنطلق منها لصياغة

مؤآمراتها» التي تستهدف «حالة السلم المدني والاستقرار والتنمية في تونس» حسب البيان الصادر عن البرلمان.

وفي مصر – إضافة إلى اتهام المعارضة بالتبعية للخارج – جرى إغلاق مكتب «الجزيرة» في الأيام الأولى للثورة، ومصادرة التراخيص الممنوحة لفريق مكتبها، وجرى تخويف الصحفيين الأجانب والضغط عليهم، بل الاعتداء على بعضهم وتحطيم كاميراتهم، وبالفعل قامت بعض السفارات الأجنبية بترحيل صحفيين من رعاياها.

وهنا نلاحظ أيضاً أن اتهام الإعلام – خاصة قناة «الجزيرة» – يكاد يكون عنصراً مشتركاً بين معظم الدول العربية التي تسعى للتغطية على فشلها في التعامل مع أزماتها الداخلية، فتتهم الإعلام بالإثارة والتحريض والتهويل؛ بينما يجب أن نعترف بأن الواقع هو أبلغ من يتحدث عن نفسه، والإعلام لا ينقل إلا جزءاً يسيراً من هذا الواقع الأليم.

أما في الجزائر فقد حذَّر وزير الدولة عبد العزيز بلخادم «من الشعارات التي يرفعها المتظاهرون في الشوارع، والتي تطالب برحيل الرئيس بوتفليقة» مشيراً إلى أن «شيئاً مَّا يطبخ ضد الرئيس»[1].

• من ناحية أخرى فإن المصادمات التي وقعت بين المتظاهرين ورجال الشرطة في هذه البلاد الثلاثة ووصلت في بعض المناطق إلى حرق البنايات الحكومية، وما يشبه «حرب العصابات» على حد وصف بعض التقارير، وهو ما أوقع جرحى بين الطرفين... كل هذا يوضح أن المواطن العربي اكتسب درجة من «الخبرة» في تنظيم الإضرابات والاحتجاجات تصل أحياناً إلى حد «العنف»، وهذا أمر – مع خطورته – يراه المراقبون طبيعيّاً ومنطقيّاً؛ إذ كلما زادت القبضة الأمنية الضاغطة من النظام الحاكم، يلجأ المواطن إلى ابتكار وسائل في التعبير والتنفيس عن غضبه المكبوت دون الأخذ في الاعتبار إذا كانت طرق التعبير مشروعة أو غير مشروعة.

ومعالجة هذا الوضع تستدعي – ابتداءً – من الحكومات أن تفسح المجال واسعاً أمام القنوات الشرعية لإبداء الرأي والتعبير وتكوين الأحزاب وتفعيل النقابات ومنظمات المجتمعات المدني؛ حتى تُستوعَب طاقات الغضب تلك، وتتحول إلى تيار للبناء لا الهدم.

(١) لم أستطع فهم العلاقة بين اندلاع مظاهرات ضد الغلاء وبين وجود مؤامرة ضد الرئيس.

هروب من المسؤولية والمساءلة:

• إن الاتهام الموجه للمعارضة من قِبَل بعض المسؤولين باستغلال الأزمات الاقتصادية سياسيّاً يدل على خطأ واضح في تصور هؤلاء المسؤولين من زاويتين:

فهم يعلقون إخفاقهم على غيرهم ولا يريدون أن يعترفوا بفشل سياساتهم.

ثم هم يجهلون أو يتغافلون عن طبيعة العلاقة بين النظام الحاكم والمعارضة؛ إذ يفترضون ضمناً أن تجري التعمية على أخطائهم، وأن تقف المعارضة مكتوفة الأيدي ولا تتجاوب مع تطلعات المجتمع وما يحيط به.

وهذا يرجع بالأساس إلى أن النخب الحاكمة في معظم البلدان العربية لا تمارس عملها أصلاً على أرضية سياسية تؤمن بإمكانية الخضوع للمراقبة والمحاسبة والمساءلة، ومن ثَمَّ تداوُل السلطة، بل هي ترى نفسها فوق المساءلة والقانون. وتتصور ثباتها في مواقعها إلى الأبد؛ ولذلك نرى اتجاهاً عاماً في هذه البلدان – كما حاول بن علي قبل مغادرته – نحو حذف النص على تقييد المُدَد الرئاسية من الدستور. بل إلى توريث الحكم في نظام جمهوري كما كان سيحدث في مصر.

• ويبقى أن نشير إلى أن دولاً عربية أخرى بدأت مسيرتها في طريق الاحتجاجات بعد تونس ومصر اللتين يبدو أنهما ليستا إلا مجرد بداية؛ فمن الواضح أن المجتمعات العربية مقبلة على تحولات جذرية بعد عقود من الإخفاق في تحقيق أيٍّ من التطور السياسي أو العدالة الاجتماعية، خاصة بعدما ثبت باليقين أنهما (أي: الحرية والعدالة الاجتماعية) أمران مترابطان غير قابلين للانفصال؛ لأنهما وجهان لعملة واحدة.. وليس أمام الأنظمة العربية إلا أن تقوم بخطوات إصلاحية استباقية، لا أقول لتقطع الطريق على الاحتجاجات؛ بل لتأخذ بزمام المبادرة نحو تحقيق المطالب المشروعة لشعوبها التي قبعت ردحاً طويلاً من الزمن تحت القهر والكبت والحرمان.

• إن الأنظمة الديكتاتورية قد تكسب «المعركة» ضد المعارضة، لكنها بتأكيد ستخسرها أمام المواطن، ولو بعد حين.

الإعلام الاجتماعي إعلام التغيير

باسل النيرب
basilnerab@gmail.com

إن ما يجري بكل بساطة هو أن مجموعة من الشباب الجامعي ممن يجيدون لغة الاتصال في مختلف وسائل الإعلام الجديد، أوقد شعلتهم محمد البوعزيزي، وفي تكتلهم تجاوزوا لغة الخطاب السياسي لأحزاب المعارضة، وقفزوا برغبات الجماهير إلى مرحلة الثورة؛ من خلال التعبير الشامل عن مشاغلهم في مختلف وسائل الإعلام لطرح مطالب اجتماعية وسياسية واقتصادية، وشكلت هذه الحركة وضعاً جديداً في المنطقة العربية تتشابه أحداثه مع أحدث عام ١٩٨٩م وما جرى في المعسكر الاشتراكي.

أصبح للإعلام اليوم دور أساسي في نهوض الأمم وتقدُّم الشعوب نحو تحقيق أهدافها، ووصل الأمر بالإعلام الحديث إلى مستوى أصبح هو الفاعل والمؤثر الأقوى في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية على وجه العموم، وأوجد معياراً أخلاقياً عالي المستوى، يدخل بشكل مباشر في المبادئ الإنسانية ويشّكل سلطة معرفية وأخلاقية.

وقد نبه الرئيس الأمريكي جيرالد فورد في سبعينات القرن الماضي إلى النفوذ المتزايد لتأثير هذه الوسيلة الإعلامية الجديدة في الحياة السياسية، فقال في وصف التلفزيون: (إن التلفزيون هو الآلة الجديدة التي يتم بواسطتها عملية إقناع الشعب الأمريكي)، فلا يمكن تجاهل التأثير الاجتماعي لوسائل الإعلام على اختلافها، فالإعلام الحر ليس غاية وحسب؛ ولكن وسيلة لتحقيق التحول الاجتماعي.

إن قدرة الإعلام الاجتماعي على الوصول إلى دائرة التأثير والتغيير دفعت بشمعون بيريز في افتتاح مؤتمر هرتزليا للأمن القومي للتنويه بهذا الدور في ثورتي تونس ومصر.

الإعلام التونسي بداية التغيير:

يدرك أهل تونس أن العالم الافتراضي لشبكة الإنترنت هو مَن صنع ثورة (الياسمين)؛ حيث ساهم الحشد الجماهيري على موقع (فيس بوك) بتجاوز خطاب أحزاب المعارضة وقفز بالحركات الشعبية إلى مرحلة متقدمة من التخطيط أنضجت ثورة الياسمين.

ففي تونس يوجد أكثر من مليون مستخدم لموقع (فيس بوك)، وفي الحالة التونسية شهد موقع (فيس بوك) تحولاً في وظيفته من موقع للتواصل الاجتماعي إلى سلطة خامسة بعد انسداد الفضاءات الواقعية، كما لعب دوراً مهمّاً في فك الحصار

عن الثورة التونسية عندما كانت في بداياتها.

إنه وعلى امتداد السنوات العشر الأخيرة، لم تكن المعلومة متيسِّرة للتونسيين سوى عبر موقع نشرية تونس نيوز www.tunisnews.net، وكذلك موقع نواة nawaat.org، ثم أتى بعدهما موقع (فيس بوك) الذي استفاد من عملية الحجب الحكومي التي شملته عام ٢٠٠٧م ثم القرار الرئاسي آنذاك بإعادة فتحه، وهو ما زاد من شعبيته تونسياً.

وبالنسبة لموقع تويتر ففي يوم سقوط النظام شارك أكثر من ٥٠ ألف شخص في الكتابة عن تونس عبر «تويتر»، وسُجِّل في الموقع نحو مليون مشاركة في الأيام التي تلت الأحداث.

ومن المدونات النشيطة مدونة فاطمة أربيكا freearabicca.wordpress.com، التي أُوقفت بسبب التعليقات المنتقدة للحكومة، وأحدث إيقافها صدىً كبيراً في الأوساط الإعلامية وعبر موقع (فيس بوك)، وهو ما أدى إلى تراجع السلطة والإفراج عنها. ومدونة الكاريكاتوري (Z.)، الذي ساهم في انتقاد رموز السلطة برسوم كاريكاتورية شجعت الشباب على المساهمة في موجة الانتقادات، كذلك صفحة «الشعب يحرق في روحو يا سيدي الرئيس»، وهي صفحة نشر أخبار الانتفاضة، وغيرها من المدونات.

مصر الانتصار الافتراضي:

يوجد في مصر ما يقرب من ١٦ مليون مستخدم للإنترنت، ومنذ ٢٥ يناير، تحوَّل المدوِّنون المصريون إلى مصدر للمعلومات، وخاصة بعد التعتيم المفروض على وسائل الإعلام؛ حيث تمتلئ صفحات الإنترنت بمداخلات يومية لناشطين إلكترونيِّين، وأفلام فيديو حول السيارات التي تدعس المحتشدين بوحشية وحالات القتل من قِبَل رجال الأمن والاعتقالات، وموقف المحتجين في الشارع من التطورات السياسية المتلاحقة... وغيرها من الأخبار.

ومن المدونات النشيطة صوت ثورة tahyyes.blogspot.com التي كتبت: «... لقد سمعتهم بأذني يتحدَّثون عن المبلغ الذي تقاضوه للاعتداء على المتظاهرين». ومدونة حسام حملاوي www.arabawy.org الذي يتابع التطورات وينقلها فوراً على موقعه، وعلى صفحته على «فيس بوك» و «تويتر». كذلك وائل عباس misrdigital.blogspirit.com الذي سلَّط الضوء على عمليات التعذيب التي تمارسها أجهزة الأمن ضدَّ الموقوفين في السجون المصرية. وكان أسرع في نقل الأحداث من «تويتر».

الإعلام الاجتماعي المؤثر:

إن الاستعانة بوسائل الإعلام الاجتماعية في التعبير عن الاحتجاجات ودعوة الجماهير إلى المطالبة بحقوقهم وإسقاط حكومات يعود تاريخه إلى ١٧ (يناير) ٢٠٠١م، لدى بحث قضية تنحية الرئيس الفلبيني جوزيف إسترادا؛ حيث صوَّت الموالون له في الكونغرس الفلبيني لصالح تجاهل أدلة ضده، وفي أقل من ساعتين وزعت رسائل نصية تقول: «اذهب إلى «إسدا»[1]. ارتدِ الأسود»، وقد جرى إرسال سبعة ملايين رسالة نصية، وبحلول ٢٠ (يناير) نحِّي إسترادا عن الحكم، وشكلت تلك الحادثة أول سابقة تتمكن فيها وسائل الإعلام الاجتماعي من المساعدة على إجبار زعيم دولة على ترك الحكم، وألقى إسترادا نفسُه اللومَ على الرسائل النصية.

وفي إسبانيا عام ٢٠٠٤م، أفضت المظاهرات التي نُظِّمت بواسطة الرسائل النصية إلى إسقاط رئيس الوزراء الإسباني خوسيه ماريا أزنار، ونُظِّمَت احتجاجات ضد قوانين التعليم في تشيلي في عام ٢٠٠٦م، واحتجاجات اللحم المعلب في كوريا الجنوبية في عام ٢٠٠٨م، وفقد الحزب الشيوعي السلطة في مولدوفا في عام ٢٠٠٩م عندما انفجرت المظاهرات بعد انتخابات مزورة بشكل واضح، واستُخدمَت وسائل الإعلام الجديد في كثير من حركات الاحتجاج بما فيها ضد الحراس السيخ في الهند في عام ٢٠٠٩م، وخلال انتفاضة «الحركة الخضراء» في إيران في (يوليو) ٢٠٠٩م استخدم الناشطون كل وسيلة تنسيق تقنية ممكنة من أجل الاحتجاج على إساءة إحصاء الأصوات التي أيدت حسين موسوي، لكنه جرى إجبارهم على الركوع في النهاية بسبب القمع العنيف، وفي تايلند اتبعت حركة «القميص الأحمر» في عام ٢٠١٠م مساراً مشابهاً؛ حيث سيطر المحتجون على وسط مدينة بانكوك وفرقت الحكومة التايلندية المتظاهرين وقتلت عشرات منهم.

إن تنظيم الاحتجاجات بواسطة الرسائل النصية والـ «فيس بوك» و «التويتر»، وغيرها من مواقع التواصل الاجتماعي يأتي خطوة من المشاركين من أجل إحداث التغيير الاجتماعي من خلال نشاطات قليلة الكلفة؛ حيث يعكف مستخدِم وسائل الإعلام الاجتماعي على

(١) مختصر اسم ميدان «إيبافنيو دي لوس سانتوس»، وهو تقاطع طرق رئيسي في العاصمة مانيلا.

استخدامها وسيلة لتنسيق الفعل؛ ونتيجة لذلك عرَّضت كل تلك الاحتجاجات المشـاركين فيها لخطر التهديد بالعنف، وفي بعض الحالات لاسـتخدامه الفعلي ضدهم. وفي حقيقة الأمر، يبقى اسـتخدام تلك الأدوات طريقة لتنسيق وتوثيق الفعل في العالم؛ بحيث يرجَّح كثيراً أن يكون جزءاً من عمل الحركات السياسـية في المستقبل.

خطوات الفعل الإعلامي:

قدمت النظريات والدراسات الإعلامية كثيراً من الاجتهادات حول مفهـوم الإعلام الاجتماعي ودائـرة التأثير، ومنها نظرية التسويق الاجتماعي التي تتناول كيفية ترويج الأفكار التي تعتنقها النخبـة في المجتمع، لتصبح ذات قيمـة اجتماعية معترَف بها. وإسقاطاً على التجارب العالمية في الحالتين (التونسية والمصرية) تقوم وسائل الإعلام وَفْق نظرية التسويق الاجتماعي بإثارة وعي الجمهور من خلال الحملات الإعلامية التي تسـتهدف تكثيف المعرفة لتعديل السـلوك بزيادة المعلومات المرسـلة، للتأثير على القطاعات المسـتهدَفة من الجمهور؛ وتدعم الرسائلَ الإعلامية بالاتصالات الشخصية، كذلك الاستمرار في عرض الرسائل في وسـائل الاتصال، عندها يصبح الجمهـور مهتماً بتكوين صورة ذهنية من خلال المعلومات والأفكار، وهنا تسـعى الجهة القائمة بالاتصـال إلى تكوين صـورة ذهنية لربـط الموضوع بمصالح الجمهور وتطلعاته.

وفي خطوة لاحقة تبدأ الجهة المنظمة بتصميم رسائل جديدة للوصول إلى نتائج سـلوكية أكثر تحديداً كاتخاذ قرار، ثم تأتي مرحلة صناعة أحداث معيَّنة لضمان استمرار الاهتمام بالموضوع وتغطيتهـا إعلامياً وجماهيرياً، ثم حثّ الجمهور على اتخاذ فعل محـدد معبِّر عن الفكرة، من خلال الدعـوة لتبنّي الأفكار التي تركز عليها الرسائل الاتصالية.

تقييم الفضاء الواقعي:

إن جولة على الفضائيـات العربية تظهر تفوق الجزيرة بلا منافـس في التغطيـة المهنية، وأنها حازت قصب السـبق منذ البداية، ولـم يحتل الحدث على القنوات المصرية والعالمية حيزاً يذكَر في بداياته، ولكن مع حلول مساء ٢٥ (يناير). تنبَّه الجميع وبثت الفضائيات تغطيات مكثفة على مدار السـاعة مع التركيز على التطور الميداني وتطورات الموقف المصري والدولي.

أما التلفزيون المصري الرسـمي فقد أخـذ حظاً وافراً من الهجوم لتجاهله التظاهرات، ولإصراره على إبراز البقع الهادئة من كورنيش النيل والتحرير اللذيـن كانا يعجَّان بالاحتجاجات، فضلاً عن إعطاء مسـاحة من الوقت لأصـوات بعض المثقفين والفنانين والسياسـيين المطالبين بالتهدئة وتسليط الضوء على التظاهـرات المؤيدة للرئيس مبارك، هـذه النوعية من التغطية دفعت بإحدى مذيعات التلفزيون المصري الرسـمي للاسـتقالة لافتقاد التلفزيـون لأخلاقيات المهنية في تغطيته للاحتجاجات، وسبقها الإعلامي محمود سعد لتضامنه مع التظاهرات.

إن التلفزيون المصري الرسـمي لم يكـن أداؤه مفاجئاً لكن كان مسـتفزاً، وهناك مـن القنوات الخاصـة التي وقفت ضد التظاهرات ومن أكثرها استفزازاً قناة (المحور) التي استضافت ضمن برنامج «٤٨ سـاعة» فتاة مصريـة غطَّت وجهها، وجرى تمويـه صوتها لتقول: إنهـا تلقَّت تدريباً فـي الولايات المتحدة لإثارة الشغب في الشارع المصري. وأضافت أن من درَّبوها كانوا إسـرائيليين، فطلبوا منها في حال حدوث حركة جماهيرية أن تحرق أقسـام الشرطة، ومقارَّ الحزب الوطني مع زملائها لإثارة الفوضى. أما عن المبالغ الماديـة التي كانت تتقاضاها، فأجابت بصراحة «٥٠٠ دولار يومياً، وقد استمرَّ التدريب لمدة شهر... أما المؤسسـات الحقوقية التي أرسلتنا إلى أميركا فحصلت كل منها على ٥٠ ألف دولار».

وركب التلفزيون المصري الموجة فاسـتضاف بعض الشبان الذين اعترفوا بأنهم كانوا مشـاركين فـي الثورة، لكنهم غادروا الميدان بعدما تأكدوا من دخول عناصر أجنبية بين الشبان لإثارة الشغب. أما الحقيقية التي انكشفت فكانت أن الصوت والصورة (مموهان) يعـودان للصحافية نجاة عبـد الرحمن التي تعمل في صحيفة «٢٤ سـاعة»، وقد أكَّد رئيس التحرير سمير رجب الحقيقة وأنـه وزملاءه في الصحيفة فوجئـوا بما قالته بعدما تمكَّنـوا من التعرُّف إلى هويتهـا، واعترفت الصحافية المصرية بمـا فعلته، مؤكدة أن كل كلامها كان مجرَّد كذب. وفي قناة دريم كانت تغطية منى الشـاذلي أكثر انحيازاً للشارع من تغطية خالد الغندور.

لقد خصصت الصحف المصرية مسـاحات واسعة لتغطية الاحتجاجات في مصـر، مع نقل الحدث كما تـورده الوكالات ومحطـات التلفزة؛ إذ نشـرت صحف مسـتقلة مثل: المصري اليوم والشروق (الأكثر انحيازاً للشـارع)، من الأهرام والأخبار و الجمهورية، نشـرت تقاريـر خبرية ومقـالات رأي عن تطور الأحداث في مصر تأرجحت بين التأييد والمعارضة.

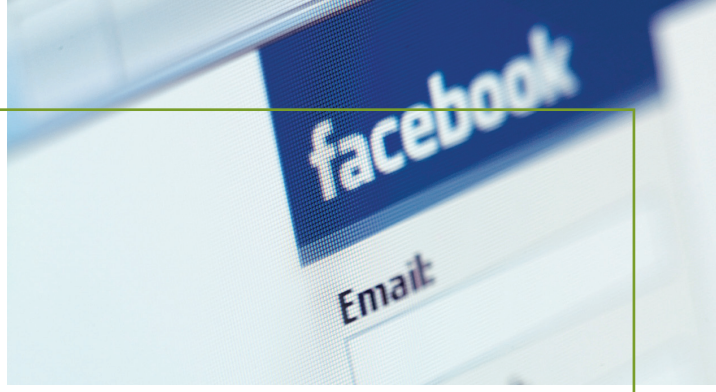

من يصنع التغيير:

إن السؤال الذي يجب الإجابة عنه بعد تكرار المشهد التونسي في مصر وتوسع (أطلس الانتفاضات الشعبية العربية) هو: هل تلعب وسائل الإعلام، دوراً داعماً في التغيير الاجتماعي عن طريق تقوية المجال الجماهيري؟

يقول الفيلسوف الألماني يورغن هيبرماس في كتابه «التحول الهيكلي للمجال العام» (١٩٦٢م): ساعدت الصحافة المطبوعة على جعل أوروبا ديمقراطية عن طريق توفير فضاء للنقاش والاتفاق بين المواطنين المنخرطين سياسياً، وغالباً قبل أن تصبح الدولة ديمقراطية تماماً.

لا يمكن الجزم تماماً بصحة تلك النظرية؛ فالحرية السياسية ينبغي أن تترافق مع مجتمع متعلم مثقف بما يكفي، ومتصل بكثافة كافية ليناقش القضايا التي تقدَّم إلى الجمهور. فالجمهور التونسي متعلم؛ حيث خصص بورقيبة ٣٠ ٪ من ميزانية تونس للتعليم، وتونس الأكثر تطوراً عربياً من حيث نسبة التعليم العالي، وهي أول دولة مغاربية تنفتح على الإنجليزية مع الفرنسية، وما ساعد الثورة التونسية - على سبيل المثال - أن عدد مستخدمي فيس بوك في تونس يتجاوز مليونين، وهو أكبر رقم في إفريقيا ومن أعلى النِّسب في العالم العربي، وأضاف أن: ٧٥ ٪ من مستخدمي موقع الـ (فيس بوك) التونسيين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٣٤ سنة.

وفي مصر ما ميَّز الثورة الشعبية عملية التنظيم والدقة في التوقيت، فقد نظَّمها الشباب الثائر بكل حِرَفية ودقة ومسؤولية وبأبسط وسائل التعبير مستخدماً شعارات المرحلة الراهنة المعبِّرة عن طموحات الجميع: الحرية في التعبير، واحترام الرأي الآخر، والديمقراطية، والتوزيع العادل لثروات البلاد، والنزاهة، والقضاء على الفساد.

لقد أسهمت مواقع التواصل الاجتماعي في تأصيل الثورة في تونس ومصر؛ فالجماعات المنضبطة والمنسقة تمتلك ميزة على الجماعات غير المنضبطة؛ فهي تمتلك وقتاً للانخراط في الفعل الجمعي، ولها طريقة في توجيه سلوك أفرادها، والإعلام الجديد هو جزء من الواقع الجديد الذي يجري فيه العمل السياسي؛ ولكن لو جلس الجميع صباح مساء على مواقع التواصل الاجتماعي بدون وجود مسببات لما قامت أي من الثورات؛ فالإعلام لا يغير وحدَه عقول الناس؛ حتى وإن بث الآراء، بل يجب لهذه الآراء أن تُتدَاول في وسط الجمهور، وفي الخطوة الثانية يتم تشكيل الآراء. وهذه هي الخطوة التي يستطيع بها الإنترنت بشكل عام، والإعلام الاجتماعي بشكل خاص أن يُحدِثوا فرقاً.

وكما كان حال الصحافة المطبوعة، فإن الإنترنت لا يقوم فقط بنشر الاستهلاك الإعلامي؛ وإنما يقوم بإنتاج الإعلام فهو يسمح للناس بأن يناقشوا على المستويين الخاص والعام طيفاً من القضايا المتعارضة.

لهذا أصبح من الممكن للجماعات أن تطبق نوعاً من السلوك المنسِّق للاحتجاج وإنشاء حملات جماهيرية تتطور ببطء؛ حيث يعتمد الرأي العام على الإعلام والحوار معاً، وفي الحالة التونسية والمصرية قامت الثقافة الشعبية بدورها في مفاقمة النزعة المحافظة عن طريق تقديم غطاء لاستخدمات سياسية أكثر لوسائل الإعلام الاجتماعي؛ ولهذا يصبح من الأكثر منطقية أن يحصل الاستثمار في وسائل الإعلام الاجتماعي باعتبارها أدوات عامة للتوجيه وطرح الآراء، أكثر من كونها أدوات سياسية، مع التأكيد على أنه ليست كل حركة سياسية تستخدم هذه الأدوات سوف تنجح طالما أن الدولة لم تفقد قدرتها على الرد، وأبسطها المنع بالمطلق أو الحجب الجزئي أو المراقبة والإشراف، والطريقة الأكثر أهمية لمستخدمي الإعلام الاجتماعي هي المتعلقة بالكيفية التي تستطيع فيها تلك الأدوات تقوية الشعور العام ومؤسسات المجتمع.

وبعد: فإن استخدام أدوات الإعلام لا يفضي بالضرورة إلى نتيجة واحدة؛ فربما لا تسبب ضرراً على المدى القصير، وربما تفيد على المدى البعيد، ولكن يبقى القول: إن الإعلام الجديد وما يحتويه من شبكات اجتماعية سيصنع فارقاً كبيراً في صناعة الإعلام في المستقبل من خلال سرعة نشر الأخبار ومصداقيتها المدعمة بالصوت والصورة، وزيادة مستوى الوعي ورفع مستوى المعرفة؛ لذلك فالثورة في كلٍّ من تونس ومصر نستطيع أن نطلق عليها ثورة الـ (فيس بوك، والتويتر، وملايين المدونات الشبابية)، ومع نجاح الثورة في إدارة الحالة المصرية والتونسية إلا أن دور الإعلام الفضائي هو الأكثر شمولية من الإعلام الاجتماعي الذي يمكن أن يطلَق عليه إعلام اللحظة الراهنة التي تنقل الصورة والصوت (الحدث) ويبقى دور الفضائيات عموماً أقوى في التأطير بسبب مصداقيتها وكونها جماهيرية تستعين بالخبراء.

النظام العربي الجديد...

ثورات العودة إلى الإسلام

محمود المبارك(*)
mmobarak1@hotmail.com

في الوقت الذي يحبس فيه الغرب أنفاسه جراء ما حدث في تونس ومصر، ويحاول عابثاً تدارُك ما يمكن تدارُكَه من أجل تلافي (سيناريوهات) رعب تشير إلى وصول «الإسلاميين» إلى سدة الحكم، وربما كان على عقلاء الغرب أن يقفوا مع أنفسهم وقفة مراجعة للأحداث القريبة والبعيدة.

فمنذ هروب الرئيس التونسي المخلوع (بن علي) والسؤال الذي لا يكاد ينفك عنه الناس في الساحة السياسية الغربية هو: ماذا لو وصل «الإسلاميون» إلى الحكم؟ وكأن الإسلام وحش رابض يتربص بالغرب، وينتظر لحظة الانقضاض عليه!

وغني عن القول اليوم: إن الثورة في كلٍّ من مصر وتونس لم تكن ثورة جياع بقدر ما هي ثورة ضد الوضع السياسي القائم في البلدين، وأن التغيير الذي تطلبه شعبا مصر وتونس هو العودة إلى الإسلام بعد التغريب الذي جرى خلال ستة عقود مضت.

والحق أن للغرب منَّةً على «الإسلاميين»؛ إذا ما تحقق خوف الغرب من وصول مَن يكرهون إلى سدة الحكم في هذين البلدين العربيين أو غيرهما من البلدان التي قد تتبعهما. فقد حاولت الشعوب العودة إلى الإسلام عبر صناديق الاقتراع «الديموقراطية»، ولكن رغبات حكوماتهم لم تتقبل نتائجها، ولم يعد سراً أن انتخابات الدول العربية التي فاز فيها «الإسلاميون» زوِّرت بخلاف ذلك. كل ذلك كان بعلم من الغرب وتحت سمعه وبصره.

بل إنه حتى في الحالات التي فاز فيها الإسلاميون بالانتخابات «الحرة النزيهة»، تدخلت اليد الغربية لرفض نتائجها كما حدث في الجزائر عام ١٩٩١م، وفي فلسطين عام ٢٠٠٦م. ويبدو أن الغرب أسدى هدية ثمينة للإسلاميين، حين قام بإجهاض نتائج الانتخابات الجزائرية، ورفض التعامل مع حكومة حماس (المنتخبة شرعياً) من حيث لا يعلم؛ ففي الحالة الجزائرية أنقذ الغرب الإسلاميين من تجربة أُولَى ربما كانت نتائجها كارثية على العمل السياسي الإسلامي برمَّته لو تُرِكَت

(*) أستاذ القانون الدولي في جامعة الملك فيصل – السعودية.

لهم الفرصة يومها؛ كونها الأُولَى من نوعها. وأما في الحالة الفلسطينية فقد استدر الغرب عطف الشارع الإسلامي في كل مكان مع الحركة الإسلامية الفلسطينية بمنعه لها من العمل السياسي.

أخطاء الغرب إذاً كانت وراء بعض أسباب انتشار شعبية الإسلاميين بطريق مباشرة وغير مباشرة؛ فسكوت الحكومات الغربية عن قمع الحكومات العربية للحركات الإسلامية وعدم وقوف الحكومات الغربية مع الشعوب العربية في الحصول على حقوقها عبر الوسائل الديموقرطية المشروعة، أفقد الشارع العربي والمسلم ثقته في الغرب، وجعله يتعلق بخيار الإسلاميين، ظناً منه أنه الخيار الأكثر وطنية كونه خياراً يغضب الغرب.

وعلى رغم من تحفظي على استخدام تعبير «الإسلاميين» كمصطلح لوصف الحركات الإسلامية المعاصرة، كونه ترجمة لبعض المصطلحات التي جاء بها الاستشراق الحديث، وكونه أيضاً دخيلاً على اللغة العربية، إلا أنني أقبل استخدامه بصفته مصطلحاً شائعاً عند كثيرين لوصف ما نحن بصدد الحديث عنه ليس إلا. وبغضِّ النظر عن الاختلاف في المصطلحات، فإن الواضح اليوم أن هناك شعوراً قوياً في الأوساط المصرية والتونسية لإعطاء «الإسلام السياسي» فرصة لإثبات نفسه. خصوصاً أن الحكومتين السابقتين في تونس ومصر، حظرتا العمل السياسي الإسلامي رسمياً، وحرمتاه من حق المشاركة المكفولة في كل الدساتير الديموقراطية. وبما أن الإنسان العربي بعناده الفطري يحب أن يخالف ما تأمره به حكومته، فإن الحكومتين السابقتين تستحقان شيئاً من العرفان أيضاً إذا ما حقق الإسلاميون نجاحاً في مستقبل العمل السياسي في هذين البلدين.

فإضافةً إلى الأخطاء التي ارتكبها الغرب - بطريق مباشر وغير مباشر - في إذكاء روح العودة إلى الإسلام السياسي بمحاربته إياه، توجد ثلاثة أسباب تشير إلى أن «الإسلاميين» هم من سيفوز في أي انتخابات قادمة:

السبب الأول: هو التصاق هذه الشعوب بتراثها: فالشعوب الإسلامية ما زالت تحن إلى تاريخها العريق. وعلى رغم من أن حكومات الشعوب الإسلامية اعتنقت المذاهب المتناقضة من شيوعية واشتراكية ورأسمالية، إلا أنها كانت تقبل كثيراً منها من باب أنها مقبولة إسلامياً. ويدل على ذلك: أنه حين أرادت القيادات الثقافية في العالم العربي تسويق مفهوم الاشتراكية أو الديموقراطية، كانت هذه الطبقة المثقفة تجد نفسها تربط بين الاشتراكية أو الديموقراطية والإسلام، ليتم قبولها من عامة الناس.

وتبعاً لذلك جرى استخدام الدين لترويج وقبول تلك الأفكار، تماماً كما استُخدِم الدين من قِبَل الطرف الآخر لدحضها؛ أي أن المعارضين لتلك المفاهيم السياسية عارضوها من باب مخالفتها الدينية لتعاليم الشرع؛ فالنتيجة إذاً أن الدين كان هو «المعيار» في قبول أو رفض كثير من الأفكار السياسية والاقتصادية خلال ثمانين عاماً الماضية، إن صدقاً وإن كذباً.

السبب الثاني لرغبة الشعوب في العودة إلى «الإسلام السياسي» في المجتمعات المسلمة: هو فشل البدائل الأخرى: فحين أخفقت تجربة القومية في البلاد العربية والإسلامية (بما في ذلك تركيا وإيران)، وحين لم تثمر الاشتراكية في تحقيق الرفاه الاقتصادي المنشود للشعوب التي لبست ثوبها، وحين فشلت الإمبريالية الرأسمالية في جلب الحرية للمجتمعات التي نادت بها، عادت الشعوب المسلمة أدراجها القديمة كالتاجر المفلس.

السبب الثالث والأخير في شعبية «الإسلام السياسي» العارمة بين الشعوب المسلمة: هو أنه نتيجة للثقافة العالية والنقاش المنطقي فقد بدا «الإسلاميون الجدد» في مظهر جذاب، استطاعوا من خلاله استقطاب الناس لمشروعهم المقترَح. فالإسلاميون اليوم لم يعودوا مجرد مجموعة دروايش يلبسون العمائم والجلابيب الواسعة، ويفكرون بعقلية القرن السابع الميلادي. بل إنهم يحملون ثقافة عالية في جميع التخصصات، وعند بعضهم تجارب ناضجة في العمل السياسي في بلاد الغرب، وأكثرهم من أصحاب المؤهلات العالية في مختلف التخصصات، يضاف إلى ذلك بُعدُهم عن الفساد، ونجاح تجاربهم الباهرة على الرغم من قِصَرها.

ولعله من المفيد القول: إن ظاهرة الإسلام السياسي في البلاد الإسلامية اليوم ليست سوى واحدة من مظاهر متعددة تمثل عودة أو «صحوة» - كما يطيب للإسلاميين تسميتها - لعامة الشعوب المسلمة إلى التراث الإسلامي. هذه العودة أو «الصحوة» لم تقتصر على الجانب السياسي؛ وإنما شملت «أسلمة» جوانبَ أخرى، بعضها اجتماعي كانتشار الحجاب بين الفتيات، وبعضها اقتصادي كظاهرة انتشار البنوك الإسلامية، واليوم تنتظر الشعوب دور الإسلام السياسي.

النظام العربي الجديد القادم إذاً هو العودة إلى الإسلام؛ فهل «يفهم» الغرب الدرس، أم أنه سيظل يكرر أخطاءه؟ بعض

الغربيين يزعم أن مصالح الأحزاب الإسلامية تتعارض جملة وتفصيلاً مع مصالح الغرب. ومن هذا الباب حاول الغرب مراراً التحذير من أن «الإسلاميين» خطر على الديموقرطية. والحق أن هذا الزعم - الذي لم يعد ينطلي على العقلاء - كذَّبه الواقع العملي. فليس في التاريخ حالة واحدة انقلب فيها الإسلاميون على نتائج انتخابات ديموقراطية، في حين انقلب العَلمانيون في تركيا مراراً وفي الجزائر وفلسطين على نتائج الديموقراطية الحرة والنزيهة، بمساندة مباشرة وغير مباشرة من الغرب.

بعض الغربيين يخوِّفون من تكرار التجربة الإيرانية ناسين أو متناسين أمرين هامين:

أما الأمر الأول فهو: الفرق المذهبي الذي يجب ألا يخفى على رجل الشارع الغربي فضلاً عن المثقفين الغربيين.

وأما الأمر الآخر فهو: أن الغرب - وبغض النظر عن المواقف الكلامية المعارضة في الظاهر - استطاع أن يتعامل مع الحكومة الإيرانية الثيوقراطية في كل ما يهمه كما يريد. والأمثلة كثيرة تعود إلى سنوات الثورة الأولى، حين قبل آية الله التعامل مع (الشيطان الأكبر) في فضائح ما عُرِف لاحقاً بـ «إيران غيت»، وكذلك في التآمر مع واشنطن ضد أفغانستان والعراق، مما لم يعد يخفى على أحد.

في واقع الأمر يجب ألا يكون المستقبل مخيفاً بالنسبة للغرب، ولكن إذا كانت الكراهية هي التي تقود العالم الغربي، فذلك داء لا دواء له!

بل إنه ليس من المبالغة القول: إن «الإسلاميين» أكثر عقلانية من الغربيين في التعامل السياسي الدولي؛ فالإسلام السياسي في تركيا حقق للأمة التركية ما لم تحققه عقود من العَلمانية الأتاتوركية، دون تفريط في أيٍّ من الأسس العَلمانية، أو في المصالح السياسية العليا مع الغرب. بل إنه من المثير للسخرية أن يكون حرص تركيا على الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي أكثر بكثير من حرص دول الاتحاد الأوروبي.

وفي جانب آخر من عقلانية الإسلاميين، كانت حماس قد أعلنت بعد فوزها في الانتخابات التشريعية عام ٢٠٠٦م، أنها لن تعارض الاتفاقية الموقعة بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل دون أن تتنازل عن مبادئها المتمثلة في عدم الاعتراف بإسرائيل، من خلال تفويضهم للسلطة الفلسطينية في التعامل مع المعاهدات الدولية، وأحسب أن هذا من العقلانية السياسية بمكان؛ بحيث لا تجرؤ أحزاب أخرى على تقديم هذا التنازل.

الإسلام إذاً ليس خطراً على الغرب، والإسلاميون إذا وصلوا إلى الحكم يجب ألا يشكلوا خوفاً على الدول الغربية؛ لأنهم مستعدون للتعايش مع الغرب من أجل تحقيق المصالح المشتركة. كل ما على الغرب هو أن يتعامل مع العالم الإسلامي بالعدالة نفسها التي يتعامل بها مع نفسه. ولكن السؤال هو: هل الغرب مستعد للتعايش مع الإسلام؟

لقد آن للغرب أن يتعلم من أخطائه وأن يبدأ صفحة جديدة مع الدول العربية والمسلمة تقوم على أساس المصالح المشتركة بين الشعوب الغربية والإسلامية، لا أن يبني سياساته على أساس المصالح ذات الجانب الواحد.

أليس في كل مرة تتغير أوضاع العالم يتحفنا الغرب بنصائحه: أنه علينا أن نتكيف مع «النظام العالمي الجديد»؟ ربما جاء الدور على الغرب اليوم أن يتكيف هو مع «النظام العربي الجديد».

فإن قَبِل الغرب بهذا الوضع الجديد، فله أن يرى يداً ممدودة من الشعوب قبل الحكومات العربية والمسلمة. أما إذا أصر الغرب على تعامله مع العالم العربي والإسلامي بغطرسته وسياساته المزدوجة في ما له وما عليه، فإنه بذلك سيكون سبباً في رسم مستقبل عداء مع العالم العربي الجديد القادم، تماماً كما كان سبباً في صنع هذه الثورات.

وفي مقال تحت عنوان «عالم قانوني جديد بعد نهاية الحرب على غزة» نشر في صحيفة الحياة اللندنية بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٩م، حاولتُ أن أوصل رسالة استشرافية للتغيير القادم بعد الحرب الإسرائيلية على غزة بهذه الكلمات:

«واقع الأمر أن الدول الغربية بانتهاكها القوانين الدولية في تعاملها مع الأمم الأخرى، تكون قد أسست لعهد غير سعيد سوف تجني حصاد ذلك... وأن الحكومات العربية، بعدم مقدرتها تغيير ذلك الواقع الأليم، سوف تشهد انتهاء عصر احتكارها للمشهد الرسمي».

الآن..

" من لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أُغلق عليه باب التدبر "

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١

المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

حسابات القوى الإقليمية
في ضوء المتغيرات العربية

علي حسين باكير

عاصفة من الغضب الشعبي تهب هذه الأيام على الأنظمة العربية، كانت رياحها قد بدأت في تونس ثم انتقلت سريعاً إلى مصر بما لها من ثقل إقليمي. الأمر الذي أثار موجة من ردود الفعل الإقليمية والدولية؛ كلٌّ من منطلقاته الخاصة على اعتبار أن تحوُّلاً في المشهد المصري قد يغيِّر المشهد الإقليمي كليّاً.

وقد بدا واضحاً أن كلاً من إسرائيل وإيران وتركيا باعتبارها قوى إقليمية معنية بشكل مباشر بهذا المشهد أكثر من غيرها من باقي الدول في المنطقة. فهذه الدول تتنافس في ما بينها إقليمياً اعتماداً على المعطيات الحالية للواقع المزري في الساحة العربية. وفي ظل عدم اليقين، وهو ما سيؤول إليه الوضع في ظل الانتفاضة التونسية والمصرية. وعمَّا إذا كان ذلك سيجر معه أنظمة أخرى وَفْقاً لنظرية الدومينو، فقد شرعت كل دولة من هذه الدول باتخاذ إجراءات ومواقف تسمح لها بإعادة تموضع سريعة استغلالاً للحدث من جهة، ودرءاً لتداعياته السلبية إن وجدت، واستعداداً لمواجهة التحديات القادمة من جهة أخرى.

حسابات اللاعب الإيراني:

للحسابات الإيرانية وجهان مما يجري على الساحة العربية اليوم:

الوجـه الأول: هو وجه الخائف من أشـكال هذه الثورات والشعارات التي تحملها والسبب الذي انفجرت من أجله؛ المتمثل في المطالبة بالعدالة الاجتماعية، والحرية في التعبير، والتداول في السـلطة، والأهم من هذا مقاومة الديكتاتورية والتسـلط والنظام الأمني والقمعي، والتزوير في إرادة الشعب وأصواته.

ومكمـن التخوف من هذا التوجُّه: أنَّ هذه الشـعارات قد تعيـد إحياء الحركة الخضراء الإيرانيـة، التي كان النظام قد خاض معها معركة كسـر عظم عبر الحرس الثوري وميليشـيا الباسـيج والأجهزة الأمنية بُعَيد الانتخابات الرئاسية الإيرانية عام ٢٠٠٩م، التي أوصل النظامُ من خلالها (أحمدي نجاد) إلى الرئاسة مرة أخرى بالتزوير رغماً عن إرادة الناس الذي طالبوا بمعرفة أين ذهبت أصواتهم؟

ويقوم الإعلام الرسـمي الإيراني منذ أيام بحملة إعلامية دعائيـة قوية غير مسـبوقة في الداخل الإيرانـي؛ يعمل من خلالها علـى إيهام الإيرانيين بأنَّ الذي يحصل في مصر اليوم هو «ثورة إسلامية» على أمريكا وإسرائيل للتورية عن أنَّها ثورة ضد الديكتاتورية.

أمَّا الوجه الثاني: فهو يسـعى إلى توظيف الحدث وما قد ينجم عنه في ما يخدم المشروع الإيراني الإقليمي؛ فمن مصلحة إيران نشـوء أنظمة في المنطقة العربية على شاكلتها تدور في فلكها، وتكون ذات توجـه ثوري أيديولوجي مماثل، وإن لم يكن ذلك ممكناً فأقلُّه أن لا يكون مناقضاً لها؛ لأن من شـأن نشوء مثل هذه الأنظمة أن تشـكِّل حزاماً حامياً للنظام الإيراني من جهة، وأن تسهِّل اختراقه للرقعة العربية بمساحتها الأوسع من جهة أخرى؛ فيصبح عملياً هو القائد الحقيقي والفعلي إقليمياً؛ لا سيما إذا جاء التحوُّل المصري لصالحه.

فمصـر - كما هو معروف تاريخياً بما لها من ثِقَل إقليمي - تعتبَر قاطرةً للدول العربية، ولأنها تقع في مثلث (عربي، إسلامي، إفريقي)، فإنها ستكون مكسباً عظيماً لا مثيل له لإيران في حال كان التحوُّل يصب في خدمة المشروع الإيراني.

ولذلك فقد كان من الواضح من خلال خطبة المرشد الأعلى علي خامنئي يوم الجمعة ٢٠١١/٢/٤م، أنه يستبق الأمور، وأنه يشـارك في اللعبة من خلال التحريض على ولادة هكذا نظام مستثمراً في حركة الإخوان المسلمين، ومحرِّضاً الجيش المصري على الانقسـام. وكان أحد الأذرع التابعة له في المنطقة (حزب الله اللبنانـي) قد بدأ تحرُّكه قبل هـذا - أصلاً - وبعده في محاولة لاسـتغلال الأوضاع والترهل العربي والانشغال الدولي من أجل بسط سيطرته المُطْلَقَة.

ولعل بعض الحسـابات الإيرانية تشير إلى أنَّه حتى إذا لم يأتِ نظـام أيديولوجي قريب من إيران، فيكفـي أن يكون النظام الوليد ثورياً حتى يصطدم بإسـرائيل مباشرة فتكون الفرصة الإيرانيـة سـانحة للتخلص من جميع الخصـوم دفعـة واحدة ولا سيما أنَّ هزيمة عربية أخرى نتيجة لعدم الاستعداد لمواجهة العدو الإسـرائيلي بشـكل جيد قد تقضي نهائياً على العالم العربي في الواقع الجيوبوليتيكي والجيوسياسي الإقليمي.

حسابات اللاعب الإسرائيلي:

في المقابـل بدا واضحاً أن اللاعب الإسـرائيلي من أكثر المتأثرين بالزلزال (الجيوسياسـي) العربي الذي يحصل اليوم؛ إذ تحدث هذه التغييرات التي تشهدها المنطقة في وقت يعاني فيه هو من تدهور في قيمته الإسـتراتيجية بالنسـبة للغرب ومـن تحديات وأزمات داخلية وخارجيـة كثيرة يصفها الخبير السياسـي الأمني «إيتمار يخنر» بـ «الضائقة الإسـتراتيجية» التي تشـمل علاقتها مع جميع الدول بما في ذلك الدول التي من المفترض أنَّها موقِّعة على اتفاقية سـلام (أي الأردن) الذي لا يثق بإسـرائيل؛ خاصـة من ناحية تحويله إلـى وطن بديل للفلسـطينيين، وأيضاً مصر التي يصف بعضهم السـلام معها بأنه سلام على ورق؛ فلا تعاون في المجال الثقافي أو الأكاديمي، ولا سياحة مصرية في إسرائيل ويوجد قليل جداً من العلاقات الاقتصادية، هذا ناهيك عن مشـاكل إسرائيل مع دول المنطقة ككل وآخرها مع تركيا.

وعلى الرغم من أنَّ الجانب الإسـرائيلي لم يُصدِر تقييماً إسـتراتيجياً لاستعداداته المستقبلية إزاء هذا الوضع المستجد، إلا أننا نسـتطيع أن نخمن ردَّه بناء على (السيناريوهات) التي وضعها لمستقبل مصر، وهي:

- سـيناريو (مصر ديموقراطية): وَفْقـاً لبعض التقييمات الإسرائيلية، فقد تَخرُج من هذه الأحداث مصر ديمقراطية، وقد تكون موالية للغرب، وهو ما يسـاعد على بقاء معاهدة السلام الموقعة بين الطرفين.
- سـيناريو (مصر ثورية إسلامية): وَفْقاً للنموذج الإيراني، يسـيطر الإخوان فيـه على الحكم بمصر ولا بـد أن معاهدة

السلام ستكون ساقطة عملياً في هذا الوضع. وقد تضطر إسرائيل في هذه الحالة إلى:

إما الإسراع لتوجيه ضربة عسكرية لما تعتبره خطراً عليها (دون تحديد مصدره). وقد تكون جبهات لبنان وإيران وفلسطين بل حتى مصر نفسها خياراً متاحاً لضربة عسكرية خاصة إذا حصل انهيار في مصر؛ إذ من شأن ذلك أن يُضعِف مصر ومن ثَمَّ تصبح الفرصة سانحة لتدمير واحد من أقوى جيوش الشرق الأوسط. وقد تضمن هكذا حرب فرض شروط على النظام الجديد بما يخدم الأجندة الإسرائيلية. لكن في تقييمنا لهكذا خيار، يمكننا تصنيفه على أنَّه خيار متطرِّف في التوقع.

وإما أن تندفع باتجاه عملية سلام مع سوريا والاعتراف بدولة فلسطينية على حدود عام ١٩٦٧م لتعزل التداعيات الخارجية، وهو خيار كانت إسرائيل حتى الآونة الأخيرة تتفاداه وتضغط عكسياً على الولايات المتحدة لتنفيسه، رافضة في الوقت نفسه الموافقة على المبادرة العربية؛ لأن كثيراً من الأوساط الإسرائيلية تعتبر أن حصول سلام (وليس استلام) مع العرب من شأنه أن يؤدي إلى نسف إسرائيل من الداخل لعوامل كثيرة لعل أقلَّها مسالة القنبلة الديموغرافية الفلسطينية.

لكن لا يجب أن ننسى أن مستقبل مصر قد لا يكون رهناً بالضرورة بأحد السيناريوهين السابقين؛ إذ قد تنشأ مصر ديمقراطية لها استقلال سياسي ولا تعادي الغرب؛ أي مصر بنموذج تركي بما يحمله من مضامين قوة على الصعيد الإقليمي والعالمي، وتطور اقتصادي، وإصلاح سياسي، واستقلالية في القرار؛ وهو النموذج الأكثر حرجاً لإسرائيل في حال حصوله.

حسابات اللاعب التركي:

للاعب التركي حساباته أيضاً في كل هذه المعطيات والمتغيرات اليوم على الساحة العربية؛ لكنه يبدو اللاعب الأكثر تقدُّماً على الآخرين في هكذا وضع. صحيح أنَّ حالة عدم الاستقرار التي تمر بها المنطقة في هكذا ظروف قد تؤثِّر على سياسة تركيا العامة ولا سيما الخارجية التي تقوم في الأساس على تحقيق الأمن والاستقرار للجميع، لكن الصحيح أيضاً أن هذا الوضع قد يفتح الباب واسعاً أمام تبنِّي النموذج السياسي التركي أو ما يشبهه على الأقل.

إذ لا بد أن الأتراك يعلمون أن حالة عدم الاستقرار هذه هي حالة مؤقتة، ولا يمكن أن تكون دائمة إذا ما كانت منابعها داخلية وتهدف إلى تحقيق إصلاح وانفتاح وديموقراطية.

وفي هذا المجال فإن النموذج التركي قد يكون هو النموذج الأكثر جاذبية في المنطقة؛ خاصة أن الجميع يلاحظ تزايداً مضطرداً في تأثير القوة الناعمة التركية والانعكاسات التي تركتها أنقرة على المنطقة خلال السنوات القليلة الماضية؛ نظراً للنجاحات الباهرة والعظيمة التي حققها النظام التركي بقيادة حزب العدالة والتنمية على الصعيد الداخلي والخارجي خلال مدة حكمه.

ويراهن الأتراك على أنهم تركوا تأثيراً قوياً في المنطقة في ما يتعلق بخمسة محاور أساسية على الأقل يمكن الاستثمار فيها إقليمياً بما يرفع من مكانتها ويخلق الانسجام والتكاتف والتحالف المطلوب بين دول المنطقة، وهي:

- الديمقراطية والإسلام في نموذجها السياسي.
- الاعتدال الإسلامي في نموذجها الديني.
- تعايش الحضارات والأديان في نموذجها الثقافي.
- الاصلاح والنزاهة والعمل في نموذجها الاقتصادي.
- السلام والاستقرار والأمن الإقليمي في نموذجها الديبلوماسي.

وبخلاف النموذج الإيراني الذي يعتمد على أحزاب أيديولوجية دينية تابعة للولي الفقيه من أجل الترويج لنموذجه، يكتسب النموذج التركي قوَّته من داخله ومن إنجازاته بما يمثله من إسلام حضاري مع نماذج أخرى كماليزيا.

هذا النموذج التركي الذي صنعه حزب العدالة والتنمية، ترك ولا شك تأثيراً كبيراً لدى شرائح واسعة من المجتمع العربي بمختلف أطيافها، كلٌّ ينظر إليه من الجهة التي يراها ويحبذها. ولا شك أنَّ الإسلاميين بما يشكلون من ثقل وتمثيل في العالم العربي تأثروا بدورهم بهذا النموذج – وإن كان ذلك بنِسَب مختلفة من مجموعة إلى أخرى – وهو ما سيترك من دون شك بصمَته بشكل أو بآخر على شكل النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي حال وصولهم إلى السلطة خاصة في ما يتصل بممارسة الواقعية والبراغماتية والاعتدال لمواجهة الأوضاع الداخلية في بلدانهم، وفي ما يتعلق أيضاً بقدرة الهوية الإسلامية على التكيُّف وتقدير القيم الأساسية في المجتمع: من حرية وحُكْم القانون والعدالة والإصلاح والشفافية.

وفي هكذا وضع لا بد أن تركيا ترى في هذه الأحداث فرصة لتفعيل دورها الريادي في المنطقة؛ بما ينسجم مع سياسة حزب العدالة والتنمية ومن ثَمَّ برنامجه ورؤيته في ما يتعلق بوضع تركيا والمنطقة إقليمياً ودولياً.

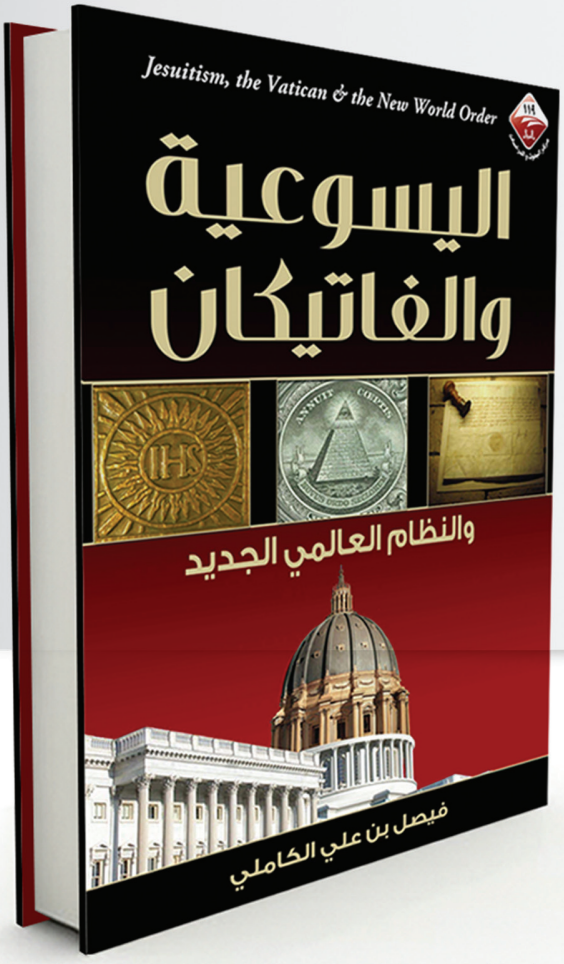

اليسوعية والفاتيكان

و النظام العالمي الجديد.

جديدنا

اكتشف السر بعد خمسمائة عام من نذور الكتمان !

- **ما أخطرُ الجماعات السرية على الإطلاق ؟ ولم لا نعلم عنها شيئاً ؟**
- **ماذا تعرف عن ((أصحاب الأيكة)) الجدد ؟**
- **هل الماسونية حقاً صناعة يهودية ؟ فمن تخدم إذن ؟**
- **لم لا تتغير سياسة أمريكا بتغير الزعماء ؟ ومن هو الموجه الحقيقي لهذه السياسة؟**
- **ما حقيقة التحالف البابوي ـ الصهيوني ؟ وماذا يراد للقدس ؟**

وثائق سرية وحقائق مزعجة تقرؤها لأول مرة بالعربية في كتاب

((اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد))!

Badr: 0508948947

مجلة البيان

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مصر... ماذا بعد؟

طلعت رميح

انتهت ساعات ليلة الجمعة العصيبة (١١ فبراير ٢٠١١م)، بإعلانٍ من نائب الرئيس المصري جاء في سطور قليلة: مبارك تخلّى عن الحكم، في واقعة تذكّرنا بحالة الرئيس المصري السابق (جمال عبد الناصر) الذي أعلن التنحي عن السلطة بعد عام ١٩٦٧م. وتحولت الشوارع المصرية إلى حالة الفرح والابتهاج، لكن دون أن تخرج مظاهرات ترفض تنحي مبارك على غرار ما حدث مع عبد الناصر.

لقد انتهت مرحلة من تاريخ مصر وبدأت مرحلة جديدة، على اعتبار أن النظم الفردية تطبع الحقب والدول والعصور والمجتمعات بطابعها. وثمة سؤال عن تحديد اتجاهات التغيير: إلى أين تذهب مصر؟

قيل: إننا أمام تأسيس الجمهورية الرابعة؛ باعتبار أن كلاً من عبد الناصر والسادات ومبارك قد شكل جمهورية متميزة عن الآخر. وقيل: إننا أمام بداية تحوُّل تاريخي يقوم - أساساً - على حضور الشعب في السياسة وصناعة القرار وصياغة الحاضر والمستقبل؛ على اعتبار أن الشعب وحركته هي من أسقط الحكم القديم؛ لأن القادم هو الديموقراطية والحرية. ونظر آخرون لما جرى بتشاؤم وعيون قلقة؛ على اعتبار أن مَن أداروا تلك الحركة التغييرية ما يزالون مجهولي الرؤى والبرامج، وعلى اعتبار أن الدساتير مهما تغيرت وكانت في منتهى الحرية، تظل حبراً على ورق، إن لم تستند إلى إرادة شعبية واعية وقوية وناضجة. وذهب بعض الناس إلى أن ملخص ما جرى لم يكن سوى خطوة وربما خطة استباقية تقطع الطريق على حدوث تغيير حقيقي يؤسس لوضع جديد كلياً في مصر. وقابلهم آخرون بأن الطريق واضح، وأن مصر أمام تأسيس حالة أقرب إلى النموذج التركي، فقابلهم أناس بقولهم: لا. إنها حالة من حالات الفوضى البناءة. وفي كل ذلك كان الأكثر إثارة، هو ذاك «التماهي» الذي جرى في أجهزة الدولة مع تلك الأطروحات والحركة التي ظلت محاصرَة محارَبة في ميدان التحرير، بين يومي (٢٥ يناير و ١١ فبراير). لقد تحولت أجهزة الدولة بالخطوة السريعه لتبنِّي تلك الأقوال والشعارات والأفكار التحريرية؛ حتى بات بعضهم لا يكاد يصدق ما جرى، ويكاد يقرر البقاء حيث كان معتبراً أن التامل والتريث في متابعة المشهد «وتوابعه» أمر مغري أكثر من حالة الانغماس في الوضع الجديد الجاري.

ماذا جرى؟

إن روايـــة ما جرى أمـــر مهم؛ إذ المعرفـــة المتأنية تتطلب تفحُّص مشاهد حركة الصراع الذي جرى بأسرع مما تستطيع العقول سبر أغواره ومعرفة أبعاده.

لقد كانت البداية دعوة لتظاهرة جرى اختيار يوم ٢٥ يناير ٢٠١١م لانطلاقها، وهو ما أثار حفيظة بعض من تحدث وقتَها عـــن أن اختيار اليوم الذي تواجهت فيه الشـــرطة المصرية مع قوات الاحتلال البريطانية في مطلع الخمســـينيات، قد يعطي دلالات سلبية لاختيار هذا اليوم.

ثم اشـــتعلت المظاهرة، التي بدا أنها ليســـت إلا واحدة من تلك التظاهرات التي شـــهدتها القاهرة من قَبْل خلال العامين الماضيين؛ إلا أن «المشاهدين» ســـرعان ما لاحظوا أنها ليست مظاهرة واحدة بل عشرات المظاهرات. إنها مظاهرات عديدة خرجت في شـــوارع القاهرة، صب ســـيل جمهورها في ميدان التحرير، ومظاهرات متعددة في الإسكندرية صبت سيلها أيضاً في ميدان مسجد القائد إبراهيم، ومظاهرات في أغلب عواصم محافظات مصر، تجمعت ســـيولها في الميادين العامة. عندها ظهر أن ثمة قدرة للمظاهرات على تشتيت جهاز الشرطة.

ثم جرت الاشـــتباكات المعتادة بين الشـــرطة والمتظاهرين، لكن المظاهرات لـــم تنتهِ؛ إذ أظهر الغاضبـــون صموداً وقدرة على الاستمرار في مواصلة الحدث، بشكل جعل المتابعين يرون أن الشـــرطة في طريقها للإنهاك بعد التشـــتت، حتى كان يوم الجمعه التالي في أيام تلك المظاهرات فتدافعت ســـيول جارفة من المتظاهرين في مختلف الشوارع الرئيسية في الوقت نفسه في معظم المحافظات فقذفتها الشـــرطة بـــكل أدوات العنف والقمع والقسوة والإرهاب وبعضٍ من أدوات القتل، ولم تنتهِ تلك الليلة إلا وكانت الشـــرطة قد تبعثرت قدرتها وقوَّتها، فلم يجد النظام الحاكم بدّاً من الدفع بالقوات المسلحه في الشوارع، بعد انكسار الشـــرطة وانسحابها كليّاً من المعركة. هنا بدأت تتكاثر الأحداث والتطورات التي حكمت المشهد حتى نهايته.

وسادت حالة انفلات خطيرة في المجتمع؛ إذ احترقت أقسام الشرطة وسُلبَت الأســـلحه من داخلها، واحترقت مقارُّ الحزب الوطني واقتُحمَت الســـجون في المدن وفـــي جوف الصحراء، ووصل عدد من أُخرجوا من المجرمين نحو ٢٣ ألف ســـجين في أكبر حركة فرار جماعي شـــهدتها السجون المصرية، ولم تسلم

البيوت الآمنة من هجمات (البلطجية)، فســـادت حالة ارتباك وفوضى شاملة حتى وصل الأمر حدَّ اقتحام أحد أهم المتاحف المصرية، وكل ذلك دون أن تتحرك الدولة لمواجهة ما يجري.

ومن ناحية ثانية: فقد استقبل جمهور المتظاهرين والشعب كلُّه قوات الجيش بترحاب شديد، دون وقوع أية حادثة من النوع الذي جرى ضد الشرطة.

ومـــن ناحية ثالثة: بدأ النظام محاولات مســـتميتة لترتيب صفوفه، فجرت إقالة الحكومة وتشـــكيل أخرى، وعين حسني مبارك (الرئيـــس المخلوع) نائباً له، ومن بَعدُ جرى الإعلان عن بدء حوار وطني مع التيارات والقوى السياسية... إلخ.

وكان اللافـــت للنظر في كل تلك الأحـــداث: أن ثمة قوى داخلية وخارجية كانت تعمل بشـــكل واضح لقطع الطريق على احتمالات الوصول إلى حل يحفظ الانتقال التدريجي للسلطة. ومـــن جانب آخر كانت الولايات المتحدة وأوروبا هم من يدفعون نحـــو التغيير الفـــوري أو كانت تضغط على النظام للتســـليم الفوري. وكانت قوى مرتبطـــة بالنظام تحركت من قَبْل لإلهاب الموقـــف وقطع الطريق على تقديم تنـــازلات أخرى، وفي ذلك كانت معركة الجمال والخيـــول التي شـــهدها ميدان الشـــهيد عبـــد المنعم ريـــاض؛ إذ هاجمت مجموعات مـــن (البلطجية) ومحترفي الإجرام والقتل حشـــودَ المتظاهرين لساعات طوال، وهو ما جرى في اليوم التالي لإعلان مبارك عن أول تنازلاته.

وفي جانب ثالث: عملت مجموعات من المتظاهرين – وهي الأكثر قرباً من الولايات المتحدة – على تصعيد الأمور والمطالبات كلما لاح في الأفق احتمال الوصول إلى لحظة مساومة مقبولة من قِبَل قِطاعات أخرى.

وفي يوم الجمعه الأخير، سارت الأحداث وكأنها فيلم تسجيلي

سبق إعداده عن أحداث ستجري. ففي ليلة الخميس ألقى مبارك خطاباً أعلن فيه تفويض سلطاته لنائبه، فطالب المفكرون والكتاب وقيادات المتظاهرين ببيان ضامنٍ من الجيش الذي هو محل الثقة، مرتكنين إلى بيان سابق أعلنت فيه القوات المسلحه انعقاد المجلس الأعلى للدفاع وإصداره البيـــان الأول وبقاءه في وضع الانعقاد، لكن المتظاهرين بدؤوا التحرك في الوقت نفســه لمحاصرة مقارٍّ مجلس الشعب والشورى، وذهبوا بالفعل إلى محيط مقر الرئاسة المصرية. ومنذ الصباح الباكر توافدت الحشود لتعزز وجودها في كل أماكــن الاختراق الجديدة الخطيرة، ولــم يجد مبارك أمامه من بدٍّ أن يعلن على لســان نائبــه عن التخلي عن الحكم وتكليف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة البلاد.

مراحل الصراع:

لقــد اعتمدت الدولة في بدايــة الأزمة خطة «للمواجهة» المباشــرة والقمع، وَفْق تقديــرات كانت لديهــا (أو ربما وَفْق تقديــرات معتــادة وخطط قديمة) لم تكن تتناســب مع حجم الحدث. وكانــت قوة المواجهة أو الصف الأول في المواجهة هي قوة الشــرطة، ولم تظهر في الدولة أية قوة أخرى: لا إعلامية ولا سياســية؛ إذ لم يجد الحزب الوطني لنفسه أي دور، وكذا أجهزة الإعلام ولا مجلس الوزراء ولا المؤسسات... إلخ.

وفــي المرحلة الثانيــة بعد ثبوت عدم قدرة الشــرطة على المواجهــة وانهيار قدرتها في ميدان التحرير، بدا أن خطة أخرى أو مرحلة أخرى جرى اعتمادها تقوم على «الاستيعاب والتفكيك» لا المواجهــة؛ فمن جانب جرى نزول القوات المســلحه والحرس الجمهوري، لحماية المنشــآت الحيوية للدولــة؛ خاصة (الإذاعة والتليفزيون، وقصر الرئاســة، ومجلسَــي الشــعب والشورى، ومجلس الــوزراء)؛ وفي ذلك اعتُمدَت فكــرة عدم المواجهة مع المتظاهريــن وتركهم يعبِّرون بحرية عن مطالبهم إلى درجة كتابة شعارات بســقوط الرئيس (القائد الأعلى للقوات المسلحة) على دبابات ومجنزرات الجيش. كما بدأ تحوُّل في لغة عدد واسع من المعروفين بمواقفهم المتحيزة «بفجاجة للحكم»، فصاروا يتحدثون بلغة متسامحة مؤيدة لمطالب الشباب المتظاهرين، مع الإشارة إلى وجــود تيارات عديدة في صفوفهم، وصار بعضهم يركز الأضواء على فكرة وجود خلاف واختلاف بين المتظاهرين يتطلب الفصل في التقديــر وطريقة التعامل بين المتظاهرين وبعضهم، وتحوَّل الأمر باتجــاه إدانة مواقف بعض الأحزاب باعتبارها متســلِّقة لحركة شبابية طاهرة، كما جرى تحميل حركة الإخوان المسلمين مســؤولية ما يجري. وهكذا بدا أن كل من في مصر صار مؤيداً لأفكار التغيير ومتقارباً وداخــلاً في إطار العمل والتفكير من أجل إحداث التغيير، وهو ما ترافق مع تعيين نائب الرئيس وبدء الحوار الوطني وتقديم بعض المســؤولين في الحكومة الســابقة وأمــين تنظيم الحزب الوطنــي إلى النيابة العامــة ومنعهم من السفر... إلخ.

لقد كان الأساس الذي بُنيَت عليه الخطة في تلك المرحلة، هو إعلان الرئيس مبارك عن عدد من القرارات كان أولها تعيين الوزير عمر ســليمان مدير المخابرات العامــة نائباً له، وتعيين الفريق أحمد شــفيق وزير الطيران المدني رئيساً للوزراء، وهو ما استُتبِع بتشــكيل الوزارة وتغيير بعض المحافظين. لقد كانت مرحلةً لاســتعادة الدولة لذهنيتها وتماسكها ووجودها لتظهر فــي ثوب جديد يُبنَى عليه مرحلةٌ جديدةٌ من الخطة. وفي تلك المرحلة عاشــت مصر حالة تطور غريبــة؛ ففترة الصباح كان القلق يســودها، وعند الظهر كان المتظاهرون يبدؤون فعالياتهم فتتحــول الأمور إلى حالة الإضطراب حتى يحل المســاء فتبدأ عجلة الدولة في الدوران علــى نحو هجومي حتى كادت حالة ميدان التحرير تتحول إلى نوع مــن التعبير عن الرأي لا حالة

ضغط شـــعبي من أجل التغيير. لقد بدا أن النظام قد استعاد عافيته وأنه قرر تقديم تنازلات لكسب أرضية تمكِّن من استعادة زمام المبادرة في الشـــارع وعلى صعيد قِطاع أوســـع من الرأي العام.

ثم عاد الحكم إلى مرحلة الهجوم في الشارع، وبغضِّ النظر عن أن ما جرى فـــي ميدان التحرير كان مجزرة أضعفت تقدُّم الحكم وهجومه ولم تحرِّكه للأمـــام، كما تصور من رتَّبها، فإن المشـــهد العام في الشـــارع أصبح متغيراً؛ صار هناك من يقف ضـــد مبارك وفي مواجهتهم صار هناك من يهتف لبقاء مبارك ويخترق الحاجز السياسي الذي طوق الحكم منذ يوم ٢٥ يناير الذي كان يوم بداية انـــدلاع ثورة الغضب. وهنا – وعلى الرغم مـــن كل ذلك – تبـــدو القضية اللافة للنظر فـــي كل ما جرى وســـيجري: أن حركة الشـــارع قد تجاوزت كلَّ الأطر القديمة وتقدمت بالأوضاع السياســـية في مصر وأوجدت واقعاً جديداً داخل الدولة وجهازها التنفيذي وعلى صعيد الحركة السياسية، ولكـــن الأمور تحولت حين جرى إقـــدام المتظاهرين على إقامة أسبوع الصمود في المقابل، وما إن جرى حشد واستعراض قوة المتظاهرين وتواصل مظاهراتهم وتوســـع أعـــداد المتظاهرين، بدخول فئات اجتماعية ذات مطالب اقتصادية واجتماعية، حتى بدأ النظام يوقن أن الحل هو تنفيذ ما يطلبه المتظاهرون الذين بدؤوا الحركة والتظاهر؛ حتـــى لا تنقلب الثورة الديموقراطية إلـــى ثورة اجتماعية؛ لذلك دخل النظام في مرحلة التماهي مع المتظاهرين، وهو ما شكَّل المرحلة الختامية للصراع التي انتهت إلى تســـليم النظام وإدارة عجلة الدولـــة كلها لتحقيق مطالب المتظاهرين.

لقد جددت الدولة المصرية نفســـها بعد ٢٥ يناير على نحو لافت للانتباه، وربما كبير ومؤثر خلال المرحلة الثانية من خطة المواجهة.

كان التجديد الأول – وهو إجباري – أن أُطيح بوزارة أحمد نظيـــف ورجال أعماله الذين نهبوا وســـلبوا أمـــوال المواطنين والأراضي، وكُلِّف رئيس الوزراء الجديد أحمد شـــفيق لخلفيته العســـكرية ولســـابق إنجازاته في وزارة الطيران المدني. وبهذا التغيير ســـقطت «دولـــة عصابات المال العـــام» وانتهت عملية اختطافهم لجهاز الدولة الذي استعادته الكتلة الصلبة في هذا الجهاز، التـــي كان لجمال مبارك أخطـــر الأدوار في إضعاف دورها في الحكم وإدارة الدولة.

وفي التجديد الثانـــي: خطى مبارك خطوة تعيين نائبٍ له، ليصبح عمر سليمان مديرُ المخابرات العامة المصرية في موقع القيادة، كان مبارك قد امتنع سنين طويلة عن أن يكون سليمان نائباً له فجاءت الأحداث ليجد نفســـه في موضع الموافق على هـــذا التعيين تحت ضغط الحركة الشـــعبية التي خاصمته هو وطالبت برحيله.

وفـــي التجديد الثالـــث: جرت عملية تطهيـــر في الحزب الحاكـــم، وكان اللافت للنظر في ذلـــك أن الرجل الذي اختير ليحل محل كلٍّ من الأمين العام الســـابق صفوت الشريف وأمين لجنة السياسات السابق جمال مبارك الطامح (سابقاً) للحلول مكان والده في رئاسة الدولة، هو الدكتور حسام بدراوي الذي كان مهمَّشـــاً ومحارباً داخل الحـــزب الوطني إلى درجة التآمر عليه وإسقاطه في انتخابات مجلس الشعب.

وفي التجديـــد الرابع: بدأت «حملة» لملاحقة الفاســـدين وعلى رأســـهم وجبة أُولَى من وزراء في حكومة د. أحمد نظيف المُقـــال بعد بداية الأحداث، إضافـــة إلى أمين تنظيم الحزب الوطني، وهو ما حمل دلالات على أن مواجهة الفساد جاءت في حدود وضمن إطار تجديد الســـلطة لذاتها ولم ترتقِ إلى حملة شاملة على الفساد المستشـــري في أروقة الدولة وأجهزتها؛ إذ لم يذهب النظام نحو تحريك الدعوى الجنائية أو التحقيق، أو إعـــادة التحقيق في بلاغات وملفات ســـبق للصحافة المصرية والأجهزة الرقابية كشفها خلال السنوات الماضية، ومنها ملفات فساد أدَّت إلى تدمير صحة المواطنين من خلال إدخال مبيدات مسرطنة للأسواق المصرية.

لكن «دولة ميدان التحرير» ســـعت إلى تجديد نفسها هي الأخرى ضمن حالة شعبية متطورة؛ إذ شعرت تلك الدولة بأنها لا تســـتطيع الاحتفاظ بكامل مجتمعها التظاهري منفصلاً عن دولة مصر؛ إذ لا تكفي مســـاحتها الجغرافيـــة لمبيت كل هذه الآلاف، فصارت تهيء أوضاعهـــا وَفْق حالة فريدة؛ حيث يعود المتظاهرون القادمون إلى داخل حدودها إلى حدود دولة مصر بعد انتهاء ساعات التظاهر؛ ولذلك شددت مطالبتها وضغطها على عدم ملاحقة الســـكان القادمين إليها أو الخارجين منها. وشـــعرت بأنها دخلت في مواجهة تحتاج إلى طول النَّفَس حتى تتمكن من تحقيق أهدافها، فقررت إعطاء المتظاهرين راحة بعد

يوم التظاهر لتعود المظاهرات في اليوم التالي. قررت تلك الدولة التحول من حالة التظاهر اليومي إلى حالة أسبوع للصمود تجري المظاهرات فيه ثلاثة أيام فقط ثم يحصل المتظاهرون على يوم إجازة بعد كل يوم تظاهر؛ حتى لا يتعرض المتظاهرون للإنهاك. وهكذا تمكَّنت «دولة ميدان التحرير» من تجديد حركتها؛ إذ صار الوافدون الجدد إليها من فئات اجتماعية أخرى لم تكن ممثَّلة ضمن مواطني الدولة وَفْق تشكيلها في يوم ٢٥ يناير الماضي، وهو ما حسم المعركة لمصلحتها. لقد صارت الدولة الجديدة تستقبل الموظفين المتضررين من الظلم وفئات سكانية لها مطالب تتعلق بالإسكان، كما صارت تستقبل كل من يريد التعبير بحرِّية عن رأيه وفنه وشعره من مواطني دولة مصر. فانتهت الأمور إلى انتصارها.

ماذا عن القادم؟

ثمة مجموعة جوانب حاكمة للنظر في اتجاهات ما يجري، وفي تحديد النتائج و(السيناريوهات) المحتمَلة:

أولاً: نحن الآن أمام مرحلة انتقالية، فوَفْقاً لما أعلنه المجلس الأعلى للقوات المسلحه الحاكم، فإننا أمام مرحلة ٦ أشهر يجري خلالها إعادة تأسيس النظام السياسي في مصر، فمجلسَي الشعب والشورى قد جرى حلُّهما، والدستور المعطل سيجري تعديل مواد فيه ومن ثَمَّ ستجري صياغة دستور يسمح بتشكيل أحزاب بأقل قيود، ويمنح الحريات السياسية والإعلامية ويحقق إشرافاً قضائياً. وتشير دلائل كثيرة إلى أننا بالفعل أمام إعادة صياغة نظام الحكم في مصر.

ثانياً: تبدو حركة التظاهر محتفظة بلياقتها وعوامل قوَّتها وضغطها، بل هي نجحت في تحويل المجتمع كله إلى حالة التظاهر والمطالبة بالحقوق، وهو ما صار يهدد بحالة فوضى وإنهاك للمرحلة الانتقالية وإن كان دافعاً في الوقت نفسه للتعجيل بإجراءات صياغة الدستور وإجراء الانتخابات... إلخ.

ثالثاً: تعيش البلاد حالة انكسار لجهاز الدولة والقائم الأساسي في قيادة مؤسسات الدولة، وهو ما يطرح احتمالات استمرار حالة الاضطراب لفترة طويلة، وخاصة أن «الثورة» انتهت إلى وضع الضغط لا إلى حالة إحلال سلطة جديدة محل سلطة قديمة.

رابعاً: تبدو الفترة الانتقالية لا تسمح حين انتهائها حسب الموعد «المضروب» حالياً بإتاحة فرصة حقيقية للحصول على نتائج «للديمقراطية» التي تدخل حيِّز التنفيذ خلال تلك المرحلة، وهو ما سيعكس أوضاع ما قبل سقوط مبارك مع بعض التعديلات في توازنات القوى وَفْقَ ما أنتجت حركة التغيير.

والمعنى أننا أمام مجموعة سيناريوهات:

أولها: القدرة على الالتزام بالمواعيد لتحقيق التغيير المنشود في النظام؛ وهو ما يعني أن الديمقراطية الجديدة والحكم القادم على أساسها لن تتمكن من الإفلات من تأثير القديم إلا بنِسَب معيَّنة؛ خاصة في ظل حالة التماهي الجارية بين مكونات النظام القديم وفعاليات وأهداف الثورة.

وثانيها: احتمال سيادة نمط من الفوضى يمنع القدرة على إنجاز التغيير في المواعيد المحدة. وإن كان الغالب في خطاب المجلس الأعلى للقوات المسلحه أن البلاد ماضية في طريق التغيير وَفْق المواعيد المضروبة.

وثمة سيناريو ثالث، ربما تدفع إليه الأحداث دفعاً؛ اذ حالة الفوضى يمكن أن تتصاعد إلى درجة الخطر، وهو ما قد يدفع للانتكاس الخطير لحالة الديمقراطية التي لم تولد بعد.

إن الحزب الوطني الذي رَأَسَه مبارك وتحكَّم فيه وحكم باستخدام تشكيلته التنظيمية قد انتهى وجوده التنظيمي وأُحرقَت مقراته، كما سقطت محاولة مبارك لإنقاذه من خلال تعيين أمين عام جديد بعد إقالة رموزه السابقة بمن فيهم نجله الطامح للرئاسة (كما كان مبارك).

مجلة البيان

جديد مجلة البيان

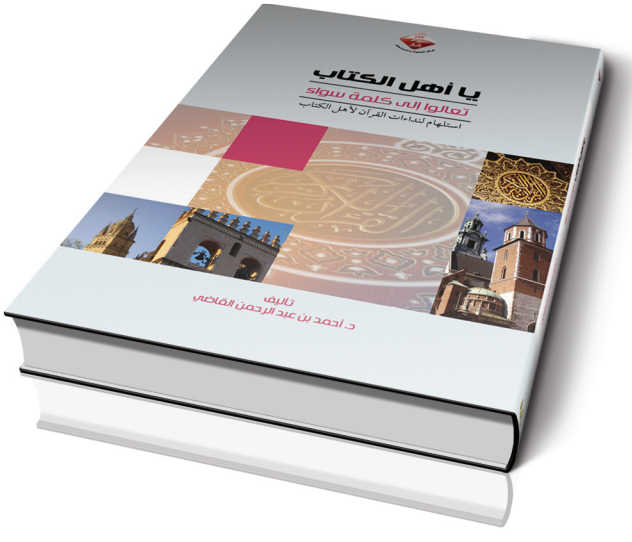

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

التصريحات الإيرانية عن الثورة المصرية... والمرايا العاكسة

أحمد عمرو

وصف المرشد الأعلى للثورة الإسلامية في إيران علي خامنئي في حديث له المظاهرات التي كانت تجري في مصر بأنها صحوة إسلامية، وأنها مستلهمة من الثورة الإيرانية، وأشار الإعلام الرسمي في إيران بصورة دعائية قوية إلى أن الذي يحدث في مصر هو «ثورة إسلامية». ومثل خامنئي أدلى عدد من المسؤولين الرسميين بسلسلة تصريحات وبيانات مركَّزة في هذا السياق، ومنهم الجنرال يحيى رحيم صفوي المستشار العسكري لخامنئي الذي قال في تصريح لوكالة فارس شبه الرسمية: «إن مصير مبارك سيكون كمصير الشاه؛ تطيح به قوى الثورة الإسلامية».

كما أكد الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد على أن الشرق الأوسط «سيتخلص قريباً من الولايات المتحدة وإسرائيل»، متطرقاً في خطابه لمناسبة الذكرى الثانية والثلاثين لانتصار الثورة الإسلامية بالإضافة إلى ثورتَيْ تونس ومصر. وقال أحمدي نجاد: «أقول للشعوب والشباب في الدول العربية والإسلامية وخصوصاً المصريين: كونوا متيقظين؛ من حقكم أن تكونوا أحراراً وأن تختاروا حكومتكم وقادتكم». وألقى أحمدي نجاد خطابه أمام حشد هائل في ساحة أزادي (الحرية) في وسط طهران. وردد الحشد هتافات دعم لثورتَي مصر وتونس وشعاريهما التقليديين «الموت لأمريكا» و «الموت لإسرائيل»[1].

كما ركب تلك الموجة أيضاً الإيراني الهوى والمذهب زعيم حزب الله اللبناني (حسن نصر الله) الذي أطل بكلمة ألقاها في مهرجان نظمته قوى متحالفة مع الحزب دعماً للثورة في مصر، اعتبر فيها أن ما يجري في مصر هو «ثورة وطنية»، وأكد أنه يضع إمكانات حزبه تحت تصرف المحتجين). والتقط الإعلام المصري وقتها الخيط وظل يدندن حول علاقة إيران بما يحدث في مصر، في محاولة لربط كل ما يحدث بقوى خارجية ممثَّلة بـ (إيران) واصفاً إياه بأنه مؤامرة خارجية تستهدف أمن مصر، وفتح الإعلام المصري لكثير من الحناجر الصارخة من (مشايخ، وصحفيين، وسياسيين) أبوابه مشرعة لينفخوا في تلك النار؛ فالمشايخ تحدثوا عن خطر المذهب الشيعي على عقيدة الأمة، والسياسيون حذروا من الخطر

(١) نجاد: «الشرق» سيتخلص من أمريكا و (إسرائيل)، خبر على موقع فلسطين أون لاين، الجمعة ١١ فبراير ٢٠١١م.

التمدد النووي الإيراني الذي يريد أن يجتاح المنطقة، حتى وصل بالإعلام الرسمي المصري إلى إيراد شهادات تفيد برؤية أشخاص يحملون ملامح إيرانية؛ وكأن الإيرانيين أتوا من كوكب آخر، لهم ملامح مميزة على بقية البشر!

فهل صحيح أن النظام الإيراني يدعم ثورة المصريين على ظلم حكامهم، وأنه يريد أن يرى مصر دولة تسودها الحرية والأمن وتتمتع بقدرات اقتصادية وسياسية وعسكرية كبيرة في المنطقة؟ هل هذا فعلاً ما تريده إيران؟ وكيف يمكن لنا قراءة مثل تلك التصريحات؟

المرايا العاكسة وعربة الإسعاف:

كنت وأنا صغير لا أستطيع قراءة كلمة (إسعاف) المكتوبة فوق سيارات المستشفيات التي تحمل المرضى، ثم تبيَّن لي بعد ذلك أنه لكي أستطيع أن أقرأ الكلمة بشكل سليم، لا بد من النظر إليها من خلال مرآة عاكسة؛ لذلك فكلمة (إسعاف) كتبت بهذا الشكل خاصة لأصحاب السيارات، حتى إذا نظروا في مرآة سياراتهم استطاعوا قراءة كلمة إسعاف بشكل سليم؛ فيفسحوا لها الطريق.

فأحياناً لا نستطيع رؤية الحقيقة إلا إذا نظرنا لها في المرآة؛ بحيث نعكس مكوناتها فنتبين مرادها. وهذا الأمر ينطبق بشكل كبير على التصريحات الإيرانية الأخيرة.

فلنا أن نتمثل تصريحات خامئني عن إسرائيل بأنها سرطان يجب استئصاله، أو تصريحات نجاد العنترية التي تدعو لمحو إسرائيل من الخريطة. أو هتافات الجموع مع نجاد بالموت لأمريكا والموت لإسرائيل كل تلك التصريحات من لدن اندلاع الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م وحتى الآن ما هي إلا مواقف إعلامية ساخنة تسعى لخداع جماهير المسلمين حتى صدَّق كثير من أبناء العالمين العربي والإسلامي تلك الشعارات وظنوا أنها حقيقة، دون أن يتنبهوا إلى نظرية المرآة التي أوردناها.

فإيران الثورة التي تنادي بالموت لإسرائيل لم تطلق رصاصة واحدة تجاه الصهاينة، بينما عرفت كثيراً منها [أي الرصاصات] صدور أهل السُّنة في العراق وأفغانستان؛ فقد نقلت صحيفة «الشرق الأوسط» اللندنية في ٢٠٠٢/٢/٩م عن الرئيس الإيراني السابق علي أكبر هاشم رفسنجاني قوله: «إن القوات الإيرانية قاتلت طالبان، وساهمت في دحرها، وأنه لو لم تساعد قواتهم في قتال طالبان لغرق الأمريكيون في المستنقع الأفغاني». وأضاف: «يجب على أمريكا أن تعلم أنه لولا الجيش الإيراني الشعبي ما استطاعت أمريكا أن تُسْقط طالبان». وبمثل تلك التصريحات أكد محمد على أبطحي نائب الرئيس الإيراني للشؤون القانونية والبرلمانية الذي وقف بفخر في ختام أعمال مؤتمر الخليج وتحديات المستقبل الذي ينظمه مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية سنوياً بإمارة أبو ظبي مساء الثلاثاء ٢٠٠٤/١/١٥م ليعلن أن بلاده «قدمت كثيراً من العون للأمريكيين في حربيهم ضد أفغانستان والعراق»، مؤكداً أنه «لولا التعاون الإيراني لما سقطت كابول وبغداد بهذه السهولة».

فتلك التصريحات لم تَصُب إلا في مصلحة إسرائيل؛ بحيث تُظهرُها أمام العالم على أنها دولة مضطهدة ومهددة؛ لذا فهي تستحق كل الدعم، حتى حديث النظام الإيراني عن امتلاك التكنولوجيا النووية هو في النهاية يعطي شرعية أكبر لإسرائيل النووية.

ومن التناقضات العجيبة أنه في توقيت متزامن مع تلك التصريحات أوردت وكالات الأنباء خبراً عن اقتحام قوات الأمن الإيرانية مصلىً لأهل السُّنة في طهران وأغلقته بالشمع الأحمر، إضافة إلى اعتقال «مولوي عبيد الله موسى زاده» الذي يؤم الناس فيه.

ونسب موقع (العربية نت) إلى مصادرَ قولَها: إن السلطات لا تسمح لأهل السُّنة بإنشاء مساجدَ لهم في طهران رغم المساعي التي بذلها أهل السُّنة منذ انتصار الثورة الإسلامية، وأنها أوعزت إلى قوات الأمن باقتحام المصلى الخاص بأهل السُّنة، والواقع في منطقة سعادت آباد في طهران، وختمته بالشمع الأحمر، واعتقلت إمام المصلى وهو «مولوي عبيد الله موسى زاده»[1].

وذكر الموقع أيضاً: «أنه لمن المؤسف في الوقت الذي لا يمتلك أهل السُّنة في العاصمة الإيرانية أي مسجد لكي يقيموا فيه صلواتهم الخمس، لا يتحمل المسؤولون فيها وجود حتى مصلَّيات لأهل السُّنة؛ بحيث تواجه هذه المصليات خطر إغلاقها بالشمع الأحمر؛ وذلك خلافاً للقانون والشريعة الإسلامية، هذا في الوقت الذي لا تتصرف الدول غير الإسلامية مع الأقليات المسلمة بمثل هذه الطريقة».

أليس تناقضاً عجيباً أن تغلَق مصليات أهل السُّنة في

(١) إغلاق مصلى أهل السُّنة في طهران بالشمع الأحمر واعتقال إمامه، العربية نت، الأربعاء ٦ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ٩ فبراير ٢٠١١م.

طهران الذين ليس لديهم مسجد واحد في العاصمة الصفوية، فـي حين أن الذين يتظاهرون في مصـر خرجوا رفضاً للظلم والذل وإهدار الحقوق.

والسـؤال الذي يطرح نفسـه هو: ما الـذي يريده النظام الإيراني من وراء تلك التصريحات؟

نسـتطيع أن نقـرأ التصريحات الإيرانية الأخيرة بشـأن النظام المصري في ضوء عدد من النقاط:

أولاً: إذا نجحت الثورة فسـيكون للنظـام الإيراني فضل السبق في الترحيب بالثورة في الوقت الذي تتواتر فيه الأخبار عن صمت معظم الأنظمة العربية، بل أشـارت تقارير إخبارية كثيرة إلى أن بعض دول المنطقة كانت تقوم بالفعل بالضغط على أمريكا لكي لا تنحاز للشعب المصري وتتخلى عن مبارك سريعاً، فيكون للنظام الإيراني بذلك يد عند النظام الجديد، والسـبق بالانحياز إليه.

إن النظـام الإيراني كان يلاقي فتوراً في العلاقات بينه وبين النظام المصري [السابق] منذ فترات طويلة، وصل هذا الفتور إلى ذروته إبان الكشف عن خلايا لحزب الله الشيعي في مصر، وهو يريـد أن يحجز له مقعداً متقدماً في الصفوف الأولى، على أمل أن تتغير معادلة العلاقات بينه وبين النظام المصري الجديد.

ثانيـاً: إن الأمر الـذي أرى أن النظام الإيراني يهدف إليه حقيقـة، هو إعطاء غطـاء إعلامي لحمـلات التخويف التي يطلقهـا النظام المصري من صعود قوى إسـلامية إلى منصة السلطة في مصر في وجه القوى الدولية؛ فكثير من السياسيين أعربوا عن خشيتهم من قفز الإسلاميين على السلطة، وإعلام النظام المصري يلوح بعملية تخوين جماعية للمتظاهرين بربطهم بجماعـة الإخوان ومن ثَمَّ إيران. ومن ثَـمَّ جاءت التصريحات الإيرانية كأنها تقول: إن كل تخوفاتكم من الإسلاميين صحيحة، والحديـث عن مؤامرة خارجية من خـلال اليد الإيرانية ليس مستبعَداً.

وقد أعجبني رأي أحد المحللين عندما أشـار إلى أنه لو قدِّر أن تلك الثورة في مصر شـيعية حقيقة؛ لأسـرع النظام الإيراني إلى التبرؤ منها، خاصة في الظرف الدولي الحالي؛ حتى لا يجري إجهاضها سريعاً.

ثالثـاً: نسـتطيع أن نقرأ أيضاً تلك التصريحات في ضوء أنها رسالة موجهة للداخل الإيراني أيضاً؛ فخامنئي الذي وقف متفاخراً وهو يخاطب الشـعب الإيراني بقوله: (إن هذه الثورة من أصدائكم) يريد أن يقول بذلك: إن ثورات المسـلمين السُّنة هي مستلهمة من ثورة إيران وانتفاضتها ضد الشاه.

رابعـاً: منـع الشـعب الإيراني مـن التضامن مـع الثورة المصريـة. ولـم يتوقـف الأمـر عند المنـع؛ بـل ترافق مع موجـة اعتقـالات جديدة فـي أوسـاط المعارضـة، بينما حوصـر أحـد أبـرز شـخصيات الإصلاحيـين الرئيـس السـابق لمجلـس الشـورى مهـدي كروبـي في منزلـه[1]. وقامـت السـلطات الإيرانية في نهاية المطاف بسـحق حركة الاحتجـاج هـذه وقمعها بشـدة، وهـو ما أدى إلى سـقوط عشـرات القتلى واعتقال كثيرين بينما صدرت عقوبات قاسية في بعـض الأحيان بحق سياسـيين ومثقفين مـن المعارضة. والجمعة الماضية سُمِح فقط لمناصري السلطة بالتجمع بكثافة والنزول إلى الشـوارع للاحتفال بذكرى الثورة الإسلامية بعدما حذرت السلطات المعارضين من أي محاولة للمساس بـ (الوحدة الوطنية).

ففـي الوقت الذي جـرى فيه قمع المظاهـرات الإيرانية (الحركة الخضراء) التي نزلـت فيها ملايين تابعة للحركة إلى الشارع هاتفين «أين صوتي؟» مطالبين بحقوقهم، التي تمَّ سلبهم إياها مـن قِبَل النظام، وهو الأمر الأقرب شَـبَهاً بواقع الثورة المصرية، من وصـف خامئني لها بالثورة بالإسـلامية؛ لذلك حرص النظام الإيراني وإعلامه على أن يسحب تلك الثورة إلى رصيده بادِّعائه أنها مستلهَمة من الثورة الإيرانية.

وأخيراً نستطيع أن نقول: إن النظام المصري لم يكن في حالة من التوافق التام مع النظام الإيراني، إلا أن الإيرانيين يشـعرون بالخوف من حدوث هزة إقليمية قوية تفتح أمام الشعوب المنطقة العربية ذات الأغلبية السُّنية أبواب الحرية، وهو ما سيكدر الوسط الملائم الذي يعمل من خلالـه النظام الإيراني الذي يتحدث عن مظلومية الشعوب وقهرها ويلعب كثيراً على هذا الوتر.

كمـا أن مصر القوية ذات النفوذ - على الأقل في محيطها الإقليمي - سـتكون خصماً ولا شـك للنفوذ الإيراني المتنامي، وفي هـذا إحباط للمخططات الإيرانيـة الرامية للهيمنة على الإقليـم؛ لذا يبتعد كثيراً من يظـن أن النظام الإيراني يرغب حقيقة في نجاح تلك الثورة الوليدة.

(١) طهران تمنع المظاهرات المؤيدة لمصر، الجزيرة نت، الأحد ١٤٣٢/٣/١٠ هـ - ٢٠١١/٢/١٣ م.

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات
تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

النفاق الغربي ودروس لمن يفهم!

عامر عبد المنعم
aamermon@alarabnews.com

كشفت مواقف الدول الغربية تجاه الثورتين في تونس ومصر عن أزمة حقيقية يعيشها زعماء أوروبا وأمريكا تجاه ما يحدث من انقلاب شعبي إستراتيجي، سيترتب عليه تغيير خريطة المنطقة والعالم؛ إذ لم يُسقِط الثوار نظامين يحكمان البلدين فقط؛ وإنما أسقطوا أيضاً جانباً كبيراً من سياج الهيمنة الذي ظل مفروضاً على البلدين منذ عقود، وأربكت الثورتان قادة الغرب الذين أصبحوا عاجزين أمام انقلاب الشعبين في تونس ومصر.

لقد فقد زعماء الغرب صوابهم وانقلبواعلى أنفسهم، وفُضِحَت المواقف الغربية انتهازيةً ونفاقاً فاق كل الحدود؛ لقد ساندوا حلفاءهم حتى النهاية، وبمجرد سقوطهم تنكروا لهم وانقلبوا عليهم وزعموا أنهم مع الشعوب يناصرون الحرية.

ففي تونس ساندت فرنسا الطاغية بن علي حتى الرمق الأخير، وأعلنت الحكومة الفرنسية عن استعدادها لتقديم ما يلزم من أسلحة وعتاد لقمع الثورة، ولكن بمجرد فرار بن علي، وركوبه الطائرة انقلبوا عليه ومنعوا طائرته من الهبوط في الأراضي الفرنسية، وتركوه يحوم في السماء حتى تعطَّفت عليه السعودية واستقبلته على أراضيها، وفوجئنا بساركوزي الذي كان صديقاً حميماً لابن علي وقبلها بأيام استقبله بالأحضان يتملق الشعب التونسي ويتبرأ من الرئيس المخلوع ويمنعه من دخول فرنسا، ويعرض تقديم المساعدة للشعب التونسي الثائر.

وسار الأوروبيون على خطى ساركوزي وقررت الحكومات الغربية تجميد الأموال التي هرَّبها بن علي إلى الخارج، وكان الموقف الأمريكي أشدَّ نفاقاً؛ إذ أصبح بن علي الذي قدم للأمريكيين خدمات لا تقدر بثمن، وحارب الإسلامَ من أجلهم، وحوَّل بلده إلى رأس حربة ومفرزة متقدمة لمحاربة المد الإسلامي، أصبح ديكتاتوراً شريراً، وامتدح أوباما وكلينتون والقادة الأمريكيون الشعب التونسي وحيوا جميعاً الشاب محمد بوعزيزي مشعل الثورة واعتبروه رمزاً للحرية.

ولم يستوعب الرئيس المصري السابق حسني مبارك الدرس وطمأن الغرب، وعاش في وهم مفادُه: أن مصر ليست كتونس، وأن رياح الثورة التي ضربت تونس لن تصل إلى مصر، ولكن لم يمتد به الزمان طويلاً حتى قام الشعب المصري بثورته العظيمة وأطاح بفرعون مصر الذي دام حكمه ٣ عقود، ويتكرر السيناريو الغربي نفسه تجاه ثورة الشعب.

بذل ساسة الغرب محاولات مضنية لانقاذ مبارك، ثم الضغط عليه للالتفاف على الثورة ونقل السلطة الى نظام حكم موالٍ، وطالبوه بالبقاء في مصر حتى آخر لحظة لنقل السلطة، ولكن فور تنحيه بقرار من الجيش تحول مبارك (أقرب الحلفاء في نظر الغرب) إلى ديكتاتورٍ ورمزٍ للفساد، وتحوَّل

الشـــعب المصري إلى بطل، وأنه «يكتب التاريخ»، وقال أوباما: إن المصريين أثبتوا «قوة الكرامة الإنســـانية». وجمَّدت سويسرا حســـاباته البالغة أكثر مـــن ٣ مليـــارات دولار وأعلنت الدول الأوروبية استعدادها لتجميد الأموال المهربة وردِّها إلى مصر.

هذا النفاق الغربي وخيانـــة أمريكا وأوروبا لأقرب حلفائهم يؤكد أنهم انتهازيون يبحثون عن مصالحهم، وأنهم أول من يتنكر للحكام الذين يخونون شعوبهم؛ فمثلهم والحكام العملاء ﴿كَمَثَلِ الشَّـيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَـانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦]. ليـــس لهم صديق مقرب ولا حليـــف حميم، ولديهم القدرة على التلوُّن في الساعة الواحدة بين موقف ونقيضه، والانقلاب على ما يدَّعونه من مبادئ زائفة والتنكر لما يعلنونه من قيم كاذبة.

وهـــذا النفاق الغربـــي بقدر ما يفضح أمريـــكا وحلفاءها الأوروبيين فإنه يقدم دروساً مفيدة للحكام في العالم الإسلامي الذين قد يفهمون هذه الدروس التي أهمها ما يلي:

• أن الغرب ليس له صاحـــب أو صديق، وأي حاكم يحارب الله ورسوله ويخون شعبه من أجل أمريكا والدول الأوروبية؛ فإنه كمن يتعلق بزبد البحر.

• لم تعد خزائن الغرب آمنة لتهريب أموال الشعوب وسوف تجري مصادرتها، وستتحول الأموال المسروقة إلى حسرة وندامة تجلب العـــار والمحاكمة؛ ولذلك من الأولـــى أن يتوقف الحكام اللصوص عن السرقة ويهتموا بتنمية بلادهم.

• من يبيعون أوطانهم للغرب لن يحصدوا غير الندامة، ولن يجدوا ملاذاً آمناً هناك؛ إذ ثبت أن الغربيين يتبرؤون من هؤلاء العملاء ويديرون لهم ظهورهم ويرفضون دخول الطغاة العملاء إلى بلادهم حتى ولو كانوا يملكـــون قصوراً وعقارات في هذه الدول.

• من يطغى ويستبد تضيق عليه الأرض بما رحبت، ولن يجد مأوى إلا بشـــق الأنفس أو الاختباء كالجرذان المذعورة وانتظار الموت رعباً وخوفاً.

• من يضعون أموالهم في دول الغرب عليهم أن يســـحبوها بأنفســـهم ويعيدوها إلـــى بلادهم؛ لأنهم لن يســـتفيدوا منها ومصيرها الضياع.

إن على الحكام المســـتبدين في العالم الإسلامي استيعاب الدروس من الثورتين التونســـية والمصريـــة، والتوبة عن النهج الخاطئ، وعليهم الإســـراع بالكفر بالغرب والعودة إلى الإيمان بالله والتمسك بالثوابت التي ضيعوها، فليس لهم ملجأ من الله إلا إليـــه، فالعاقل من يعي الدرس ويســـرع بالنجاة ويبتعد عن طريق التهلكة الذي سار فيه بن علي وحسني مبارك، فلا زالت هناك فرصة ومتسع من الوقت.

إننا أمام ريح ربانية تعيد تشـــكيل العالم، وتســـقط أركان الباطل، وما رأيناه ما هو إلا تصريفٌ فوق تصور البشر، وآيات وعبر لمن يعتبر، فاعتبروا يا أولي الألباب.

أما من لا يريد أن يفهم ولايريد أن يستوعب، فهو كمن يرى الإعصار المدمر يسرع نحوه ولا يريد أن يتحرك.

مرصد الأخبار

جـــلال ســـعـــد الـــشـــايـــب
galal_elshayp@hotmail.com

استقالة عريقات بعد حزمة التنازلات

قـــدَّم رئيس دائـــرة المفاوضات في منظمـــة التحرير الفلســـطينية صائب عريقـــات اســـتقالته مـــن منصبه بعد أن أظهـــر التحقيق الـــذي أجرته لجنة شـــكلتها القيادة الفلسطينية أن الوثائق التـــي حصلـــت عليها الجزيرة بشـــأن المفاوضات الفلســـطينية الإســـرائيلية أُخذَت من مكتب دعم المفاوضات الذي يترأسه عريقات.

وشـــارك عريقات في المفاوضات مع إســـرائيل على امتداد نحو من عشرين عاماً، مشـــيراً إلى أن الموقف من قضايا القدس واللاجئين والحدود استندت إلى قرارات الشـــرعية الدولية، وَفْق ما سُلِّم من وثائق إلى الجانب الإسرائيلي والإدارة الأمريكية وجامعة الدول العربية.

وفي المقابل علقـــت حركة المقاومة الإســـلامية حماس بقولها: إن استقالة عريقات عملت على تأكيد فشل عملية التســـوية، ودليـــل واضح علـــى تورط الســـلطة. كما أكد د. ســـلمان أبو ستة (المنســـق العام لمؤتمر حـــق العودة) أن مضمـــون الوثائق وليس تســـريبها هو أســـاس المشكلة، معتبراً أن ما جرى هو بداية النهاية لنهـــج التفريط في اتفاق أوســـلو الذي وقعته القيادة الفلسطينية مع إســـرائيل عـــام ١٩٩٣م. مضيفاً أن المطلـــوب هـــو إقالة كل فريق أوســـلو، ومحاسبتُهم قانونياً بالتفريط بالحقوق الفلسطينية، وهدر المال العام، والتواطؤ مع العدو.

[موقع الجزيرة: ٢٠١١/٢/١٢م]

المالكي يخفِّض مرتبه إلى النصف

تجنباً لما وقع في تونس ومصر وجَّه رئيس الوزراء العراقي (نوري المالكي بخفض راتبه بواقع النصف، مساهمة منه لتقليل التفاوت الحاصل بين رواتب الموظفين في مؤسسات الدولة، وربما يساعد في تقليص الفوارق في المستوى المعيشـــي لمختلف طبقات المجتمع، وجاء ذلك مع تنامي الســـخط الشعبي في الدول العربية جراء تردِّي الأوضاع المعيشـــية وللمطالبة بالديمقراطية وتزايد معدلات الفقر والبطالة وتهالك الخدمات العامة وانقطاع المياه.

وشهدت العراق احتجاجات تنادي بتحســـين الخدمات العامة والأوضاع المعيشية والاقتصادية مســـتوحاة من انتفاضات شهدتها تونس دفعت لخروج الرئيـــس المخلوع (زيـــن العابدين بن علي)، وأخرى في مصـــر تنادي برحيل الرئيس، حسني مبارك (وهو ما تحقق بالفعل).

وكان العراقيون قد خرجوا إلى شـــوارع بغداد منددين بتفشـــي الفقر وارتفاع معدلات البطالة التي بلغت ٤٥ في المائة ونقص المواد الاستهلاكية والمياه والكهرباء.

[موقع سي إن إن بالعربي: ٢٠١١/٢/٥م]

اعتزام الإخوان تأسيس حزب سياسي

أكدت جماعة الإخوان المســـلمين فـــي مصر، اعتزامها تأســـيس حزب سياسي، وذلك بمجرد رفع القيود التي حالت دون تحقيقها وجماعات أخرى ذلك، أثناء حكم الرئيس السابق حسني مبارك.

وأضافت في بيانٍ لها نشر على موقع الجماعة على الإنترنت، أنها أعلنت رغبتها في تأســـيس حزب قبل سنوات، ولكن قانون الأحزاب الذي كان أحد القيـــود المفـــروضة على النشـــاط الســـياســـي أثناء حكـــم مبـــارك حال دون تحقيق ذلك.

وتابعت في البيان نفســـه «عندما يتحقق المطلب الشـــعبي بحرية تكوين الأحزاب سوف تنشئ الجماعة حزباً سياسياً».

[وكالة رويترز الإخبارية (بتصرف) ٢٠١١/٢/١٥م]

إذا كنت مصرياً فلا تقرأ هذا المقال!

تحت هذا العنوان كتب الصحفي محمد سعيد محفوظ مستنكراً موقف كل من يجلس في بيته ويقرأ مقاله، وإخوانه في الشارع وفي ميدان التحرير. وكان محفوظ قد بدأ مقاله بقوله: «ماذا تفعل هنا؟ لماذا تجلس هكذا، وتقرأ الأعمدة والمقالات في أريحية واستسلام؟ ليس هذا هو وقت القراءة، هذا هو وقت الفعل، هذا هو وقت الجد، هذا هو وقت التحرك... مكانُك في الشارع مع إخوانك وأخواتك الذين غادروا بيوتهم وهم لا يعلمون متى سيعودون إليها، حطَّموا حاجز الخوف والفزع من أسلحة وقنابل الشرطة والأمن المركزي، نذروا دماءهم ثمناً لتحرير مصر من قيد الظلم وقبضة الفساد».

مؤكداً على أن «هذه الكلمات التي تقرأها الآن ليست بأفضل من الهتافات العفوية التي تنطلق من الحناجر. لن تدخل التاريخ بقراءة مقالي، ولن تحظى بالكرامة إذا بقيت تقلب في الإنترنت عن أخبار المصابين والقتلى، كي تبرر خنوعك وتخاذلك، لن تستحق مصريتك إلا بالانغماس في تيار التغيير والتطهير، والانخراط في الثورة الكاسحة التي ستبدل وجه بلادنا... بماذا ستجيب أبناءك إذا سألوك: أين كنت وقت الثورة؟ كيف ستنظر إلى نفسك في المرآة إذا أصيب جارك أو قُتلَت زميلتك، وأنت تجلس في غرفتك مسترخياً؟ بأي وجه ستقابل أصدقاءك الذين قضوا الليل أمام عربات الأمن المصفحة، يستنشقون الغاز المسيل للدموع، ويصبرون على البرد والجوع، بينما أنت تنام على فراشك، وتعانق وسادتك؟».

[موقع الدستور المصري ثاني أيام الثورة المباركة: ٢٠١١/١/٢٦م]

صندوق إنقاذ دائم بقيمة ٥٠٠ مليار يورو

وافق وزراء مالية دول منطقة اليورو خلال اجتماعهم في بروكسل على إنشاء صندوق دائم لمساعدة دول المنطقة بقيمة ٥٠٠ مليار يورو (٦٧٣,٢ مليار دولار).

وسيطلق على الصندوق (آلية الاستقرار الأوروبي) وسيحل بدلاً من الصندوق الأوروبي لتحقيق الاستقرار المالي الذي استُحدث العام الماضي لمساعدة دول المنطقة المتعثرة.

ويأتي ذلك الاتفاق في إطار حزمة شاملة من الإجراءات التي يأمل القادة الأوروبيون الاتفاق عليها قبل نهاية مارس المقبل لمواجهة أزمة الديون الأوروبية التي أضرت باقتصاديات المنطقة العام الماضي.

وسيقوم صندوق النقد الدولي بالمساعدة في تمويل الصندوق الجديد من خلال مساهمات تطوعية من الدول غير الأعضاء في منطقة اليورو؛ على أن تصل مساهمته في الصندوق الجديد إلى ٢٥٠ مليار يورو وهو المبلغ نفسه الذي يساهم به في الآلية الحالية التي جرى من خلالها مساعدة دول مثل اليونان وإيرلندا.

[موقع بي بي سي العربي: ٢٠١١/٢/١٥م]

سبحان مُغيِّر الحال

أحال النائب العام المصري عبد المجيد محمود بلاغاً لنيابة أمن الدولة العليا يتهم وزير الداخلية السابق حبيب العادلي بالتورط في تفجير كنيسة القديسين بالإسكندرية ليلة رأس السنة.

وكان المحامي ممدوح رمزي قد قدم بلاغاً للنائب العام يتهم فيه العادلي بالتورط، والتسبب في التفجير الذي أدى لمقتل ٢٣ شخصاً وإصابة ٩٧ آخرين.

وقال رمزي: «إننا كمحامين لا نتقدم ببلاغ إلا إذا كان دليلنا بيميننا»، مضيفاً «قدمتُ البلاغَ بناءً على ما نُشِر في صحف ومدونات من أن المفجرين لجؤوا إلى السفارة البريطانية».

وأوضح رمزي أن معلوماته تفيد بأن هناك تشكيلاً يعمل منذ ست سنوات، وأن الرائد فتحي عبد الواحد المقرب من الوزير هو المسؤول عن التفجير.

[اليوم السابع: ٢٠١١/٢/٨م]

علامة تعجب

يطالب الفلسطينيين بالثورة، ويتسعد لإجهاضها على أرضه!

طالب الزعيم الليبي معمر القذافي اللاجئين الفلسطينيين أن يستفيدوا من الثورات الشعبية في الشرق الأوسط عن طريق التظاهر السلمي على حدود الأراضي الفلسطينية المحتلة حتى تستسلم إسرائيل لمطالبهم.

وجاءت تصريحات القذافي في ذكرى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وبعد انتفاضة شعبية في مصر أجبرت الرئيس السابق حسني مبارك على التنحي.

وفي فارقة من فوارق الزمن أن الزعيم القذافي في الوقت الذي ينادي للثورة بفلسطين يحرِّم استخدام الفيس بوك في ليبيا، فقد أعربت الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان عن دهشتها لاستمرار الزعيم الليبي في التحذير من موقع الشبكات الاجتماعية «فيس بوك» واعتقال بعض نشطائه و نشطاء الإنترنت في ليبيا.

وأوضحت الشبكة أن موقف الزعيم الليبي جاء بسبب دعم هؤلاء للثورة الديمقراطية في مصر، ودعوتهم لإجراء إصلاحات ديمقراطية واقتصادية هناك.

وأضافت: «أنه سيراً على خطى الرئيس التونسي المخلوع زين العابدين بن علي، اعتقلت أجهزة الأمن الليبية الناشط الليبي وسجين الرأي السابق جمال الحجي بتهمة ملفقة وهي ارتكابه لحادث سيارة، وهي الاتهامات نفسها التي اعتاد بن علي تلفيقها للمعارضين والنشطاء السياسيين أثناء فترة حكمة».

[جريدة الأهرام ومواقع: ٢٠١١/٢/١٢م]

مفاهيم سياسية

أفرزت الأحداث المعاصرة التي تمر بها بلادنا العربية العزيزة، مفاهيم فكرية متباينة حول نوع الشرعية التي يفرضها الواقع، ومنها:

أولاً: الشرعية الدستورية (الدستور):

وهو القانون الأعلى الذي يحدد القواعد الأساسية لشكل الدولة (بسيطة أم مركبة؟) ونظام الحكم (ملكي أم جمهوري؟) وشكل الحكومة (رئاسية أم برلمانية؟) وينظم السلطات العامة فيها من حيث التكوينُ والاختصاصُ والعلاقاتُ التي بين السلطات، وحدود كل سلطة، والواجبات والحقوق الأساسية للأفراد والجماعات، ويضع الضمانات لها تجاه السلطة.

ويشمل اختصاصات السلطات الثلاث (السلطة التشريعية، والسلطة القضائية، والسلطة التنفيذية)، وتلتزم به كل القوانين الأدنى مرتبة في الهرم التشريعي؛ فالقانون يجب أن يكون متوخياً للقواعد الدستورية، وكذلك اللوائح يجب أن تلتزم بالقانون الأعلى منها مرتبة إذا ما كان القانون نفسه متوخياً القواعد الدستورية. وفي عبارة واحدة تكون القوانين واللوائح غير شرعية إذا خالفت قاعدة دستورية واردة في الوثيقة الدستورية.

ثانياً: الشرعية الثورية (الثورة):

للثورة عدة تعريفات معجمية تتلخص بتعريفين ومفهومين، التعريف التقليدي القديم (الذي وضع مع انطلاق الشرارة الأولى للثورة الفرنسية)، وهو: قيام الشعب بقيادة نخب وطلائع من مثقفيه لتغيير نظام الحكم بالقوة.

أما التعريف أو الفهم المعاصر والأكثر حداثةً فهو: التغيير الذي يُحدثه الشعب من خلال أدواته كـ (القوات المسلحة) أو من خلال شخصيات تاريخية لتحقيق طموحاته، لتغيير نظام الحكم العاجز عن تلبية هذه الطموحات، ولتنفيذ برنامج من المنجزات الثورية غير الاعتيادية.

والمفهوم الدارج أو الشعبي للثورة فهو الانتفاض ضد الحكم الظالم.

وقد تكون الثورة شعبية، مثل: الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وثورات أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩م وثورة أوكرانيا المعروفة بالثورة البرتقالية في نوفمبر ٢٠٠٤م، أو عسكرية وهي التي تسمى انقلاباً، مثل: الانقلابات التي سادت أمريكا اللاتينية في حقبتي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، أو حركة مقاومة ضد مستعمر مثل الثورة الجزائرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢م).

[مصادر]

قال رئيس الجهاز المركزي للمحاسبات جودت الملط: إن الدَّين العام لمصر بلغ ١٠٨٠ مليار جنيه في يونيو ٢٠١٠م بما يعادل ٨٩,٥ ٪ من الناتج المحلي الإجمالي.

ونقلت وكالة أنباء الشرق الأوسط عن جودت الملط قوله: إن الرقم يشمل الدين المحلي البالغ ٨٨٨ مليار جنيه، ويعادل ٧٣,٦ ٪ من الناتج المحلي. ولم يذكر أرقاماً للمقارنة، لكنه أوضح أن البيانات تُظهر أن الدَّين العام قد تجاوز الحدود الآمنة.

وأكد الملط أنه أرسل خلال المدة من يوليو ٢٠٠٤م حتى يوليو ٢٠١٠ وهي مدة حكومة الدكتور أحمد نظيف نحو ألف تقرير رقابي إلى الرئاسة، ومجلس الشعب، ومجلس الوزراء، والرقابة الإدارية، والمحافظين.

وكشف الجهاز المركزي للمحاسبات عن أن عدد مَن ينتمون إلى خط الفقر الأدنى يصل إلي١٦,٢٣٢ مليون نسمة بنسبة ٢١,٦ ٪ على مستوى الجمهورية، وترتفع نسبة الفقر في محافظات الصعيد لتصل إلى ٦١ ٪ في أسيوط، و ٤٧,٥ ٪ في سوهاج، و ٤١,٤ ٪ في بني سويف. [موقع الإسلام اليوم: ٢٠١١/٢/١٥م]

حذرت منظمة الصحة العالمية من أن المشروبات الكحولية تتسبب في حوالي ٤ ٪ من الوفيات حول العالم، وهي نسبة تزيد عن عدد الوفيات بالإيدز أو السل أو حوادث العنف.

كما أكدت المنظمة في تقريرها السنوي عن آثار الكحوليات على الصحة في العالم أن ٢,٥ مليون شخص تقريباً يموتون كل عام لأسباب متصلة بالكحوليات.

وقال التقرير: «الاستخدام الضار للكحوليات يؤدي للوفاة بشكل خاص بين المجموعات من الفئة العمرية الأصغر سناً، والكحوليات هي عامل الخطر الرئيسي للوفاة في العالم بين الذكور الذين تتراوح أعمارهم من ١٥ إلى ٥٩ عاماً».

[محطة أخبار سوريا: ٢٠١١/٢/١٢م]

قال مكتب الميزانية بالكونغرس الأمريكي: إنه يتوقع عجزاً في الميزانية الأمريكية في السنة المالية الحالية ١,٤٨ تريليون دولار، ارتفاعاً عن توقعات سابقة بلغت ١,٠٧ تريليون دولار.

ويواجه الرئيس الأمريكي (باراك أوباما) معارضة لسياساته الاقتصادية، داخل الكونغرس الذي أصبح يسيطر عليه الجمهوريون، بينما يقترب الدَّين الأمريكي للمرة الأولى من الحد الأقصى القانوني؛ إذ فاق ١٤ تريليون دولار، وَفْقاً لبيان وزارة الخزينة الأمريكية.

وبلغ حجم الدين ١٤,٠٠١ تريليون دولار، وهو ما يعني أنه يقل عن السقف المحدد البالغ ١٤,٢٩٤ تريليون دولار بنحو ٣٠٠ مليار دولار فقط، وهو السقف الذي يعني مقدار ما يمكن للحكومة الفيدرالية أن تقترضه بصورة قانونية.

[الاقتصادية الإلكترونية: ٢٠١٠/١/٢٦]

قالت راضية خان، رئيسة قسم البحوث الإفريقية في بنك ستاندرد تشارترد: «اعتقد أننا بصدد توقع نمو بين ٦ – ٧ ٪، في عدد من اقتصادات إفريقيا. وهذا هو التوقع الرئيسي لنا».

وحول مستقبل إفريقيا في عام ٢٠١١م قالت: «عموماً هو إيجابي. نحن في بنك ستاندرد تشارترد نعتقد أن اتجاه النمو في إفريقيا سوف يعود. وبطبيعة الحال بعد الأزمة الاقتصادية العالمية في عام ٢٠٠٩م رأينا معدلات نمو أفضل في عام ٢٠١٠م». [موقع CNN: ٢٠١١/١٢/١٢م]

تقدَّم ما يزيد على ١,٥ مليون أمريكي بطلبات لإشهار الإفلاس خلال العام الماضي بارتفاع بلغت نسبته ٩ ٪ عن عام ٢٠٠٩م، وَفْقَ ما أفادت منظمات متخصصة.

وذكر «معهد إشهار الإفلاس الأمريكي» و «المركز القومي لأبحاث الإفلاس» أن طلبات إشهار الإفلاس المقدَّمة من الأفراد تواصل الارتفاع بثبات منذ عام ٢٠٠٥م، العام الذي عدَّل فيه الكونغرس قانون الإفلاس.

ويُذكَر أن أكثر من ١,٧ مليون أمريكي تقدموا بطلبات لإشهار الإفلاس آنذاك، في تدافع لإعلان إفلاسهم قبيل سريان التعديلات.

وفاقت أرقام المسجلين للإفلاس العام الماضي البالغة ١,٥٣ مليون طلبات عام ٢٠٠٩م التي بلغت ٤٠٧. ٧٨٨، في توجه عَزَته المعاهد المتخصصة إلى ارتفاع الديون والاقتصاد الراكد.

ومثَّل ديسمبر الماضي، أسوأ شهور العام بشكل خاص؛ حيث تقدم ١١٨. ١٤٦ مستهلكاً بطلبات إفلاس، بزيادة ٣ ٪ عن مستويات شهر نوفمبر/تشرين الثاني.

[جريدة الأمان اللبنانية: ٢٠١١/٢/١١م]

أعلن بكري نداي رئيس بعثة المفوضية العليا لحقوق الإنسان لدى الأمم المتحدة اليوم في تونس أن ٢١٩ شخصاً قتلوا و٥١٠ آخرين أصيبوا بجروح في أعمال العنف التي أدت إلى سقوط الرئيس التونسي زين العابدين بن علي.

كما أعلنت منظمة هيومن رايتس ووتش الأمريكية غير الحكومية المدافعة عن حقوق الإنسان أن ٣٠٢ شخصاً على الأقل قتلوا خلال الأحداث الأخيرة الجارية في مصر؛ إلا أنها حذرت من أن هذه الحصيلة قد تكون أعلى.

وقالت الباحثة هبة مريف على موقع المنظمة على الإنترنت: إن هيومن رايتس ووتش أكدت وقوع ٢٣٢ قتيلاً في القاهرة و ٥٢ في الإسكندرية و ١٣ في السويس.

[مواقع مختلفة من البلدين]

الأقلية المسلمة في موريشيوس

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

تقع موريشيوس في جنوب قارة إفريقيا، وهي جزيرة بركانية في المحيط الهندي تبلغ مساحتها ٢٠٤٥ كيلو متر مربع، تحيط بها الحواجز المرجانية، تقع إلى الشرق من جزيرة مدغشقر وعلى بعد ٣٠٠ كم منها.

يبلغ عدد السكان حوالي ٢ مليون نسمة (حسب تقديرات عام ٢٠٠٨م)، وينقسم السكان على أربع جماعات إثنية:

الهندو موريشيوس (٦٨ ٪)، الكريول (٢٧ ٪)، الصينو موريشيوس (٣ ٪)، الفرانكو موريشيوس (٢ ٪).

أما الأديان فتتوزع على ثلاثة أديان هي: الهندوس (٥٢ ٪)، والرومان الكاثوليك (٢٨, ٣ ٪)، والمسلمون (٦, ١٦ ٪)، وآخرون (١, ٣ ٪).

وصل العرب إليها قبل أي أحد، ولكنهم لم يستوطنوها لكثرة أعاصيرها، ولأنهم قدموا للتجارة لا للبقاء. وفي مطلع القرن العاشر وصلها البرتغاليون أيام فاسكو دي جاما وأطلق عليها اسم (دارسكارين) غير أنهم لم ينزلوا بها أيضاً، ثم نزلها الهولنديون عام ١٠٦٠هـ، وهم الذين أطلقوا عليها اسم (موريشيوس) نسبة لأحد عظمائهم ويدعى (موريس) ثم غادروها، ووفد إليها الفرنسيون بعد جلاء الهولنديين واستعمروها قريباً من قرن من الزمان (١١٢٧ - ١٢٢٥هـ) وأسسوا مدينة (بورت لويس) التي غدت عاصمة الجزيرة. ثم لم تلبث إنجلترا أن طردت فرنسا منها سنة ١٢٢٥هـ، وتسلطت عليها، وبقيت موريشيوس تابعة لإنجلترا حتى عام ١٩٦٧م؛ حيث أعلنت دولة مستقلة ولكن الاستقلال الفعلي لم يتم إلا سنة ١٩٩٢م حيث أُعلنَت جمهورية (موريشيوس) مع بقائها عضواً في مجموعة الكومنولث.

يتحدث معظم السكان لغة (الكريول) وهي مشتقة من الفرنسية والهندية، وأما اللغة الرسمية للبلاد فهي الإنجليزية.

وفي وسط هذا الجو، وبين هذه التفريعات من الأجناس والديانات يعيش المسلمون الذين يمثل أهل السُّنة والجماعة غالبيتهم، ويوجد قليل من الشيعة، كما أن طائفة القاديانية الهدَّامة تقوم بنشاط ملحوظ هناك خاصة في دعوة الفقراء؛ حيث تغريهم بالمال لأجل أن ينضموا إليها.

يعيش أكثر المسلمين اليوم في العاصمة (بورت لويس) التي تعد مدينة إسلامية؛ حيث يشكل المسلمون فيها ٦٠ ٪ من عدد السكان، ويبلغ عدد مساجدها خمسة عشر مسجداً. أما عدد المساجد في موريشيوس كلها فيزيد على مائة مسجد، أكبرها (المسجد المركزي) بالعاصمة وكذلك مسجد المدينة المنورة ويصدر المسلمون جريدة تسمى (ستار). ويُقبل المسلمون في موريشيوس على التعليم أكثر من غيرهم، وتوجد لهم بعض المدارس والمعاهد الخاصة بهم، منها: مدرسة إمداد الإسلام، والمدرسة الإسلامية العالية (تأسست سنة ١٣٧٥هـ)، وكلية الثقافة الإسلامية (تأسست سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٣م). كما توجد ثلاث مدارس ابتدائية ومدرسة متوسطة وخمسة معاهد لتحفيظ القرآن الكريم، كما تنتشر الكتاتيب التابعة للمساجد التي تعلم أبناء المسلمين مبادئ الإسلام، واللغة العربية، والقرآن الكريم. مثل الحلقة الإسلامية، وهي أقدم منظمة إسلامية في موريشيوس، أُنشئت في عام ١٩٨٨م تحت اسم دار القرآن، وهناك خمسة معاهد أخرى لتحفيظ القرآن. وتقوم هذه المعاهد وكذلك المدارس والمساجد - كلٌّ حسب دوره - بمهمة التوعية بالإسلام.

وكان لبناء أكاديمية الدوحة الثانوية للبنين والبنات - وهي مدرسة بنيت على نفقة أهل الخير من دولة قطر - أثر كبير في نشر العقيدة الصحيحة في البيوت ونبذ البدع والخرافات التي دخلت عليهم من عدد من الفرق في مجتمعاتهم.

وتوجد في موريشيوس بعض المؤسسات الإسلامية، منها:

- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- المركز الإسلامي.
- حركة المرأة المسلمة تأسست سنة ١٣٩٤هـ.
- رابطة موريشيوس الإسلامية في بوباسين.
- ويوجد في العاصمة مركز لرابطة العالم الإسلامي.

وهناك حزب (العمل الإسلامي) الذي حصل على مقعدين في مجلس النواب سنة ١٣٩٤هـ.

حال المسلمين اليوم: لا يزال المسلمون في موريشيوس يعيشون ظروفاً اجتماعية صعبة؛ فهم أقلية محرومة من تطبيق شرائع الإسلام، وخاصة الأحكام المتعلقة بالأحوال الشخصية: (من زواج وطلاق وميراث)، وتطبِّق عليهم السلطات القانونَ الفرنسي الذي يحظر تعدد الزوجات، ويمنع تقسيم الميراث بينهم طبقاً للشريعة الإسلامية، ويشجع الزواج المختلط الذي أصبح يشكل أكثر من ألفي حالة بين المسلمين. كما تحظر السلطات في موريشيوس على المسلمات ارتداء الحجاب خاصة على الطالبات اللاتي يدرسن في المدارس والمعاهد الحكومية.

وما تزال الأقلية المسلمة في موريشيوس تنتظر من المسلمين أن ينتبهوا إليهم، ويهتموا بهم وبمشكلاتهم، ويرسلوا إليهم الدعاة لتثقيفهم وتعليمهم شرائع الإسلام، وأن يناصروهم سياسياً ودعوياً؛ حتى لا يضيعوا مع من ضاع من الأقليات المسلمة.

المصادر والمراجع:

- د. محمد عاشور، دليل الدول الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٥٨٥.
- موقع طريق الإيمان.
- موقع قصة الإسلام.
- fact book
- African muslim directories

[قصة قصيرة]

على هامش القمع

معتز أبو عين

كانَ الجلادُ يسيرُ في ساحةِ السجنِ الكبرى أو المسلخ (كما كانَ يسميه المواطنونَ في تلك العنابر)، وكانَ يُردد بهستيريا: علاجُكم هو الجوع، دواؤكم هو الذلُ... الفقرُ... الجَلْد يا قرود، أنا من سَيشفيكم!

اعتادَ المواطنون صبيحةَ كُلِّ يوم أن يسمعوا (سيمفونية) الآلام تلك؛ إلاَّ أنهم اعتادوها كما اعتادوا الجوعَ والعريَّ؛ فالساحةُ كانت عبارةً عن سورٍ إسمنتي قديم، تتباينُ من خلاله بعضُ قطع الطوب المختلطةِ بعرقِ المواطنين ودماءِ المسجونين، وكان بين كل عشرة طوبات قطعة حديدية حمراء اللون من الصَدأ والدم، وقد عُلِّق عليها أحدهم من يَديه، وهكذا إلى باقي السور، وكان قد فُرض عليهم المكوث هنالك طوالَ اليوم بحَرِه وبرده، ألم يَجرؤوا أن يطلبوا زيادةً على كِسرة الخبز اليومية؟ إذاً يستحقونَ ذلك.

لم يَكن الخمرُ هو الذي قادَ الجلاد إلى حتفه، ولا مَالُه أو غِناه، ولا تلك الطاولةُ التي كانَ يضعها في نصف الساحة وعليها أشهى أصنَاف الطعام والفاكهة والمشروبات، بينما كانَ يَطوفُ أحد أعوان الجلادِ بكيس أسودٍ ممتلئ بكِسَرات الخبزِ اليابسة، وفي شِماله قارورةُ ماءٍ في قاعها حفنةٌ من تراب الوطن، يُوزعها مُشمئزاً على هَؤلاء الثوار المُعلَّقينَ على سور السجن، كلا! إنَّ الجوعَ نفسه هو الذي أعادَ لهم الشِّبع، الذلُ عينُه هو الذي وهَبَ لهُم العزة، الهَوانُ نفسهُ هو مَن قادَهم إلى الكرامة، وحدَثَ ما لم يَكُن بالحُسبان.

مَضى على الناسِ وهم مُقيدونَ أكثر من شهر، فأصبَحت وجوههم كالحة محروقة، وأصبَحت عِظامُهم تَظهرُ من بَينِ لحمهم، وصارت عُيونُهم تَدخلُ إلى جَماجمهم يوماً بعدَ يوم، حتى كادوا يَهلَكون، لكنَّ الثورةَ حدثت في لحظة!

grv عادَ الجلادُ بعد ليلٍ طويل أشبع فيهِ المساجينَ شَتماً وجوعاً وذُلاً لو قُسِّمَ على سُكانِ البلدةِ كُلِّها لنالَ الرضَّعَ منها نصيبٌ! عادَ إلى فراشه الحَريري الذي كانَ داخل السجن نفسه، ثم وضَع زُجاجةَ الخمرِ وقَدحَ الذهبِ على طاولةِ الفضةِ أمامَهُ، ثم تَلفَع بالحَريرِ وغرق في نومٍ عَميق.

كانوا مُعلقينَ، لكنَّهم أحياء، يَتنفسُونَ بصعوبةٍ بالغة، لقد تَمزقت جُلودُهم، إلا أنهم بقوا يتَهامسونَ في ما بَينهم، وكانَ صوتُ صدى وقع خُطى الجَلادينَ وضحكاتهم ورائحةُ سجائرهم قد هَمدت قَليلاً، فعمَّ السكون في أرجاءِ الساحة، وما هي إلا لحظات وإذا بأحد المُعلَّقينَ - وهو أكثرُ من جُوِّع - قدْ سَقَطَ على الأرض، فَقَامَ مَرعُوباً لا يَدري ماذا حَدث؟ فَنظرَ وتأملَ قليلاً والسعادةُ تَغمُرهُ، فإذا بالقيدِ الذي كانت يَداه به مَوثقتانِ قَد صَغُرت على معصميه، لَقد ضَعُفَ لحمُهُ من الجُوع حتى نَفذ، نَعم! لم يَبقَ من اللحم والدهن ما يمسك القَيدُ به يدَه، فَسقطَ. لقد سقطَ إلى الحُرية، ثُم ذَهبَ بهيكله وما تَبقى عليه من الجلد إلى باقي الموثقين على ذلك السورِ يُخبرهُم بالسرِ الذي نَجاهُ، فنظرَ بعضهم إلى بَعض، تأملوا حالَهم، وإذا بهم كُلهم يَفكونَ قَيودهم بالجوع، ويسقُطونَ إلى أرض الوطنِ من سورِ الوطن الدامي، ويُهرعون بالمئات كالأمواتِ إلى بابِ الجلاد، ويهتفُونَ بشعاراتِ الجلاد ذاتها: (الجوعُ عالجنا... الذل أنقذنا... الفقرُ خلصنا)، وإذا بهم يجرفون في طريقهم كل الحراس والسجانين، حتى وصلوا إلى غُرفةِ الجلاد، فأخذوهُ ولم يَسمعوا وعوده في (الإصلاح والتجديد)، أخذوه إلى طَاولته في الساحة وعلقوه بإحدى الحدائد تلك، ثم طافوا عليه بكل أصناف الطعام والشراب حتى امتلاءَ بطنهُ، ثم قادوهُ إلى غُرفته، وعلقوهُ في سقف الغرفة على طاولته الفضية، ثم شَنقوهُ في دثاره الحريريِّ.

إشكال العلمانية في فكر المسيري...

رؤية أخرى

أ. د أحمد محمد الدغشي(*)
addaghashi@yemen.net.ye

بتتبُّع مسار عالم الأفكار تأكَّد أن الأفكار الحيَّة لا تموت بوفاة أصحابها، بل إن بعض الأفكار الفاعلة لم تجد طريقها إلى الفعل والتنفيذ إلا بعد غياب ذويها غياباً (فيزيقياً) عن عالمنا الدنيوي، ولعل من هذا القبيل بعض أفكار الفيلسوف الراحل عبد الوهاب المسيري – رحمه الله – حيث فرضت بعض أطاريحه على جمهرة الباحثين نقاشاً لم ينته – ولا أحسبه سينتهي – في جملة قضايا ومسائل شائكة، بعضها ربما أخذ حكم المسلَّمات ردحاً من الزمن، حتى جاء المسيري فأبدى حول بعضها من المعطيات ما أحالها كغيرها أطروحة تقبل الأخذ والعطاء، ولعل من أشهر هذه المسائل حقيقة (بروتوكولات حكماء صهيون)، ومسألة (اللوبي الصهيوني)، وما إذا كان موجِّهاً أساساً لصانع القرار الأمريكي، أم أن الكيان الصهيوني برمَّته مجرَّد أداة استعمارية للولايات المتحدة، لمساعدتها في إحكام قبضة هيمنتها على المنطقة؟ كما أن من أشهر تلكم المسائل بالغة التعقيد – وهي محل نقاش هذه المقالة – تقسيم المسيري العَلمانية إلى مستويين: علمانية جزئية و أخرى كليِّة، فالأولى – بحسب المسيري – مجرَّد «رؤية جزئية للواقع (إجرائية)، لا تتعامل مع أبعاده الكليَّة والنهائية (المعرفية)، ومن ثمَّ لا تتسم بالشمول، وتذهب في هذه الرؤية إلى وجوب فصل الدين عن عالم السياسة، وربما الاقتصاد، وربما بعض الجوانب الأخرى من الحياة العامة، وهو ما يعبَّر عنه أحياناً بعبارة (فصل الدين عن الدولة)، ومثل هذه الرؤية تلزم الصمتَ بشأن المجالات الأخرى من الحياة، كما أنَّها لا تنكر بالضرورة وجود مُطلَقات وكلِّيات أخلاقية وإنسانية وربما دينية، أو وجود ما ورائيات وميتافيزيقا؛ ولذلك لا تتفرع عنها منظومات معرفية أو أخلاقية...»[1].

أما العَلمانية الشاملة فهي عنده: «رؤية شاملة للعالم ذات بُعْد معرفي (كلِّي ونهائي)، تحاول بكل صرامة تحديد علاقة الدِّين والمطْلَقات والماورائيات (الميتافيزيقية) بكل مجالات الحياة؛ وهي رؤية عقلانية مادية تدور في إطار المرجعية الكامنة والواحدية المادية التي ترى أن مركز الكون كامن فيه غير مفارق أو متجاوز له، وأن العالم بأسْره مكوَّن أساساً من مادة واحدة، ليست لها أية قداسة ولا تحوي أيَّة أسرار، وفي حالة حركة دائمة لا غاية لها ولا هدف، ولا تكترث بالخصوصيات، أو التفرُّد أو المطلقات أو الثوابت، هذه المادة تشكِّل كلاً من الإنسان والطبيعة...»[2].

(*) أستاذ أصول التربية وفلسفتها – جامعة صنعاء – اليمن (كاتب وأكاديمي يمني).

(١) المسيري، العَلمانية تحت المجهر (حوار بين المسيري وعزيز العظمة)، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى، دمشق: دار الفكر – بيروت: دار الفكر المعاصر، ص ١١٩ – ١٢٠.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢٠.

ومع أن وجهة نظر الدكتور المسيري تظل رأياً كأي رأي قابل للنقاش والأخذ والعطاء، بل القبول والرفض؛ غير أن انتماء المسيري إلى دائرة الفكر الإسلامي، ونظراً لما يحظى به من مكانة مرموقة، واحترام ملحوظ لدى الجميع، بوصفه مفكِّراً حرّاً مستنيراً حقّاً، ذا تأثير في النخب جميعها، داخل مصر وخارجها، وفي مقدِّمتهم الإسلاميون، كل ذلك منح رأيه قبولاً في الوسط العَلماني، عن قناعة من بعضهم وعن تكتيك وبراغماتية من بعضهم الآخر؛ كما أنَّه لا يُستبعَد أن ثمَّة متابعين لأطروحة المسيري هذه من قِبَل بعض الإسلاميين؛ وكأنه استحال إلى حجَّة على الإسلاميين كآفة لا يسعهم سوى الإذعان له، أو أنَّه غدا حجة بذاته لا بمستنداته العلمية وحججه البرهانية، ولكن المنهجية العلمية التي يُعدُّ المسيري من أبرز رموزها تفرض علينا أن لا يدفعنا الإعجاب بفيلسوف أو مفكِّر أو عالم أو باحث مهما علا قدره وارتفعت مكانته لأن نأخذ رأيه مسلَّمات تستعلي على النقد؛ فهذه إساءة إلى الفيلسوف أو المفكِّر أو العالم أو الباحث إن هو وافق على ذلك، وحاشا الفيلسوف المسيري أن يقع في شَرَك ذلك؛ ولا سيما أن بعض النقاد قد واجهه في مجلسه الفكري (صالونه) بوجهة أخرى لا تخلو من شدَّة ولكنها في المسار المنهجي الذي عُرِف المسيري به طيلة مسيرته العلمية والفكرية، فلم ينزعج من ذلك، حسب رواية صاحب النقد الأستاذ محمد إبراهيم مبروك[1].

توفيق أم تلفيق؟

بعد إنعام النظر في حديث المسيري بهذا الشأن خلصت إلى أن رأيه لا يسلم من نقاش معمَّق؛ إذ إنه يحوي جوانب من أوجه التداخل والاضطراب بل التلفيق أحياناً؛ من خلال محاولته الفصل الموضوعي بين ما يصفه بالعَلمانية الكليَّة الشاملة، والعَلمانية الجزئية المحدودة؛ بل أجدني مع جوهر رأي الأستاذ محمد إبراهيم مبروك في نقده لذلك الفصل؛ نظراً للسبب المشار إليه آنفاً[2]، ولم أجد من تفسيرٍ لذلك سوى أن المسيري - كأي مفكِّر توفيقي كبير - كان يحلم بالتقريب بين الاتجاهين: الإسلامي المعتدل الوسطي، ومن يصفهم بالعَلمانيين الجزئيين؛ وذلك من خلال محاولته تصوير أن الأمر لا يزيد عن عملية فصل بين إجراءات مؤسسات الدولة وبين تخصُّصات (رجال الدين) أو علماء الشريعة[3]، وهذا رأيه الخاص على كل حال.

لكن هيَّا بنا إلى مناقشةٍ أكثرَ تفصيلاً للمسألة ذاتها ولكن في ما يتصل بذلك التقسيم للعَلمانية من زاوية فكر المسيري الخاص وموقفه الشخصي من العَلمانية الجزئية بوجه خاص.

تأمَّل - على سبيل المثال - في هذا النص من هذا الحوار الذي يبدو لأول وهلة مشكلاً، لكن بتتبع إجاباته التفصيلية بعد ذلك يظهر موقف المسيري المؤكِّد لما سبقت الإشارة إليه في مستهل مناقشة فكره.

يجيب المسيري على سؤال مباشر بهذا الصدد قائلاً: «العَلمانية احتلت الجزء الأساسي في مشروعي الفكري، فقد قيل لنا: إن العَلمانية تعني فصل الدين عن الدولة، وهذا تعريف قوي لا بأس به، وأنا لا مانع عندي من فصل الدين عن الدولة، إذا كانت الدولة تعني مجموعة الإجراءات السياسية والاقتصادية والإستراتيجية؛ فلا أحب أن أرى المشايخ يهرولون في طرقات وزارتَي الخارجية والدفاع، ولا أحب أن أجلس في لجنة تناقش إستراتيجية مصر القادمة، خلال القرن الحادي والعشرين، ويجلس إلى جواري أحد الشيوخ» فقاطعه المحاور قائلاً: «معنى ذلك أنك ترفض سيادة الدولة الدينية، كما كان سائداً في أوروبا، إبَّان العصور الوسطى؟» فأجاب المسيري: «كلمة دولة محدَّدة؛ فهي تعني الإجراءات السياسية والاقتصادية المباشرة، لكن إذا أخذنا الدولة بالمعنى الشامل، تثار هنا قضية المرجعية؛ ما مرجعية هذه الدولة؟ مرجعية الدولة الأمريكية - مثلاً - هي المنظومة الداروينية، بمعنى أن القوَّة هي المعوَّل عليه الأساسي للإستراتيجية الأمريكية؛ أي أن عقيدتها وديانتها هي القوَّة، وإسرائيل عقيدتها أو مرجعيتها: هي أن الشعب اليهودي له حق مطلق في أرض فلسطين، وأن من يتجاوز هذا الحق يجب القضاء عليه مبرماً، فما مرجعية عالمنا العربي؟ أعتقد أن مرجعيتنا يجب أن تكون إسلامية... لأننا إذا لم نؤمن بالمرجعية الإسلامية فسوف نأخذ بالداروينية، ومن هنا يأتي التمييز بين ما أسميه بالعَلمانية الجزئية ونظيرتها الشاملة، العَلمانية الجزئية تعني فصل الدين عن الدولة، والدولة هنا - كما قلت - تعني كياناً صغيراً ينصرف إلى السياسة والاقتصاد بالمعنى المباشر. أما العَلمانية الشاملة فهي ليست فصل الدِّين عن الدولة، وإنما فصل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية لا عن الدولة فحسب؛ وإنما عن حياة الإنسان بجانبها العام والخاص»[4].

وإني بعد تأمُّل في حديث المسيري ومناقشةٍ ذاتية له في

(١) راجع: محمد إبراهيم مبروك، نقد مفهوم العَلمانية الجزئية والشاملة عند الدكتور عبد الوهاب المسيري، نُشِر في مجلة البيان - السعودية، وأعيد نشره في موقع إخوان نت. http://www.ikhwan.net/forum/showthread.php?٧١٢٧-

(٢) محمد إبراهيم مبروك، المرجع السابق.

(٣) راجع رأيه المفصَّل بهذا الخصوص في حواره في: العَلمانية تحت المجهر، مرجع سابق.

(٤) حوار مع عبد الوهاب المسيري، (أجراه في القاهرة رجب الدمنهوري)، مجلة نوافذ(صنعاء)، العدد الثاني، سبتمبر ١٩٩٧م، ص ٢٠ - ٢١، وانظر: تأكيد ذلك التعريف في العَلمانية تحت المجهر للمسيري، مرجع سابق، ص ١١٩ - ١٢٢.

أكثر من مناسبة، وفي غير ما مصدر له (نصّاً مباشراً، أو حواراً مباشـــراً أو غير مباشـــر بهذا الشـــأن)؛ ومع تأكيدي على ذلك الاضطراب في خطاب المســـيري بسبب النزعة التوفيقية عنده؛ لا أرى موقعـــاً ممكناً، أو منطقاً مقنعاً، أو وجاهة لاســـتخلاص أن المسيري يشـــايع وجهة النظر العَلمانية التي ينادي بها بعض الأصدقاء والزملاء المفتونـــين بالنموذج العَلماني الغربي الرامي إلى فصل الدين عن الســـلوك الحياتي جميعِه، وإن شئت فقل: فصل الإنســـان عن روحـــه وقيمه وهويتـــه الحضارية وكينونته ومصيره؛ إذ إنهم إنما يتحدَّثون عن فصل الديني عن السياســـي بالكامل؛ وإن لم يعلن بعضهم عن ذلك صراحة، أو يدرك بعضهم الآخر مآل مناداتـــه بالعَلمانية، أو تقبُّله لهـــا نظاماً حاكماً في المجتمع المسلم، وهو ما لا يؤمن به المسيري شخصياً؛ بل هو ضدٌّ قناعاته، ولكنه يحاول أن يقرِّب الشقَّة بين الاتجاهين المتضادين كما سلف القول.

إنَّ المنـــاداة بالصيغـــة العَلمانية لحل مشـــكلات مجتمعاتنا المســـلمة حتى بصيغتها الجزئية لا بـــد أن تفضي – وإن لم يرِد المسيري ذلك – إلى أن يُقصَى جانب أو جوانب من جوهر الدين وليس (إجراءات السياسة وتقنياتها التنفيذية) من شؤون الدولة بشـــتى مجالاتها واختصاصاتها أو في بعضها، وهو لا يخرج عن ذلك المستوى الجوهري؛ سواء أكان ذلك سياسياً بالمعنى المباشر أم سياســـياً بالمعنى غير المباشر؛ أي علاقة الدولة بالسياسة من حيث حاكميتُها على روح النظام السياســـي وقوانينه في إطارها الداخلـــي والخارجـــي، أم من حيث جوانبُ الاجتمـــاع والتربية والسلوك الأخلاقي والقيم المجتمعية والاقتصاد من حيث روحُها وفلسفتُها إلخ...

احترام التخصّصات... ماذا يعني؟

أدركت أن المســـيري رغم تشـــعبه في التفصيـــل، ومحاولته إيجاد فرص الالتقاء بين فريقي السياســـة والدين: حريصٌ أكثر من أيِّ شـــيء على احترام التخصُّصات – وهذا ليس رأيه وحدَه في حقيقـــة الأمر – بحيث لا ينبغي أن يُحشَـــر علماء الدين في غيـــر تخصُّصاتهـــم، دون أن يعني أن لا علاقـــة للدين – بوصفه مرجعية المجتمع – بالحاكمية على جوهر سياسة الدولة في شتى مجالاتها. وأحسب أن حرص المسيري على التمييز بين الإجراءات التنفيذية والعملية للدولة في جانبي الاقتصاد والسياســـة: أمر لا يتعـــارض مع الإطار الفكري والمرجعي للاقتصاد والسياســـة، عدا غيرهما من المجالات، وهنا يكمن الفرق الجوهري بين تبرير المســـيري لطبيعة هذا الفصل، وبين آخرين يتبنون مسألة الفصل ذاتهـــا، وليس أدلَّ على ذلك من كونه يؤكد على الجوانب الفنية أو الإجرائية في الجانبين الاقتصادي والسياســـي، في الوقت نفسه الذي يؤكِّد فيه على عدم شمول ذلك الفلسفةَ والمضامين، ناهيك عن المجالات الأخرى تربوياً وأخلاقياً وقيمياً. ويعزز هذا الاعتقاد أكثر في فكر المســـيري؛ أي أنه لا يؤمن بشمول العَلمانية الجزئية سوى للجـوانب الإجرائيـة في الاقتصـاد والسـياسية – على سبيل المثال – دون انفصـــال ذلك في نهاية المطاف عن الإطار المرجعي والقيمي، أقول: يعزز ذلك ما صرَّح به في حواره مع الدكتور عزيز العظمـة؛ إذ إنه بعد أن يســـتعرض جملة من التعريفات الخاصة ببعـــض الباحثين العرب (بصرف النظر عن مســـاحة الاتفاق أو الاختلاف معه حول رأيه الإيجابي في بعضها) يخلص بعدها إلى القول: «... والتعريفات السابقة للعلمانية لم تجعل منها رؤية شاملة للعالم، ولم تعطها صفة العالمية والشمول، كما قلَّصت من نطاقها لتشـــير إلى المجال السياســـي وربما الاقتصادي، ولم تمتدَّ بأية حال لتشـــمل المجالات الأخرى للحياة، أو الجوانب النهائية (القيم الأخلاقيـــة – القيم الدينية)، ومن ثَمَّ فهي لا تشـــمل كل جوانب الواقع، ولا كل تاريخ البشـــر، وتســـمح بوجود حيِّز غير عَلماني (مطلق، كلِّي، نهائي، غائي، غير مادي) يســـمح بانفصال الإنسان عن الطبيعة وبإمكانية تجاوزه لها، ويترك مجالاً واسعاً للمطْلَقات (الإنسانية والأخلاقية والدينية)، ولفكرة الجوهر والكليَّات؛ ولذا فهذه العَلمانية تتسم بقدر من الثنائية: (غير المادي مقابل المادي، الإنساني مقابل الطبيعي، المطلق مقابل النسبي، الأخلاقي مقابل غير الأخلاقـــي، الكلّي مقابل الجزئي، الثابت مقابل المتغيِّر)، كما تتســـم بقدر من التعدُّدية الحقيقية ولا تتبنـــى النماذج الواحدية المادية الساذجة؛ فالرؤية المادية الحقة رؤية شاملة للكون (الطبيعة والإنســـان)، لا تقبل التجزئة ولا الثنائية ولا التجريد، ولا تجاوز سطح الحركة الدائمة، بل ترى أن قانون المادة يسري على الإنسان (في كل مجالات الحياة) سريانه على الأشياء والطبيعة»[1].

على الرغم من تأكيد الخلاف مع المســـيري حول ســـلامة تقســـيمه ودرجة انضباطه ودقـــة موضوعيتـــه؛ إلا أن حديثه الســـالف ينفي عنـه مطلقاً ذلك المعنى الذي ينادي بفصل كل ما هو ديني عن كل ما هو سياســـي (إن صحَّ الوصف)، وأحسب أن ذلك كافٍ في كون المسيري لا يذهب ذلك المذهب الذي ينادي به من يتبنى مقولة (فصل الدين عن الدولة أو السياســـة)؛ إذ إن

(١) المسيري، العَلمانية تحت المجهر، مرجع سابق، ص ٦٥.

حديثه السابق من أقوى الشواهد على أن ذلك عنده غير مراد ألبتة. بل لقد صرَّح في حوار آخر يُعَد من أحدث حواراته نسبياً بما لا يدع مجالاً للشك في رأيه المخالف للعَلمانية السائدة في الواقع – دعك من فرضياته المثالية أو أمنياته البعيدة بالنسبة لعَلمانية الآخرين – حين تحدَّث عن العَلمانية فقال: «إن هذا المصطلح لا بد أن يُفهَم في سياقه وتطوُّره التاريخي فهو عُرِف في القرن التاسع عشر على أنه فصل الدين عن الدولة، وكان ذلك حينما كانت الدولة كياناً صغيراً ترك رقعة الحياة العامة ومنظومة القيم والمرجعية النهائية للأفراد يحددونها حسب رؤيتهم؛ ولذلك فإن ما تم علمنته في هذا الإطار هو أجزاء معيَّنة من الحياة العامة التي يمكن أن نحصرها في بعض جوانب السياسة والاقتصاد وليس كلها. ونلاحظ أن هذا التعريف يلزم الصمت بخصوص الأخلاق والحياة الخاصة؛ ولذلك أميل للقول: إن هذا التعريف يعني فصل القيم الدينية عن بعض الإجراءات السياسية والاقتصادية وليس عن المرجعيات النهائية للمجتمع»[1].

ويقول في تأكيد هذا المعنى في الحوار نفسه: «أنا كمفكر إسلامي لا أرى غضاضة في قبول ما أسميه العَلمانية الجزئية إن كان يعني بعض الإجراءات السياسية والاقتصادية ذات الطابع الفني، والتي لا تمس من قريب أو من بعيد المرجعية النهائية وهو ما أفهمه من حديثٍ لرسول ﷺ: «أبِّروا أو لا تؤبروا.. أنتم أعلم بأمور دنياكم»[2]؛ أي أن الفصل هنا بين الدين والدنيا ينصرف إلى تفصيلة مادية محددة (تأبير النخل) ولا يمس المرجعية النهائية الدينية المتجاوزة لسطح المادة»[3].

وعن شعار إحدى أكبر الجماعات الإسلامية الشهير (الإسلام هو الحل) يعلن المسيري رأيَه المؤيِّد للشعار قائلاً إن: «شعار الإسلام هو الحل يجسِّد رؤية بعض المفكِّرين الذين يقودون تياراً سياسياً مهماً، يؤمن بأن المرجعية الإسلامية هي المجال أو الطريق لحلِّ مشاكل هذا المجتمع، وهو ما أتفقُ عليه معه؛ لأن أيَّ مجتمع لا بد أن يكون له مرجعية نهائية واحدة، ومن لم يكن له مرجعية نابعة من تراثه، فسيستورده من الآخر»[4].

وصفوة القول هنا: إن رؤى المسيري وأطاريحه الإجمالية والتفصيلية في أكثر من دراسة وكتاب وحوار ومحاضرة ونحو ذلك؛ تجعله أبعد ما يكون عن فكرٍ عَلماني يفصل الدين عن الحياة، أو المعتقد عن السلوك، بل إن أطاريحه الأخرى في ما يتصل بالمرأة والطفولة، وأصالة المعرفة وهويتها ووقوع التحيُّز العَلماني فيها، والإنسان، والقيم، والكون ونحو ذلك، التي برز بعضها في تحريره لكتاب (إشكالية التحيُّز) – على سبيل المثال – ومقدِّمته الضافية له، التي احتلت الجزء الأول بكامله، علاوة على بحثه الخاص في الكتاب، الذي ضمَّنه بعض صفحات الجزء الخاص بالتحيُّز في الأدب والنقد؛ كل ذلك ليجعل منه مفكِّراً موحِّداً مؤمناً بشمول الفكر الإسلامي لكل قضايا الإنسان والكون والمعرفة والقيم ونظم المجتمع.

جوهر المفارقة:

وهنا يكمن جوهر المفارقة؛ إذ كيف يستقيم الجمع بين ذلك الموقف الواضح للمسيري وبين تلمُّسه المبرِّرات والتأويلات (المتعسِّفة) لبعض رموز المدرسة العَلمانية المتطرِّفة أمثال: حسين أحمد أمين، وفؤاد زكريا، ومحمود أمين العالم، ومحمَّد رضا محرَّم، بوصف هؤلاء على نحو أو آخر لا يزالون في إطار العَلمانية الجزئية[5]؛ وذلك لَعَمرُ الله ضرب من الأمنيات البعيدة أو الخيال العجيب! ولست أدري سرَّ قسوته بعد ذلك على مراد وهبة؛ حيث وصفه من بين آخرين بـ (العَلماني الكلِّي)؛ إذ لو أعمل المسيري منهج (التبرير) أو (الاعتذار) الذي لا ندري ضابطاً موضوعياً له؛ لألفى مقولة مَّا تدرأ عنه ذلك الوصم بـ (العَلمانية الكليَّة)، لكني أزعم أني أدركت جانباً من السرِّ (وأرجو – قارئي العزيز – أن تحاول معي إدراك ذلك)، وذلك في قول المسيري بعد إخراج وهبة من دائرة (العَلمانين الجزئيين) بسبب مقولته عن العَلمانية: «هي المسار الإنساني في حضارتنا» فيعلِّق المسيري «أي: حضارة كل البشر، في كل زمان ومكان، (هل العولمة والعَلمانية هما الشيء نفسه؟) ومن هذا المنظور قام (أي مراد وهبه) بالدِّفاع عن التطبيع مع إسرائيل، (ألسنا حضارة مادية واحدة؟)، كما قام بتأييد تحالف كوبنهاغن بقوله: «إن ما دفعه هذا [هكذا في المصدر وربما الأدق هو] إيمانه بفلسفة التنوير القائلة: إنَّه «لا سلطان على العقل إلا العقل وحده»،

(١) حوار مع عبد الوهاب المسيري، (أجراه في القاهرة حسام تمام، حول التدين والتفسير العَلماني)، موقع إسلام أون لاين،١٥/١/٢٠٠٦م.

(٢) أخرج الشيخان في صحيحيهما عن عائشة – رضي الله عنها – «أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون، فقال: لو لم تفلعوا لصلح. قال: فخرج شيصاً. فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت: كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم»، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، لمحمد بن فتوح الحميدي، دار ابن حزم – بيروت، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م الطبعة الثانية، تحقيق د. علي حسين البواب. والشيص: التمر الذي لا يشتد نواه ويقوى. وقد لا يكون له نوى أصلاً. البيان

(٣) حوار مع عبد الوهاب المسيري (أجراه في القاهرة حسام تمام، حول التدين والتفسير العَلماني)، موقع إسلام أونلاين، ١٥/١/٢٠٠٦م.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المسيري، العَلمانية تحت المجهر، مرجع سابق، ص ٦٤ – ٦٩.

(وهذا هو أحد تعريفاته للعلمانية)»[1].

والآن هل أدركت معي – قارئي العزيز– جانباً من ذلك السرِّ المتمثِّل في الموقف السياسي لوهبة من الكيان الصهيوني قبل أي عامل آخر، أمَّ أن ذلك انعكاس مباشر بالضرورة لمفهومه للعَلمانية (الكليِّة) المتمثِّلة في افتراض العولمة والعَلمانية شيئاً مترادفاً أو واحداً؟ أو في كون وهبة يعتقد – بناءً على مفهومه للعلمانية – أننا والصهاينة المحتلين حضارة مادية واحدة؟ ناهيك عن المقولة التي تكاد تجمع عدداً ممن يعدُّهم المسيري من ذوي العَلمانية الجزئية. ورحمك الله أيها المفكِّر العظيم! هل كنت جاداً في جعل هذه المقولة: «لا سلطان على العقل إلا العقل» السبب الحقيقي في إخراج الفيلسوف وهبة من الدائرة الجزئية إلى الكلِّية؟ دون أن ينطبق الشيء نفسه على الفيلسوفين الآخرين: محمود أمين العالم وفؤاد زكريا، اللذين اشتهرا بمناهضة التطبيع مع الكيان الصهيوني بكل قوة وصلابة وثبات، ولكن – مع كل التقدير لهما – ليس ذلك مؤهلاً وحدَه للبقاء في دائرة العَلمانية الجزئية، تماماً كما أنَّ الموقف المغاير لا يستأهل أن يكون سبباً وحيداً أو كافياً كذلك في الزجِّ بصاحب الموقف في أتون العَلمانية الشاملة وإقصائه من الأولى، وكل ذلك بحسب التقسيم الخاص بالمسيري.

اعذرني قارئي العزيز! إن أنا – على غير عادتي في منهجية التوثيق – أعرضت عن ذكر الأدلة والشواهد على مصداق زعمي في كون الأمر لا يختلف لدى العالم وزكريا، في مسألة مرجعية العقل (المطلقة)، وأزعم أن كل من درس مقرَّراً على يدي أيٍّ من الفيلسوفين، أو قرأ ولو مقالة ذات علاقة لأيٍّ منهما يدرك بلا لبس أن مقولة: إن المرجعية النهائية للعقل (وليس للوحي) قاسم مشترك بين ثلاثتهم بوجه خاص. بل إني أذهب إلى أبعد من ذلك، إذا ما ذكَّرت بأنه حتى بعض من يردِّد مقولة (فصل الدين عن الدولة)، على نحو من الفصل التام بين السياسة والدين، (وليس الفصل الإجرائي الذي لا يكاد يوجد إلا في أمنية الفيلسوف المسيري وخياله) لا يعدُّ الوحيَ المرجعَ النهائي من خصائص الفكر؛ إذ لو كان يعدُّه كذلك لما وسعه إلا التسليم بنصوص الوحي ذات الصلة بمجالات الحياة المتنوعة، وتلك أبرز السمات الأبجدية في الاتجاه العَلماني بكلِّ مكوِّناته ومدارسه.

(١) المسيري، المرجع السابق، ٦٩ – ٧٠.

لزوم ما لا يلزم:

وفي الأخير استوقفني حديث المفكِّر المسيري عن الموقف مما يصفه بـ (العَلمانية الجزئية)؛ حيث يبدي تفهُّماً لها، وتقبُّلاً للمناداة بها، وهذا ما لم يعد جديداً بعد كل ما تقدَّم؛ بيد أن الجديد المثير هو أن يستشهد المسيري ببعض رموز مدرسة الوسطية الإسلامية أمثال: فهمي هويدي، ويوسف القرضاوي، وأحمد العسَّال، ومحمد سليم العوا، وعبد الغفار عزيز، وسيف عبد الفتَّاح، وراشد الغنوشي، وطه العلواني، وعبد الحميد أبو سليمان، ومدرسة المعهد العالمي للفكر الإسلامي وسواهم على موقفهم من العَلمانيين الجزئيين حسب وصفه، من حيث قبول التعايش معهم، وعدُّهم جزءاً أساساً من أبناء الوطن الواحد[2]، ولم أدرك حتى اللحظة وجه العلاقة العضوي بين الاختلاف مع مفهوم العَلمانية واتجاه المؤمنين بها بشقيها – وهو المشكل الحقيقي في أطروحة المسيري لدى كل من جاء على ذكر أسمائهم حسب متابعتي لأطاريحهم، وفي مقدِّمتهم رمز الوسطية المعاصرة ورائدها الإمام يوسف القرضاوي – وبين الموقف الشخصي أو الجماعي ممن يحملون تلك الآراء بشقيها الجزئي والكلِّي.

بتعبير أكثر وضوحاً: ما وجه الربط بين مسألتين لا تلازم بينهما – حسب اعتقادي –: الأولى: مفهوم العَلمانية ودلالاته وانعكاساته الفكرية والعملية، والأخرى: الموقف من المؤمنين بالعَلمانية بقسميها؟

وبالمناسبة فإن صاحب هذه السطور – ويزعم أنَّه لا يختلف في موقفه هذا مع المثقفين الإسلاميين كافة ومن وردت أسماؤهم آنفاً بوجه أخص – يتبنَّى الموقف الرافض للمفهومين، وما ينبني عليهما من دلالات فكرية وانعكاسات عملية؛ لكن ذلك لا يستلزم موقفاً مماثلاً من حيث مبدأُ القَبول بالتعايش مع المؤمنين بالعَلمانية، بقسميها – حسب المسيري – وعدِّهم جزءاً من النسيج الاجتماعي والمكوِّن الوطني؛ فذلك موقف مستقل، والآخر موقف مستقلٌّ كذلك، ولا يستلزم أيٌّ منهما الإيمان بالآخر، لا ضرورة ولا تبعاً. ومن ثَمَّ فالربط بينهما تعسفي ومندرج تحت قاعدة (لزوم ما لا يلزم).

مرة أخرى ما كان لهذا الجدل أن يثور لو لم يكن المفكر المسيري على تلك الدرجة من الأهمية والتأثير.

(٢) المسيري، العَلمانية تحت المجهر، مرجع سابق، ص ١٤٦ – ١٤٩.

نماء

منهج بناء الشخصية الإسلامية
من الرضاعة إلى ما بعد الجامعة

للمربين..
..للأسرة..
..للدعاة

بمشاركة فريق من الباحثين المختصين

أولادي والتقنية

بناء قيادات اجتماعية فاعلة

كيف نبني داعية مؤثراً؟

أريد بناء الخلق الحسن لدى ابنتي

ابني المراهق وعلاقته بالله

كيف أجعل طفلي منظما.

إعداد مؤسسة
المربي
ALMURABBI

إخراج و تصميم
BN
www.BNet.ws

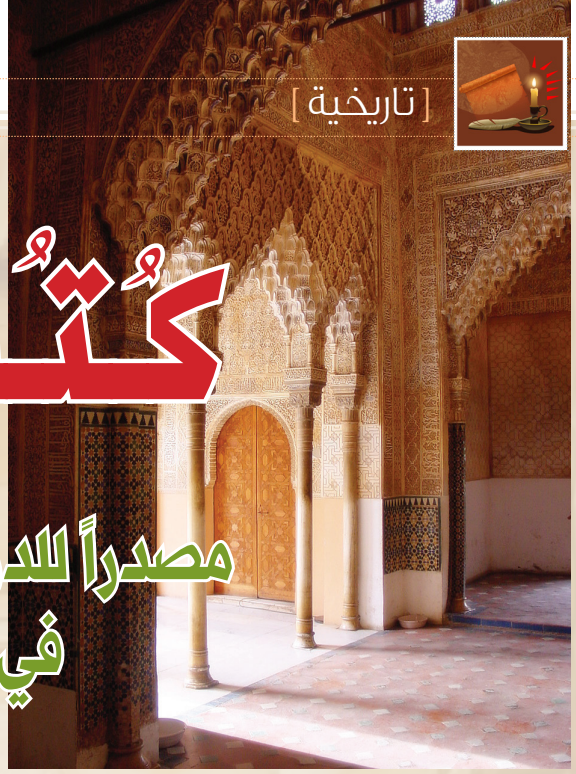

كُتُب النوازل

مصدراً للدراسات التاريخية والفقهية في المغرب والأندلس

أنور محمود زناتي(*)
anwer1122@yahoo.com

تزخر كتب النوازل(١) بمادة تاريخية وفقهية غاية في الأهمية، وتُعَد سجلاً حافلاً لجوانب كثيرة من حياة الأفراد والجماعات، وتعمل على كشف كثير من القضايا الفكرية والاجتماعية والتشريعية؛ فالنوازل تعني ما يَعرِض لأفراد المجتمع من قضايا ومنازعات قضائية تُطرَح على القضاة؛ ولهذا الأمر قيمة عظيمة بلا شك لا من الناحية الدينية فقط؛ بل لأنها كذلك تُلقي الضوء على كثير من دقائق الحياة الاجتماعية والاقتصادية، كما تُطلعنا على مدى الأصالة في التشريع المغربي والأندلسي، ومدى آثار البيئات الإقليمية في هذا التشريع، كما تعمل على التعرف على النُّظم القضائية، ودور المفتين والمشاوَرين في إرشاد المتقاضين ومناصرة المظلومين وتنوير رأي الحاكمين، والتعرف على منشآت المجتمع الحبسية، وما قدمت من دعم دائم للمؤسسات الدينية والتعليمية والجهادية.

ومن أبرز مميزات كتب النوازل: الواقعية، والتجدد، وتنوع التأليف، ومن ثَمَّ تكون كتب النوازل منجماً غنيّاً بمعلومات موازية يستفيد منها المؤرخ والقانوني والاجتماعي. وتقول المستعربة الفرنسية رايل آريه: «تشكل هذه الفتاوى أهمية عظمى ليس فقط في مجال الفقه الإسلامي(٢) في الأندلس، إنما أيضاً في غزارة المعلومات التي تقدِّمها لنا حول الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيه، هذه المعلومات تكاد تخلو منها - تقريباً - كتب المؤرخين»(٣).

والنازلة الفقهية تعكس صورة المجتمع الإسلامي في خصوصياته وفي مشاكله وتعقيداته. كما أن غنى مادتها يمكِّن من كشف ما عجزت الحوليات التاريخية عن كشفه. فالفقه الإسلامي ليس مجرد نظريات ميتة في الكتب فقط؛ بل هو فقه للحياة، أو كما يقول ابن سهل: «التجربة أصل كل فن»(٤).

من المعروف أنه منذ أن وصل المذهب المالكي إلى الأندلس وأهلُها على رأي هذا المذهب، وما انقطعت صلتهم به، والفقه المالكي فقه (علمي - عملي)، يَعتدُّ بالواقع، ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم، ويستند إلى المصالح المرسَلة التي هي من أجلِّ قواعده، وهكذا انطلق الفقه الأندلسي يبدع في غير ما مجال من مجالات المعرفة، وأطلق لنفسه حرية الفكر والبحث وتفجرت فيه ينابيع النبوغ؛ فأبدع حضارة قلَّ نظيرها بين الأمم التي عاصرته؛ إذ كان أكثر قبولاً للتمدن، لقد تقصَّى

(*) كلية التربية - جامعة عين شمس.

(١) النوازل هي: الواقعات والمسائل المستجدة التي تنزل بالعالِم الفقيه، فيستخرج لها حكماً شرعياً. ويطلق عليها «النوازل» و «الفتاوى» و «الأجوبة» و «الأحكام» و «المسائل»، وكلها مصطلحات تعكس مفاهيم متقاربة. راجع: محمد بن شريفة: وقائع أندلسية في نوازل القاضي عياض، مجلة دعوة الحق، عدد ٢٦٤، أبريل مايو ١٩٨٧م، ص٩٤.

(٢) الفقه في اللغة: بمعنى العلم بالشيء والفهم له، ومدار الفقه في لغة العرب على الفهم، يقال: أوتي فلان فقهاً في الدين، أي: فهماً فيه. أما الفقه اصطلاحاً، فهو: العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية، راجع، سيف الله صرامي: الفقه والقانون مقاربات في خطابَي الحق والواجب، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ٢٠٠٩م.

(3) R. ARIÉ: España musulmana (siglos VIII – XV): Historia de E – paña dirigida por Manuel Tuñón de Lara. III. Barcelona 1989. p.100.

(٤) ابن سهل: ديوان الأحكام الكبرى، تحقيق: يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ٢٦.

فقهاء هذا القُطر أحول زمنهم، وأوضاع مجتمعهم؛ فاستنبطوا لها من التقنيات الملائمة لظروفها وأحوالها ومستواها، ما يكشف عن دقائق الأحداث والمواقف والأوضاع، ليس هذا فحسب؛ بل إنهم في ما تقصَّوه من جزيئات، جاوزوا حدود زمانهم في رؤية ثاقبة نحو المستقبل[1].

ويوضح خوان مارتوس كيصادا Juan Martos Quesada أن: «الأدب القانوني الأندلسي يُعد بدرجة أُولَى أدباً تطبيقياً براغماتياً يروم حل مشاكل معيَّنة وإيجاد حلول ملموسة ودقيقة»[2]. وهو ما عكسته (كتب النوازل) وفي مقدمتها كتاب (النوازل) لابن سهل الأندلسي و (كتاب المعيار) للونشريسي، بالإضافة إلى رسائل (الحسبة) التي تعد بمثابة أعمال تطبيقية يتخذها نظار السوق كدليل لمساعدتهم في القيام بمهمتهم[3]، من منطلق أن القانون الإسلامي هو فقه وشريعة، وبذلك فهو لصيق بالخاصية الدينية[4].

وسوف نحاول في هذا المبحث أن نقف على مدى أهمية كتب النوازل كمصدر هام يثري الدراسات التاريخية والقانونية، وكيف أن دراسة تلك النوازل تكشف لنا حُجُب كثير مما نجهله في فترة العصور الوسطى الإسلامية بصفة عامة والمغرب والأندلس بصفة خاصة.

نوازل ابن سهل (ت ٤٨٦هـ - ١٠٩٣م)[5].

يُعتبَر كتاب (الأحكام الكبرى لابن سهل) من أجَلِّ الكتب التي تنتمي إلى هذا اللون من المؤلَّفات[6]، ويقدم لنا بشكل عملي تطبيقي ما كان يجري في المجتمع من منازعات تمثِّل حياة الناس خير تمثيل[7]. وتأتي أهمية نوازله في أنها كانت شاهد عيان على تلك القضايا (الاجتماعية والقانونية والتاريخية)، كما تضمنت وثائقَ غاية في الأهمية عن أحكام القضاء الجنائي في الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وتُلْقي الضوء على التاريخ الاجتماعي للأندلس في تلك الحقبة التاريخية الحساسة، وعلى الإجراءات وأسلوب البحث القانوني والتحقيق والتدقيق الذي كان يتولاه القاضي قبل الفصل في القضايا المعروضة عليه.

وتضمَّنت نوازله أيضاً التحقيق في جرائم مثل: القتل العمد ببواعثه المختلفة، والاغتصاب، والضرب، والجرح المفضي إلى الموت أو القتل الخطأ في عرف القوانين الوضعية الراهنة، وجرائمِ السبِّ والقذف والتهديد، وجرائمَ أخرى، مثل تعكير الأمن والعبث به وتهديد سلامة الأرواح، والاعتداء على حرمة المُلكية الخاصة[8]. وقد استفاد من هذه النوازل ليفي بروفنسال؛ حيث رجع إليه [أي إلى الكتاب] في كثير من المواضع التي كُتبَت عن نُظُم الحكم في الأندلس، وعن حياة المجتمع الأندلسي وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية[9].

كما وجدنا وثائق تتعلق بقضايا عدة، منها: قضايا خاصة بالسوق ورقابة المحتسب على أعمال الصناع والتجار، ومنها: أن بعض الخرازين[10] تألَّبوا على المحتسب وأرادوا إخراجه من السوق ومنعَه من إعمال رقابته عليهم، وادَّعوا عليه بإلحاق الأذى بهم والتسلط عليهم؛ لأنه كشف غشهم ونبههم إلى سوء عملهم وردِّهم ابن عتاب[11]، وأكد على أنه لا يباح لهم ذلك، والأَوْلى بالإخراج المعترِض لا المحتسب[12].

ونجد وثيقة أخرى توضح استيلاء ابن السقاء (مدبِّر الحكم الجَهوَري) على أموال المسلمين؛ فأصبح ذا ثروة طائلة وابتنى القصور والضِّياع، وكانت وقائع القضية والحكم فيها محلَّ تشاور بين صاحب أحكام قضاء الجماعة بقرطبة (سراج بن عبد الله)، وبين المشاوَرين (محمد بن عتاب، وأحمد بن محمد، وموسى بن هذيل) من فقهاء قرطبة، وتؤكد الوثيقة على أن ابن السقاء قَبْل تولي المنصب لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئاً، وعندما توفي عام ٤٥٥ هـ خلَّف تَرِكة واسعة وتبيَّن أنها من أموال لمسلمين. وتم التوصل إلى أن جميع ما تركه هو للمسلمين إلا ما صحَّت ملكيته له[13].

كما أفادت نوازله في قضايا كثيرة، منها: قضايا الجواري

(١) عمر عبد الكريم الجيدي: الأندلسيون واستحداث مصدر تشريعي جديد، ندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الخامس، العلوم الشرعية، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٩٩٦م، ص ٨٩.

(٢) خوان مارتوس كيصادا: الفقه والقانون الإسلامي في الأندلس، منشورات ما بعد الحداثة، فاس، ٢٠٠٨ م، ص١١٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٠ - ١٢٥.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠.

(٥) هو عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي يُكْنَى أبا الأصبغ، ولد بجيَّان سنة٤١٣هـ/١٠٢٢م، والده يتولى الصلاة والخطبة بحصن القعلة وبها سكناه، وكان معدوداً في أهل العلم، مع الصلاح والخير، راجع: الصلة لابن بشكوال، ترجمة رقم ٩٤٢، الديباج المذهب، لابن فرحون: ١/ ٧٠، ترجمة رقم ٣.

(٦) راجع: مقدمة نشرة ديوان الأحكام الكبرى لابن سهل، ص ١٩.

(٧) ابن سهل: وثائق في شؤون الحسبة في الأندلس، مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل، دراسة وتحقيق محمد عبد الوهاب خلاَّف، مراجعة محمود علي مكي، مصطفى كامل إسماعيل، القاهرة، المركز العربي العالمي للإعلام،١٩٨٥م، ص ٦.

(٨) المصدر السابق، ص ٦٤.

(٩) راجع، ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢م.

(١٠) الخرازون: هم محترفو الخرازة، وهي صناعة الجلد والأحذية.

(١١) ابن عتاب (ت ٤٦٢ هـ - ١٠٦٩ م): هو محمد بن عتاب بن محسن، مولى عبد الملك ابن سليمان بن أبي عتاب الجذامي، من أل قرطبة، وهو كبير المفتين بها، يكنى: أبا عبد الله، دعي إلى القضاء مراراً فأبى راجع، الصلة: ترجمة رقم ١١٩٤، المغرب في حلى المغرب: ١/ ١٦٥، ترجمة رقم ١١١.

(١٢) وثائق في شؤون الحسبة في الأندلس، مرجع سابق، ص ٢١.

(١٣) المصدر السابق، ص٤٤.

والإماء، ورَفْع بيَع النصارى، والمعاملات اليومية بين المسلمين واليهود في الأندلس في بداية عصر المرابطين. وكشفت نوازله عما كان يحدث في الأندلس من (تدليس في الشهادة على الخط)[1] من خلال ما ذكره لأحد أعلام المذهب المالكي، وهو الفقيه محمد بن عبد الحكم، الذي قال عن هذه الشهادة: «لا أرى أن يُقضى في دهرنا بالشهادة على الخط لما أحدث الناس من الفجور والضرب على الخط»[2]، وكانت الشهادة على الخط ترتبط في حالات كثيرة بالتدليس[3].

ابن الحاج (ت ٥٢٩ هـ - ١١٣٤م)[4]:

وابن الحاج الشهيد[5]، شخصية علمية، عاصرت المرحلة المرابطية حتى (٥٢٩هـ - ١١٣٤م)، وتميزت فتاواه بالتنوع، فضلاً عن معاصرته لكبار العلماء: كابن رشد الجد (٤٥٠ - ٥٢٠ هـ، ١٠٥٨ - ١١٢٦م)، وابن عتاب، والقاضي ابن حمدين، وقد أورد نصوصاً عبَّرت عن مظهر هام من مظاهر التحولات الكبرى، في كيفية تعامل السياسي والفقيه مع ميراث ملوك الطوائف المالي والعقاري، وهي من المسائل الخطيرة أثناء قيام أنظمة سلطانية جديدة تتجدد معها العقود والوثائق والأحكام بحسب ظروف العصر؛ فقد كان ابن الحاج واضحاً مع حق بيت مال المسلمين في أموال الحكام المتغلبين (أموال الظَّلَمة)، وقد أدَّت جرأة ابن رشد الجد الذي استُفتِي في هذا الأمر إلى محنة كبرى، انتصر فيها السياسي الظرفي على الحكم الشرعي، وهذا من خلال تدخُّل ابن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة وواحد من أشهر وجوه العصر أيضاً.

ومن بين النصوص النادرة نص هام يتحدث عن قضايا الجواري والإماء والعبيد ومحاكم العصر في حواضر المرابطين؛ حيث أظهر ابن الحاج (حِسَّ الفتوى) الذي اكتسبه من خلال تعامله مع واقعه المجتمعي كما أفاد ابن الحاج من خلال فتاويه الخاصة بالمُلْكية العقارية ووَضْع البساتين والنزاعات القائمة بين الأقارب، ومسائل المياه؛ خاصة في عنصر الفلاحة، وتنهض حصيلة النصوص الكثيرة حجةً قائمة على أهمية المصادر الدفينة وكتب النوازل خاصة في إعادة كتابة تاريخ الغرب الإسلامي الديني والثقافي والاقتصادي.

وكان لاكتشاف نوازل ابن الحاج، وطبع نوازل ابن رشد والشعبي المالقي والبُرْزُلي أن قدمت خدمة معرفية لا مثيل لها؛ فقد كشفت وثائق ابن الحاج زيف ادِّعاءات المدرسة الاستعمارية حول مسائل القبيلة والتراتب الاجتماعي، كما كشفت الملكيات العقارية والنزاعات في الريف الأندلسي والمغربي أهميةَ إعادة النظر في نظرية علماء الأنثروبولوجيا من أساسها، وأدعياء أن نهضة الأندلس قائمة على الميراث الروماني حول تقنيات السقي وتوزيع المياه في البساتين.

وفي نوازله نجد نصوصاً حول وسائل غير شرعية ساهمت في تكوين الملكيات الفردية: كالبيع بالغبن والمحسوبية الذي ساد خلال المرحلة المضطربة من العصر المرابطي الأخير[6]، وكذلك عمليات الاغتصاب والسطو والاستحواذ بالقوة على بعضها. وفي هذا الصدد وردت نازلة حول زعيم منطقة قروية استحوذ على أرض رجل[7]، فضلاً عن نازلة أخرى تكشف عن استغلال مقدَّم القرية لنفوذه بقصد الحفاظ على أرض حصل عليها بوسيلة غير شرعية[8].

إن نصوصه تكشف بما لا يدع مجالاً للشك عن وجود ملكيات غير شرعية في بوادي المغرب والأندلس خلال الحقبة المرابطية[9]؛ وذلك من خلال نازلة حول شخص دفعه قوم عن أرضه وشجره، وهو نص غني عن كل بيان؛ إذ كما أن غياب بعض الأشخاص عن أراضيهم لسبب من الأسباب قد يؤدي - حسبما تبيِّنه النصوص لابن الحاج - إلى هضم حقوقهم، وفي هذا السياق وردت نازلة حول رجل ترك ابنين وترك لهما قرية يعمرونها، فغاب أحدهما غيبة متصلة ثم قَدِم فوجد الأخ قد توفي وترك ابناً له يعتمر القرية، فقال له العم: يا بن أخي! هذه القرية حصتي فيها، فقال له الصبي: يا عم ليس فيها شيء[10].

وبَدَيهي أن تُسفِر عمليات الاستحواذ عن نشوب نزاعات شملت سكان القرية أحياناً لتشمل الأقرباء أنفسهم؛ بل امتدت لتشمل الأخوة داخل العائلة الواحدة. وفي هذا المنحى ورد في إحدى نوازله أن رجلاً توفي عن قرية كان له فيها مُلْك وفي غيرها فاستغل ابنه المُلْكين جميعاً مدة ثلاثين عاماً بعد وفاة ابيه، ثم قامت عليه أخته تطلب حظاً فيها؛ كان لأبيها في

(١) محمد عبد الوهاب خلاَّف: تاريخ القضاء في الأندلس، القاهرة، ص٢٥٥، ٢٥٦.
(٢) ابن سهل: السفر الأول والثاني، ورقة ١٣٢، ١٣٣.
(٣) عادل يحيى عبد المنعم: النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتَّاب الأندلسيين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ص ١١٨.
(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي، فقيه فاضل، حَسَن الضبط، جيد الكتب، مطبوع في الفتيا، مقدَّم في الشورى. راجع، الغنية، ص ٤٧.
(٥) للمزيد راجع: أحمد اليوسفي شعيب: أهمية الفتاوى الفقهية في كشف وقائع التجربة الأندلسية (نوازل ابن الحاج نموذجاً).
(٦) إبراهيم القادري بوتشيش: إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٣٧.
(٧) نوازل ابن الحاج: ص ١١٦ - ١١٧.
(٨) نوازل ابن الحاج: ص ٢٨٠.
(٩) إضاءات، مرجع سابق، ص ٣٨.
(١٠) نوازل ابن الحاج: ص٢١٥.

القرية التي توفي فيها[1].

ومن نوازل ابن الحاج يمكن للبحث التاريخي الإفادة منها في رصد شكل من أشكال العلاقة بين المزارع وربِّ الأرض، وهو ما يُعرَف بالمغارسة التي تقتضي أن يستأجر المالك زارعاً يتقن غراسة الأشجار لمدة يتفق عليها الجانبان، قد تصل إلى عشر سنوات. وبمقتضى العقد يسلِّم صاحب الأرض المساحة المغروسة وما يستلزمها من سقي وزريعة، بينما يقدم المزارع عمله فيتعهد الأشجار بالغراسة والسقي، على أن يتقاسم الطرفان المحصول مناصفة[2]. غير أنه في بعض الأحيان كان يترتب على ذلك مشاكل بينهما، خاصة عند حدوث كوارث طبيعية أو حريق يأتي على الأشجار. وهذا ما يتضح من خلال النازلة الآتية[3]: «سئل ابن الحاج عمَّن غارس رجلاً إلى الإطعام مغارسة صحيحة؛ فإذا بلغته، كان بينهما بنصفين يقتسمانه. فلما بلغ ذلك، احترق، فامتنع ربُّ الأرض من إعطائه نصفها»[4].

وفي نوازله أيضاً يتضح لنا وجود علاقة وطيدة بين أصحاب النفوذ والنظام المرابطي الذي منحهم الجاه وحظوا برعايته رغبة أو رهبة، ومنها ما ورد في إحدى نوازله من أن رجلاً عاوض فداناً بكَرْم[5] كان بحوزة مقدَّم القرية، وكان للرجل أخت لها نصيب في الفدان، فلما علمت بذلك أرادت أن تطالب مقدَّم القرية بحقها، فلم تجرؤ عليه حتى زال من خطته[6]. وأبرزت نوازله كثيراً من صلاحيات المحتسب وحدود سلطته[7].

وفي ميدان الصناعة تختزن نوازل ابن الحاج معلومات متنوعة؛ فبالنسبة للتعدين تُحدِّثنا نازلة عن حاجة الأندلسيين إلى المعادن، وتؤكد «ضرورتهم إلى التحرُّف فيها»[8]، وكان الفقهاء «يفتون في الحديد الذي يساق من المعادن ويباع في سوق الحدادين ثم يُشتَرَى من التجار... لعمل الآلات منه»[9]، وتعرضت نوازله لمشاكل خاصة بسبب سوء جودة بعض المعادن[10].

وفي ميدان التجارة تعرَّض لمسائل متعددة تخص العقارات المثمَّرة[11] والبيوع والاستدانة[12]، ومسائل القروض[13]، والتسعير على أهل الأسواق[14]، وما حدث للعملات من تقلُّبات، مثل تعرُّضه لانقراض عُمْلة ابن جَهوَر في قرطبة ومنافسة سكة ابن عباد لها[15].

أما من الناحية الاجتماعية، فقد رصد لنا ابن الحاج ما وصل إليه عدد كبير من النصارى من مكانة اجتماعية مرموقة؛ فنجده يصف أحد النصارى بأنه «ذو جاه ومقدرة»[16]، وكيف أن بعضهم كسب ثروات طائلة بطرق غير شرعية في عصر ملوك الطوائف، وتمكَّن من الاحتفاظ بها لنفسه عن طريق الاحتماء وراء «أصحاب النفوذ والجاه»[17]، وكيف حظوا أيضاً برعاية الدولة خاصة في عهد علي بن يوسف بن تاشفين الذي كان يشملهم بعطفه ورعايته، حتى إن إحدى الوثائق المسيحية أكدت أن تعلُّقه بالنصارى فاق تعلُّقه برعيَّته، وأنه أنعم عليهم بالذهب والفضة وأسكنهم القصور[18]. كما تضمنت نوازله أخباراً عن اليهود وإشارات عن دَوْرهم في الحياة الأندلسية[19]. وفي نوازل ابن الحاج نراه يُبرِز التدرج الطبقي في الأندلس؛ حيث قسم الناس إلى ثلاث طبقات: الأغنياء، ومتوسطو الحال، والمقلُّون[20]، وفي ما يخص طبقة الحكام والأعيان يشير إلى تفشِّي ظاهرة استغلال النفوذ والشطط في استعمال السلطة[21]، وغيرها من الآفات الاجتماعية؛ حتى إن بعضهم كان يرغم الناس على بيع ممتلكاتهم[22] كما أن بعضهم تمكَّن من تنمية ثرواته عن طريق التسليف بالفوائد[23].

وهكذا يتضح لنا أن كتب النوازل اشتملت على أحداث (تاريخية وفقهية واقتصادية واجتماعية) قد لا تتوفَّر في كتب التاريخ أحياناً؛ وذلك لأن النوازل تُعتَبَر انعكاساً صادقاً لأحداث المنطقة وظروفها.

---

(١) إضاءات، مرجع سابق، ص ٣٧.
(٢) النوازل الفقهية، مرجع سابق.
(٣) المرجع السابق.
(٤) نوازل ابن الحاج: ص ٣١.
(٥) أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسب أحدكم الدهر؛ فإن الله هو الدهر، ولا يقولن أحدكم للعنب الكرم؛ فإن الكرم الرجل المسلم» البيان.
(٦) نوازل ابن الحاج: ص ١١٣ – ١١٤.
(٧) نوازل ابن الحاج: ص ٢٧٩ – ٢٨٠.
(٨) نوازل ابن الحاج: ص ١٧٧.
(٩) نوازل ابن الحاج: ص ١٩ – ٢٠.
(١٠) نوازل ابن الحاج: ص ٢٠.
(١١) نوازل ابن الحاج: ص ٣٦.
(١٢) نوازل ابن الحاج: ص ٧، ٣٢.
(١٣) نوازل ابن الحاج: ص ٢٧٩ – ٢٨٠.
(١٤) نوازل ابن الحاج: ص ٢٨٩ – ٢٩٠.
(١٥) نوازل ابن الحاج: ص ٢٩٥.
(١٦) نوازل ابن الحاج: ص ١١٩.
(١٧) نوازل ابن الحاج: ص ٢٥٢.
(١٨) إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ط١، دار الطليعة، ١٩٩٨م، ص ٧٤.
(١٩) راجع – على سبيل المثال – نوازل ابن الحاج: ص ٢٩٣.
(٢٠) نوازل ابن الحاج: ص ٩٠ – ٩١.
(٢١) نوازل ابن الحاج: ص ٢٥٢ – ٢٥٣.
(٢٢) نوازل ابن الحاج: ص ١٦، ٣٥.
(٢٣) نوازل ابن الحاج: ص ٢٧٧.

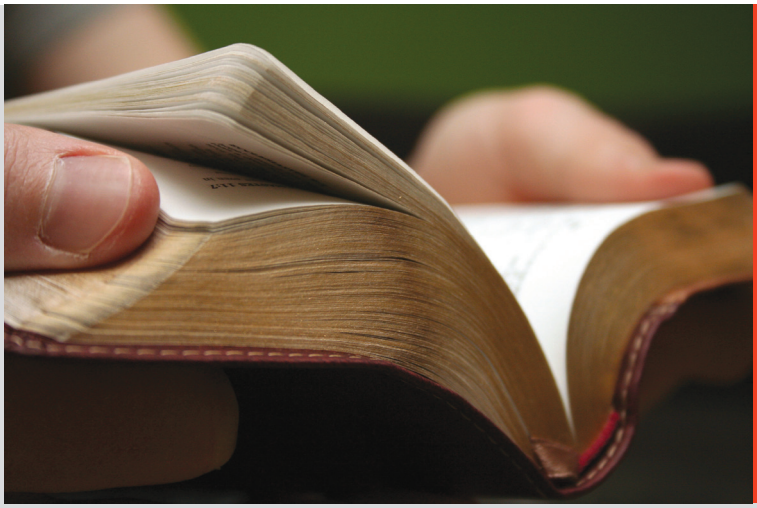

اللغات الأجنبية وأثرها على الهوية الإسلامية

عبد الكريم القلالي
Karim_kallali@targuistcity.net

ميدان الفكر والثقافة من أهم ميادين الصراع المحتدم بين الحق والباطل، وقد برزت المواجهة الفكرية أكثر فأكثر في العصر الحاضر بعد أن خَفَتَ صوت الأسلحة نسبياً، وما تزال دول البطش والاستكبار تشن حروبها على الدول والبلدان، وتُغرِق العالم بزبَدها الخاثر وسيلها الجارف؛ لتشكيل العقول وَفْقَ النمط الذي تريد.

ولما كان للغة أثرها البالغ في صياغة التفكير، وتشكيل الثقافة، بذل المستخرب ما في وسعه لعزل لغة المسلمين عن واقعهم وتهميشها في حياتهم؛ بتعمُّد إقصائها وإشاعة اللهجات الأجنبية والعامية المحلية محلها؛ حتى يهيمن الغزو الفكري على اللغة والمعتقد والفكر والسلوك.

وكثير من البلدان الإسلامية تئن من هذا الأَسْر والقيد الفكري بالجبر والتسيير الثقافي المفروض؛ ولا أدل ذلك من اعتماد كثير من الدول الإسلامية اللغاتِ الأجنبيةَ في مدارسها وإعطائها الأولوية على العربية في المراحل الأولية والنهائية من التعليم.

وليست المشكلة في تعلُّم هاته اللغات بقدر ما هي المشكلة في ضعف الإرادة، وسلبية الفكر، واختلال المقاييس، واضطراب الموازين المتمثل في العجز عن اعتماد لغة الأمة لغة أُولَى؛ لها الأولوية في كل المجالات.

والمعركة اللغوية التي يخوضها الغرب الغالب مع الشعوب الإسلامية المغلوبة هي في الحقيقة حرب لغوية وفكرية وعقائدية في آن واحد، جذرها: الصراع بين الحق والباطل.

(*) أستاذ التعليم العتيق بمعهد الإمام مالك بتطوان.

ويخطئ من يظن أن اللغة وسيلة خطاب وتواصل فقط، بل اللغة عنصر هام من عناصر تشكيل الهوية؛ ذلك أن الألفاظ لها دورها وأثرها، في نمط الفكر.

ومما يدعو للأسى والأسف أن تجد بعض أبناء جلدتنا إن أخطؤوا في لفظ أو كتابة كلمة بلغة من اللغات الأجنبية المنتشرة ونُبِّهوا لذلك أبدَوا أسفهم واعتذارهم، وإن حصل الخطأ نفسه مع لغتهم الأم (العربية)؛ تجدهم لا يبالون؛ بل بعضهم يتباهى قائلاً: لا أُحسِن العربية.

والهدف من وراء فرض اللغات الأجنبية علينا هو هجر اللغة العربية، ومن ثَمَّ الجهل بالدين، ثم ضعف الشعور بالانتماء إليه، ولكي لا تبقى للمسلمين لغة توحِّدهم وتجمعهم؛ فتذوب هويتهم وتسهل السيطرة عليهم.

ومن سياسة الاستخراب فرض نمطه الفكري والثقافي والسلوكي واللغوي، على البلدان التي احتلها وما يزال؛ لتبقى أثراً بعد رحيله عنها شكلاً، وتم له بعض ذلك؛ ففي كثير من الدول الإسلامية اللغات الأجنبية هي الشائعة في التواصل والإدارة، وفي ذلك تذويب للهوية الإسلامية بطمس إحدى مكوناتها.

وعلى الدول الإسلامية التي اعتمدت العربيةَ لغةً لها في دستورها أن تكون هي أول من يسعى لتطبيق هذا الدستور وتنزيله على أرض الواقع؛ وتفرض على جميع المؤسسات - بما فيها الأجنبية الموجودة على ترابها - أن تعتمد العربية لغة لها في جميع وثائقها، وأن تسخِّر هيآت لرقابة ذلك والسهر على تنفيذه.

ويجب إنشـــاء مؤسسات لدعم اللغة؛ فالجهود الفردية وإن كانـــت مهمة فإنها تبقى محدودة الأثر، وإمكانات الأفراد مهما بلغت، ســـوف تبقى دون مستوى مواجهة المشكلة التي تواجهها الأمة بدعم من الدول الســـاعية إلى فـــرض هيمنتها الفكرية على الشعوب المستضعفة؛ فالمواجهة لا بد أن يكون طرفها دولة وراءها أفراد؛ حتى تكون مواجَهةً متكافئةً.

ولقـــد أصبح من الضـــرورة بمكان وضـــع خطة واضحة دقيقة لأسلمة العلوم وتعريبها من أجل الحفاظ على لغة الأمة التـــي هي جزء من هويتها؛ مثلما فعـــل الغربيون مع الحضارة الإسلامية؛ حيث نقلوها إلى لغاتهم، ودرَّسوها لأبنائهم بلغاتهم حفاظاً عليها وسدّاً لباب انتشار العربية ببلدانهم.

كما لا بد أن تقوم دراســـات ناقدة ببيان أثر هاته اللغات على الناشـــئة، وتضع خطةً لترشـــيد المتعلمين وتحذيرهم من الســـموم الفكرية والأخلاقية التـــي تحتويها كثير من نصوص المقررات التعليمية، والتي يراد من خلالها زحزحة عقيدة أبناء الأمة تحت ذريعة تعلُّم اللغة.

فمن أُشـــرِب لغة فـــي صباه فإنه يشـــرب أيضـــاً ثقافتها وجذورها، ويحاكي أهلها ولو نأت به الديار؛ لذا نجد الولاء لدى بعض الناشئة للبلدان الأجنبية أكثر من ولائهم لوطنهم وأمتهم.

لقد آن للأمة أن تنفك من قيود التحكم الثقافي، والمعســـكر الفكري الذي عطل فاعلية أمة المســـلمين اليوم، وشـــل نشاطها في التجديد والابتكار. ومن البشـــائر التي نسمعها اليوم نداآتٌ ومطالباتٌ لاعتماد العربية لغة رسمية في المدارس ببعض البلدان الأجنبية؛ شـــعوراً من المغتربين في المهجـــر بالخطر الذي يهدد أبناءهـــم. وتمثل تلك المطالبات حركة وعي، وهي ثمرة من ثمار الصحوة الإسلامية المعاصرة اليوم.

ولما شعر الغرب ببداية صحوة، ورأى لغته مهددة عمد إلى إنشـــاء أبواقٍ تدعو إلى لهجات محلية، ووضع لذلك مؤسسات ومتخصصين يتولون الدعوة والتنفيذ؛ فالمشكلة لم تعد مشكلة لغة فحسب؛ ولكنها في الحقيقة مشـــكلة فكر وتبعية وانقياد أعمى في شتى الجوانب.

والتوازن الفكري واللغوي أمر لا بد منه في المعادلة لفرض الـــذات، وبقدر هذا التوازن تكون القـــوة والقدرة على العطاء الإنساني الذي يكسب الاحترام والوجود المتميز. والناشئة من أبنائنـــا أحوج في هذا العصر أكثر من أي عصر مضى، إلى أن يرتبطوا بلغتهم حبّاً وولاءً.

فهل يليق بنا الحفاظ على لغات الآخرين وثقافاتهم وإهمال لغتنا وثقافتنا، وحفظ زَبَدِهم وتضييع نفعنا؟ إن من رضي بذلك فقد غالط طبيعة الأشياء، ورضي لنفسه أن يكون تابعاً ذليلاً بلا مبدأ ولا منهج؛ فالحفاظ على اللغة العربية حفاظ على الدين والتاريخ والهوية.

انظر كيف هو الصراع قائم بين دول كبرى بســـبب اللغة؛ كل دولة تسعى لبسط لغتها أكثر في مختلف الأصقاع؛ وترصد لذلك ميزانيات ضخمة؛ لما للغة من أثر في الهيمنة والتبعية.

إن ثمة بعض الشاذين فكرياً يظنون أن اللغات الأجنبية سِمَة تقـــدُّم وازدهار؛ بينما هـــي تبعية وتنكُّر للهويـــة؛ فكيف يحافظ الإنســـان الصيني والياباني على لغته؛ ويحرص على فرضها في مختلف المحافل والمناســـبات، ويتنكر العربـــي للغته التي هي لغة قرآنية ربانية، ويحسبها وصمة عار على لسانه إن هو تفوَّه بها.

إن إهمال العربية تنتج عنه سلبيات شتى، يكفي من ذلك ما قاله الرافعـــي: «ما ذلَّت لغة شـــعب إلا ذلَّ، ولا انحطَّت إلا كان أَمْرُه في ذهاب وإدبار، ومن هنا يفرض الأجنبي المســـتعمر لغته فرضاً على الأمة المســـتعمَرة، ويركبهم بها، ويُشعِرُهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثة في عمل واحد:

أما الأول: فحَبْس لغتهم في لغته سجناً مؤبداً.

وأما الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محواً ونسياناً.

وأما الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها؛ فأَمْرُهم من بعدها لأمره تبع».

ونحن بهذا لا نريد أن نغمط حق أي شـــخص في تعلُّم أي لغة، ولا أن نقلل من شأنها، لكن بضوابط وقيود؛ خاصة أولئك الذين يتعلمونها لحاجات تعوزهم لذلك.

وما أسلفناه لا يعني أنَّ تعلُّم لغات الآخرين مذموم إطلاقاً، بل هو مطلوب ومرغَّب فيه؛ لكن مع المحافظة على اللغة العربية لغة القرآن؛ فقد أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لغة يهود فتعلمها في خمسة عشر يوماً[1]. وفي هذا دليل على جوازِ تعلُّم أي لغة عندما تقتضي الحاجة ذلك.

والمنطق الســـليم يقتضي أن لا يُنتقَـــل إلى أي لغة إلا بعد إتقان اللغة الأم؛ فكيف يستســـاغ أن يســـعى المسلم لإتقان لغةٍ غيـــر لغته، فيبذل قصارى جهده في تعلمها، و يهمل في الوقت نفسه لغته.

---

(١) أخرج الألباني – رحمه الله – في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٦٤ قوله ﷺ: «تعلَّم كتاب اليهود؛ فإني لا آمنهم على كتابنا»، وقال: رواه أبو داود (٣٦٤٥)، والترمذي (٢/ ١١٩)، والحاكم (١/ ٧٥) وصححه، وأحمد (٥/ ١٨٦)، والفاكهي في «حديثه»: (١/ ١٤/ ٢) واللفظ له. كلهم عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن خارجة ابن زيد عن أبيه قال: «لما قَدِم النبي ﷺ المدينة، أُتي بي إليه ، فقرأت عليه، فقال لي: (فذكره). قال: فما مر بي خَمس عشرة حتى تعلمته ، فكنت أكتب للنبي ﷺ، و أقرأ كتبهم إليه». وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» البيان.

بين الراعي والرعيَّة

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

لما اشتكى بعض أهل الكوفة أميرهم سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - عزله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مع أنه كان يعلم كذب تلك الشكوى، فسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - من السابقين الأولين إلى الإسلام، ومن العشرة المبشرين بالجنة، وفدَّاه رسول الله ﷺ بوالديه. ومع ذلك رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن يعزله من الإمارة درءاً للفتنة في المجتمع، وقطعاً لمادة الجدل والقيل والقال. وحتى يعلم الناس أن عمر - رضي الله عنه - لم يعزل سعداً لما قيل عنه، فإننا نجده بعد سنوات لَـمَّا طعن يذكره في أهل الشورى الستة الذين يختارون الخليفة من بعده، ويقول بأنه: (لم يعزله عن عجز أو خيانة)[1]. فانظر إلى فقه عمر وبُعْد نظره وعمق بصيرته، وحرصه على الاستقرار السياسي والتماسك الاجتماعي بين الراعي والرعية؛ فبمقدار الأُلفة والمحبة والثقة بين الطرفين يتحقق الاطمئنان والسلم الاجتماعي، وفي هذا الباب يقول النبي ﷺ: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلُّون عليكم وتصلون عليهم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»[2].

(١) أخرجه: البخاري في فضائل الصحابة، رقم (٣٧٠٠).
(٢) أخرجه: مسلم في كتاب الإمارة، رقم (١٨٥٥).

هـذا الترابط الوثيق المبني على التراحم والشفقة وليس على المغالبة والمشاحنة: هو السبيل الوحيد لاستقرار المجتمع، وتماسك بنيانه؛ ولهذا نرى النبي ﷺ يقطع الطريق على كل ما يكدر هذه الصلة، ويبيَّن أن أساس العقد السياسي الذي تجتمع عليه الأمة هو التراضي والأُلفة؛ ففي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من أمَّ قوماً وهم له كارهون، فإن صلاته لا تجاوز ترقوته»[1]، فإذا كان هذا في إمامة الصلاة لعدد محدود من المسلمين، فكيف بالإمامة العظمى؟

ومن ألطف ما قرأته في هذا السياق ما رواه مسلم في صحيحه أن عبد الرحمن بن شماسة قال: أتيت عائشة - رضي الله عنها - أسألها عن شيء، فقالت ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم - يعني معاوية بن خديج - لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئاً، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج النفقة فيعطيه النفقة. فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفِق به»[2]. فعمرو بن العاص - رضي الله عنه - عرف واجبه نحو رعيته فكان لهم نعم النصير والرفيق، وعائشة - رضي الله عنها - بكل إنصاف وتجرُّد تبين منهج الإسلام في ترسيخ أواصر الرحمة والشفقة السياسية؛ ولهذا كان شر الولاة الذي يحطم الناس بعنفه وشدته، وتحميله لهم ما لا يطيقون؛ فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن شر الرعاء الحطمة»[3].

ومن الصور العملية الرائعة التي تحقق هذه الغاية العظيمة أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خطب في رعيته قائلاً: (ألا إني - والله - ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلِّموكم دينكم وسُنَّتكم؛ فمن فُعِل به شيء سوى ذلك فَلْيرفعه إليَّ؛ فوالذي نفسي بيده إذاً لأقصنه منه. فوثب عمرو بن العاص - رضي الله عنه - فقال: يا أمير المؤمنين! أَوَ رأيت إن كان رجل من المسلمين على رعية، فأدب بعض رعيته، أئنك لمقتصه منه؟ قال: إي والذي نفس عمر بيده إذاً لأقصنه منه، أنَّى لي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم)[4]؛ ومن رقَّة عمر - رضي الله عنه - وشفقته على رعيته أنه استعمل رجلاً من بني أسد على عمل، فدخل ليُسلِّم عليه، فأتى عمر - رضي الله عنه - ببعض ولده فقبَّله، فقال له الأسدي: أتقبِّل هذا يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما قبَّلت ولداً لي قط! فقال عمر - رضي الله عنه -: «فأنت - والله! - بالناس أقل رحمة، لا تعمل لي عملاً»، فردَّ عهده[5]. فعمر - رضي الله عنه - في هذين النصين العزيزين كان واضحاً في خطابه مع الولاة والرعية، حازماً في رعاية حقوق الناس، حريصاً على تعزيز كرامتهم وإنسانيتهم؛ فمهمة الوالي ليست التسلط والتطاول على الناس وسلبهم أموالهم؛ بل الإحسان إليهم، والحفاظ على حقوقهم، وإخراجهم من دواعي العبودية والذلة لغير الله تعالى؛ ولهذا توعد النبي ﷺ الوالي الذي يُعرِض عن حقوق الناس، ويستهين بحاجاتهم، بقوله: «ما من إمام أو والٍ يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة؛ إلا أغلق الله أبواب السماء دون حاجته وخلته ومسكنته»[6].

ومن الأخبار العجيبة التي تستحق التأمل والدراسة، ما رواه أبو قبيل قال: (خطبنا معاوية - رضي الله عنه - في يوم جمعة فقال: إنما المال مالنا، والفيء فيؤنا، من شئنا أعطينا، ومن شئنا منعنا. فلم يردَّ عليه أحد. فلما كانت الجمعة الثانية قال مثل مقالته، فلم يردَّ عليه أحد. فلما كانت الجمعة الثالثة قال مثل مقالته، فقام رجل ممَّن شهد المسجد فقال: كلا، بل المال مالنا، والفيء فيؤنا، من حال بيننا وبينه حاكمناه بأسيافنا. فلما صلى أمر بالرجل فأُدخل عليه، فأجلسه معه على السرير، ثم أذن للناس فدخلوا عليه، ثم قال: أيها الناس! إني تكلمت في أول جمعة فلم يردَّ عليَّ أحد، وفي الثانية فلم يردَّ علي أحد، فلما كانت الثالثة أحياني هذا أحياه الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيأتي قوم يتكلمون فلا يُرَدُّ عليهم، يتقاحمون في النار تقاحم القردة»، فخشيت أن يجعلني الله منهم، فلمَّا ردَّ هذا عليَّ

(١) عزاه الألباني إلى ابن عساكر، وصححه بمجموع طرقه في السلسة الصحيحة، رقم (٢٣٢٥).
(٢) أخرجه: مسلم في كتابة الإمارة، رقم (١٨٢٨).
(٣) أخرجه: مسلم في كتابة الإمارة، رقم (١٨٣٠).
(٤) أخرجه: أحمد، رقم (٢٨٦). والغِياضُ: جمع غَيْضة؛ وهي الشجر المُلْتَفُّ؛ لأنهم إذا نزَلُوها تفرَّقوا فيها فتمكَّن منهم العدوُّ. لسان العرب، مادة (غيض)
(٥) أخرجه: هناد بن السري في الزهد: (٢/ ٦١٩)، رقم (١٣٣٢).
(٦) أخرجه: أحمد، رقم (١٨٠٣٣)، ونحوه برقم (١٥٦٥٢)، والترمذي في كتاب الأحكام، رقم (١٣٣٢). وصححه لغيره الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

أحياني أحياه الله، ورجوت أن لا يجعلني الله منهم)[1].

فانظر إلى سرعة فيء معاوية - رضي الله عنه - ورجوعه إلى الصواب وإنصافه من نفسه، واعترافه بالحق أمام رعيته دون استنكاف أو تكبر.

الخلاصة: إن الوالي بهذا المفهوم أجير عند الناس، يسعى في حاجاتهم ويحوطهم برعايته ومسؤوليته، وهذا ما فهمه أبو مسلم الخولاني، رحمه الله؛ فقد دخل على معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - وقال: السلام عليك أيها الأجير! فقال الناس: الأمير يا أبا مسلم! ثم قال: السلام عليك أيها الأجير! فقال الناس: الأمير! فقال معاوية: دعوا أبا مسلم هو أعلم بما يقول. قال أبو مسلم: (إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيراً فولاه ماشيته، وجعل له الأجر على أن يُحسِن الرعية، ويوفر جزازها وألبانها، فإن هو أحسن رعيتها ووفر جزازها وألبانها حتى تلحق الصغيرة، وتسمن العجفاء؛ أعطاه أجره وزاد من قِبَله زيادة. وإن هو لم يُحسِن رعيتها، وأضاعها حتى تهلك العجفاء، وتعجف السمينة، ولم يوفر جزازها وألبانها؛ غضب عليه صاحب الأجر، فعاقبه ولم يعطه الأجر)[2].

لكن متى تتحقق هذه الشفقة من الراعي؟

إنها الشفقة التي هي محصلة صدق الراعي في أداء الأمانة، وإخلاصه في خدمة رعيته؛ ذلك أن غش الرعية والتفريط في حقوقها بالغُ الخطورة وخيمُ العاقبة، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة»[3]. وكما جاء فيه أيضاً من قوله ﷺ: «ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم وينصح؛ إلا لم يدخل معهم الجنة»[4]. وقد بيَّن رسول الله ﷺ أنه يخاف على أمته من بعض الأئمة المضلين، فقال: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»[5]. وإمامة الضلال ها هنا جامعة لكل من يقود الناس إلى غير الطريق المستقيم والسبيل السوي الذي يصلح به حال الدين والدنيا، ولن تكون تلك القيادة موفقة مسدَّدة إلا إذا كان شرع الله هو المنهاج الذي يعتصم به الرعاة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن انفرد السلطان عن الدين، أو الدين عن السلطان، فسدت أحوال الناس)[6].

تأمل هذا كله ثم قارنه بتلك القطيعة المتجذرة والفجوة الهائلة في عالمنا العربي بين كثير من الحكومات وشعوبها، فهي علاقة تأسست بنيتها السياسية على الأثرة والأنانية والأهواء الشخصية، وصيغ نسيجها الاجتماعي على التنافر والتعانف. ولا أجد لذلك تفسيراً يوضحه إلا الغش والخيانة التي تتدثر بها بعض الأنظمة والحكومات، التي لم تلتفت إلى مصالح الشعوب ولم تقدر حقوقهم وتطلعاتهم .

وإن تعجب فلن ينقضي عجبك عندما ترى استئثار بعض الرؤساء بالسلطة، وتضحيتهم بحقوق الشعب وبمقدرات الدولة، وبمستقبل الأجيال، مع أن أكثر الناس أعلنوا كراهيتهم ورفضهم له، ومع هذا فلا يرتد إليهم إلا صدى القمع والعناد والإصرار على البقاء في كرسي الحكم وإن كرهه من كرهه ومات من مات بسبب بغضه!

وسنة الله - تعالى - التي لا تتغير في جميع الفراعنه عبر التاريخ: أن علوهم في الأرض واستكبارهم فيها لا يتحقق إلا باستضعاف الناس وتفريق كلمتهم وازدراءهم والاستخفاف بهم، كما قال الله - تعالى -: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [**القصص** : ٤]، وقال - سبحانه وتعالى -: ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ** ﴾ [**الزخرف** : ٥٤]. لكن سنة الله - تعالى - أيضاً لا تتبدل في أمثال هؤلاء؛ فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: (قال رسول الله ﷺ: «إن الله - عز وجل - يُملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ [**هود** : ١٠٢])[7]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وغاية مريد الرياسة أن يكون كفرعون، وجامع المال أن يكون كقارون، فقال - تعالى -: ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ** ﴾ [**غافر** : ٢١])[8].

---

(١) أخرجه: أبو يعلي، برقم (٧٣٨٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٢٣٦): (رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو يعلى، ورجاله ثقات). وصححه محقق مسند أبي يعلى، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (١٧٩٠).

(٢) أبو نعيم، في حلية الأولياء: (٢/١٢٥).

(٣) أخرجه: مسلم في كتابة الإمارة، رقم (١٨٢٩).

(٤) أخرجه: مسلم في كتاب الإمارة، رقم (١٨٢٩).

(٥) أخرجه: أبو داود في كتاب الفتن والملاحم، رقم (٤٢٥٢). والترمذي في كتاب الفتن، رقم (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (١٥٨٢).

(٦) ابن تيمية، في السياسة الشرعية (ص ٤٦٠).

(٧) أخرجه: البخاري في كتاب التفسير، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم في كتاب البر والصلة، رقم (٦٥٢٤).

(٨) ابن تيمية، في السياسة الشرعية، (ص ٤٥٦).